ABU ABDO ALBAGL

خيري الذهبي

رقصة البهلوان الأخيرة

رواية

التكوين

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

روايات عربية

❖ الكتاب : *رقصة البهلوان الأخيرة*

❖ الكاتب : **خيري الذهبي**

❖ الطبعة الأولى 2008

© جميع الحقوق محفوظة

للتأليف والترجمة والنشر

دمشق ـ حلبوني ـ الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

WWW.ATTAKWIN.COM

INFO@ATTAKWIN.COM

taakwen@yahoo. com

ص . ب : 11418

خيـري الذهـبـي

رقصة البهلوان الأخيرة

رواية

1

هاي.

كبيرة، مرحة، صارخة، بحروف تتراقص في مجون مداعب. هاي.. كان يطلقها على طريقة القصص المصورة في مجلات الأطفال، فم لفتى في الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة، وكانت هاي معلقة في فقاعة فوق رأسه.. مكتوبة على مظروف وردي.

أراد أن يمحوها عن شاشة الكومبيوتر، فقد خشي من أن تكون حاملة لفيروس ما، ولكن الصورة شدَّته إليها قبل محوها، في الوجه شيء مألوف. وجه يعرفه. لمن هذا الوجه. لمن هذا الوجه المستدير، السمين بعض الشيء، والعينان الغامضتان قليلاً. المظللتان بحاجبين ثقيلين قصيرين.

كان الفتى يلبس كنزة صوفية فوق قميص تدلت ياقته عبر ياقة الكنزة المخططة بخطوط عرضانية تغطي الصدر والبطن. من هذا الفتى، ولماذا يقول هاي. وما المقصود من هذه الرسالة. كان الفتى يلبس بنطلوناً غير مكوي يتهدل حول ساقيه وهو يجلس القرفصاء حاملاً كتاباً في يده، لم يكن يقرأ في الكتاب، بل كان يحمله فقط، وكان حذاؤه متقشراً ربما لم يمسح أو يلمّع منذ لبسه أول مرة.

أعاد تأمل الفتى. إنه يعرفه، ولكن من هذا الفتى، وهذا الوجه الأليف. أعوذ بالله. إنه يعرفه. تحركت أصابعه أكثر من مرة تريد محو الصورة والدخول إلى الانترنيت وقراءة صحف الصباح على عادته، ولكن الصورة أصرت. وظلت تردد هاي.. هاي.

كان الخيار واضحاً. امح الصورة وادخل إلى صحف الصباح أو استبق الصورة الحميمة.. .. المألوفة، الملحة، الداعبة تقول هاي. أراد أن يعرف مرسلها، أن يفتح المظروف، ولكنه توقف. لقد فعلوها معه قبل هذه المرة، فلقد فتح رسالة حب مرة، تلك التي تبدأ بكلمة أحبك كبيرة وردية تغطي قلباً ملتهباً ولكنه ما إن فتحها حتى انسلّ الفيروس إلى الملفات والأسطوانات، وخرب كل شيء، وكان عليه أن يستدعي الخبير ليقوم بتجديد كل ما خرب في الجهاز، ثم فعلوها ثانية حين وصلته رسالة عليها قبلة من شفاه غليظة مغرية، ويبدو أنّه لم يكن قد صحا تماماً من نومه أو أنّ ذكرى رسالة الحب الأولى لم تعاوده، ففتح الظرف، وكانت الكارثة. و.. ثالثة، ورابعة.. يا إلهي كم أنت محظوظ يا.. راضي.

هاي.. وضحك في سخرية: لن تخدعوني هذه المرة، لا. لن أفتح الرسالة.

دخلت مروة تحمل صينية القهوة. ونظرت إلى صورة الفتى الساكنة في الشاشة. كانت الصورة مشوشّة قليلاً؛ من هذا الفتى؟ سألت وهي تصب القهوة.

-لا أعرف.. أتستطيعين معرفته؟.

- لا.. قالت في غير اهتمام.. تفضل.

أخذ فنجانه. رشف رشفة، وأعاد تأمل الوجه المداعب وفقاعة هاي فوق رأسه. من هذا الفتى. ولماذا يشدّه إليه.

مدت مروة إصبعها إلى الكيبورد، وضغطت زرَّ المحو، فاختفى الفتى قبل أن يدرك راضي ما صنعت، وشهق: لماذا؟

- ولم تستبقيه، وأنت لا تعرفه، ولا تعرف من أرسله؟

و.. كررت ما كان يخافه: ربما كان رسالة ملغومة.. مالك، وله؟.

هه. هز رأسه في قبول، وهو يعرف أن هذا ما كان عليه فعله منذ البداية، ولكنه في جزء صغير منه تمنى لو أنه طبع الصورة. فقد كان في وجه الفتى شيء.. يشدّه إليه.

شرب القهوة. قرأ الصحف. ثرثر مع مروة، ولكن وجه الفتى وفقاعة هاي فوق رأسه لم تفارقه.

دخلت الخادم تمشي بلا صوت على عادتها، ولكن مروة أحست بدخولها، فالتفتت، والتفت، وقالت الخادم: الإفطار جاهز.

نظر إلى الكومبيوتر في أسف، فهو لم يقرأ صحف الصباح بعد، ولكن هه.. .. نفخ في سخرية: معك وقت كبير لتقرأ وتعيد القراءة حتى السأم، وقالت مروة: هيا.

لم يكن يشعر بالجوع، ولكنها العادة، كان يحلو له أن

يقول: أنا مبرمج كالغسالة الآلية ما إن أبدأ النهار حتى يبدأ البرنامج بالعمل. قراءة الصحف، القهوة، الإفطار ثم.. غصٌّ.. .. وطرد الفكرة.

رشف رشفة من فنجان القهوة بالحليب الذي دفعته أمامه، قرمش بعض اللقيمات حين رنَّ الهاتف. أشرق وجهاهما.. لا بد أن خبراً ما على الطريق.. تنهد.. لقد طال انتظار هذا الهاتف. لم يتحرك للرد رغم شهوته للرد، كانت مروة من مضت إلى الهاتف، رفعت السماعة. راقبها بعيني صقر. لكن اليبوسة التي حلت على وجهها أفهمته أنه ليس الهاتف المطلوب.. أهلاً. قالت بجفاء. كانت تسمع، وتسمع والمتكلّم على الجانب الآخر يسهب. غطّت السماعة بكفها، وهمست: أم أسعد.

أشار بكفه باستياء: لست هنا، لست هنا.

رفعت مروة كفها عن السماعة. تأتأت تحاول مقاطعة المتكلم. ولكن أم أسعد كما يبدو كانت تنهمر. وأخيراً اضطرت إلى مقاطعتها بقسوة: أرجوك يا مدام. سيادته ليس موجوداً.. أين خرج؟ أليس لديه ما يفعله؟

غطّى وجه راضي حسٌ بالأسى الخفيف، فلم يكن يتمنى أن تخاطب أم أسعد بهذه الطريقة. ولكن..

وضعت مروة السماعة، واتجهت إلى طاولة الفطور: قالت إنها تحلفك بكمشات القضامة بالسكر ألا تنسى موضوع أسعد.

غطى وجه راضي حسٌ خفيف بالدهشة لم يلبث أن تحول

إلى حزن: أعوذ بالله. لماذا يصرون على التذكر. ما الذي يغريهم بالتذكر.. أووف. كم سيكون العالم أسعد لو لم يكن فيه ذكريات، ولكنهم يتذكرون ويصرون على تذكير الآخرين. أوف وسمع مروة تقول ساخرة: ما حكاية القضامة بالسكر.

أراد تتفيه الموضوع، فقال يتظاهر بعدم الاهتمام: هاه.. أمور ولدنة.

انتصب. مضى إلى غرفة النوم. نظر إلى الساعة، الثامنة والنصف. غيَّر ثيابه. لاحظها تقف في الباب تتأمله فقال يداعبها: هاه ما رأيك.. شبوبية حلوة؟

ضحكت في سخرية يعرفها وإن كان لا يستطيع محاسبتها عليها فهي تغلفها دائماً بالمزاح، ولكنه يعرف جيداً أنها تسخر منه.. ومن أم أسعد، ومن القضامة على سكر.. أووف.

لبس الكاسكيت الرياضية، ومضى إلى النادي يتريض ويتمشى.

لم لم يتعلم رياضة أخرى كأولئك الذين يلعبون التنس ويلعبون الأسكواش والغولف؟ أما هو.. إيه.. لقد استهلكته الحياة، استهلكته حتى لم تترك له فرصة للراحة، والخلوة بالنفس، التمتع بالحياة، وتعلم الرياضات التي تسلي المرء حين.. لا.. لا.. أنت.. في فترة استراحة. لا تتعجل الأحكام.

أوقف السيارة، ومضى ليمارس الرياضية الوحيدة التي لم يتعلمها، ونخر ساخراً: هه لقد كانت حياته.

كانوا يركضون، يهرولون، يمشون بسرعة. يعرفهم، أو رآهم، أو اصطدم بهم فيما مضى. ثم اصطلح معهم فهو لا يطيق الصدام الطويل. جنرالات، وزراء سابقون، مسؤولون حزبيون، كبراء حاليون. إيه.. أدركتهم السن فجأة.. كافحوا جميعاً، ناضلوا.. هه.. لنقلها صراحة.. دسُّوا لبعضهم البعض. وضعوا أرجلهم في طريق بعضهم البعض، رموا قشر الموز في طريق الآخرين. عضُّوا، خمشوا، فعلوا الكثير ليظلوا الطافين، و.. ظلوا.. ولكن ها هو قانون السن القاسي يدين الجميع، وها هم ولا خيار أمامهم إلا أن يذيبوا ويصهروا ما راكموه في أجسامهم من سكر وكوليسترول، وشحوم ثلاثية، وحمض بول، وسمنة لعقود. هه.. ها هم يركضون بعد ركود طويل. وها هم يهرولون بعد ركوب طويل للمرسيدسات. أعوذ بالله.. كم للمرسيدس من سحر.

أحنى رأسه محيياً، لوَّح محيياً. غمز محيياً. صرخ أهلين مرات ومرات، ولكنه لم يجد في نفسه الرغبة لمرافقتهم ومشاركتهم الحديث.. أف.. لقد سئم أحاديثهم. سئمها، وسئم العجز فيها، والترقب، وانتظار الرضا.. هه.. ضحك.. النادي لا يعرف إلا - قلها يا راضي. قلها.. لا تخجل - المركونين جانباً، المزاحين؟.. يعني.. الموضوعين.. على الرف.. إيه..

حكَّ جلودهم جميعاً، وستجدهم لا يأملون إلا بشيء واحد. القبول، والعودة إلى جنة الرضا.

هيييه. تسلل إلى أحلامهم، وستجد حلماً واحداً. أن يرنَّ

الهاتف، أو يقرع الباب في وقت متأخر. ويكون.. الرضا.. أف.. الرضا.

اندفع في عنف بين شجيرات الفلفل الكاذب المحدثة، وأشجار الأكاسيا العتيقة. كان الممر يتميز بتظلله الكامل، أبعد، وأبعد عنهم حتى لم يعد يسمع قهقهاتهم، ولا صيحات تحببهم، ولا تظاهرهم بالبهجة والمرح. أبعد، فأصعب من الوضع الذي يعيشون فيه جميعاً هو التمثيلية السخيفة التي يصرُّون جميعاً على تمثيلها. لم يحدث شيء. الهاتف سيرنُّ، وسيعودون جميعاً إلى مراكزهم التي عاشوا فيها العمر.. سيعيدون الأكواخ أمام البنايات بحراسها المشمأنطين يرمقون الجيران في تعال، ليقولوا للجميع: نحن حراس سيادته الرجل القوي القادر على كل شيء، فكّ المشنوق عن المشنقة، وشنق البريء بغير مشنقة.

إيه.. أبعد في الممر المشجر حتى لم يعد يسمع صوت الشحارير الوقحة. أبعد حتى عن عصافير الدوري.. إيه.. لقد طالت هذه المرة يا راضي. طالت، ولا يبدو ضوء في الأفق.. لقد سحبوا السيارات التي كانت تقف أمام باب البناية، ولم يتركوا إلا سيارة واحدة.. هه.. صحيح.. مصائب قوم عند قوم فوائد. سمعها وطنَّش، من جارٍ يشغِّل سيارته العتيقة! إه الحمد لله. صرنا نستطيع صفَّ سياراتنا أمام البناية!!

رفعوا الكوخ - المحرس، والحراس.. أعوذ بالله. ما أصعب أن تعود المواطن العادي.. لم يبق أمامه إلا أن يصل إلى يوم يضطر فيه إلى المضي إلى السوق لشراء خضره، وخبزه!.. الحمد لله.. ما

زلنا نستطيع استئجار خادم تقوم عنا بهذه الأعمال.

أحس ضيقاً ﬞ صدره، تلفت من حوله.. هل ابتعد كثيراً.. لقد تعب.. بحث عن مقعد. شجرة، مكان يجلس عليه، ولكن المكان كان خالياً من الكراسي. رأى بلوكة قريبة، أسندها إلى شجرة الكينا العملاقة، وجلس. مدَّد ساقيه طويلاً، تنفس بعمق يحاول تهدئة قلبه المهتاج حين رنَّ هاتفه النقال تلك الرنة المزعجة التي تقول إن رسالة على الطريق. أراد أن يتجاهلها فقد كان متعباً، ولكن الرنين انقطع.. استرخى.. إيه.. خلدون.. لو كان خلدون.. أووف.. وامتلأت عيناه بالدموع.. .. خلدون، وناديا.. .. أعوذ بالله.. .. لماذا كان حظي على هذا السوء.. أنا الذي كان الجميع يحسدونني ويعتقدون أني الأسعد بين الناس.

انتفض فجأة: راضي. إن استمررت ﬞ استدعاء الأحزان فلن تتوقف.. مروة قالت لك هذا.. توقف..

أراد تغيير الحالة والمزاج، انتزع الهاتف الجوال. قرأ الرسالة: كانت شيئاً مضحكاً بلا مرسل. قرأ

وهي الأصلية. كل حبة وقية.

قلب الصفحة ليجد أن الرسالة انقطعت.

ما هذا. من الذي يمازحه. ما معنى هذا. رنَّ الهاتف. فارتعب. لم يكن يتوقع رنينه، ثم من يعرف رقمه هذا. إنه لم يعطه لأحد عدا مروة. أعطاه لها تحسباً للطوارئ. كان الرقم الطالب هاتفاً أرضياً. لم يكن جوالاً.. من يكون.. أراد أن يقطع المكالمة،

ولكن الفضول غلبه. ففتح الخط. وجاءه صوت فتى يصرخ.. وهي الأصلية. كل حبة وقية بتاكلها العجوز بترجع صبية.

شحب راضي، ما معنى هذا، ثم همس: آلو، ولكن النداء تكرر.. وهي الأصلية فقاطعه راضي ثانية: من. من المتكلم رجاء. ولكن الصوت على الجانب الآخر لم يردّ، بل تابع. بتاكلها العجوز بترجع صبية.

أصغى، والنداء يتكرر في آلية. إنه لم يتوقف، ولم يطلب استجابة، ولم يطلب حواراً، بل أرسل هذا النداء فقط.

من.. من.. صرخ.. انقطعت المكالمة..، وسيتصل بضابط الأمن في مديرية الهاتف يسأله عن صاحب الرقم، وسيخبره ضابط الأمن أن الرقم من بطاقة هاتفية مسبقة الدفع، ربما كانت من خارج المدينة، ولكن راضي سيحس بالبرود، وعدم الاهتمام لدى ضابط الأمن وهو يجيبه، فيشعر بالكرب والندم أن اتصل به وسأله، وأعطاه الفرصة ليبدي عدم الاحترام الذي ما كان يجرؤ على إبدائه قبل.. تنهد.. .. قبل الإحالة على التقاعد المبكر.. جداً.

2

لم تكن السيارة أمام المدخل، فأدرك أن مروة قد مضت في مشوار ما، فتنفس بارتياح، فهو منذ أن طلب إليه البقاء في البيت تحولت حياته معها إلى جدال طويل، و.. شجار خفي، فقد اقتحم عليها بعد طول تخل عالمها المطلق، اقتحم عليها ترتيب الأثاث، واقتحم عليها نباتات الزينة، واقتحم عليها ثرثرات الصباح مع أمها وصديقاتها، ولما لم يمكن له إخضاع عالمها لترتيبه الخاص فقد اختار أن يختصر بيته على غرفة مكتبه - مكتبته وشرفته الخاصة، وترك لها باقي البيت تديره كما تشاء، وتثرثر، وتستقبل فيه من تشاء.

اخترق المدخل ليفاجأ بطرد على الطاولة الكبرى في الصالة. تفحصه ليجد اسمه عليه. لم يستطع سؤال مروة عمَّن أرسل الطرد. مضى به إلى المكتب. عرف أنه كتاب ما مهدى إليه. عرفه من وزنه، فألقاه على طاولة صغيرة، ومضى إلى الحمام.. قرر أن يغطس في البانيو. قال: لا شيء يعجلني.

كان الماء فاتراً، وكان هذا أجمل ما في الاختراعات الجديدة؛ موقت الحمام يشعل الحمام في الوقت المناسب، ويدفئه الدفء المناسب، وما عليك إلا أن تستلقي في البانيو.

غمره الماء الدافئ بمتعة طال عهده بها منذ.. منذ أعوذ بالله.

فعلاً منذ زمن طويل، متعة الماء الدافئ دون قلق، دون حس بأن الزمن يسابقك. دون وقفة متعجلة تحت الدوش تقوم بواجب التنظيف الثقيل قبل العدو للحاق بطاحونة السباق مع الآخرين. انتقاء الطعنات، إعداد الطعنات المضادة، قراءة التقارير يسرِّبها إليك ضابط الأمن الصديق. منها تعرف بما يُعدُّ لك، وكيف يقيّمونك، وما الدسائس التي تسرَّب عنك.

أف.. .. أغمض عينيه تاركاً للماء الدافئ تحليل التوترات، إذابة العرق. ولكن.. .. من أرسل هذا الطرد.. ليتك فتحته. ولم أفتحه؟ أعرفه. ما يمكن أن يكون؟ مذكرات ضابط ما، أو مسؤول سابق ما.. يقدم شهادته أمام الزمن: لم أسرق، فالآخرون من سرقوا، لم أكذب، فالآخرون من كذبوا، لم أقتل، فالآخرون من قتلوا.. أعوذ بالله.. كلهم. كلهم ملائكة أطهار لم يسرقوا، ولم يغشُّوا، ولم يأمروا بقتل.

أطلق نفخة سخرية وهو يتقلب في مضجعه المائي. وفجأة صدمه الطفل في شاشة الكومبيوتر وهو يهتف: هاي. وعاد السؤال إلى الإلحاح: من.. من أرسل بصورة هذا الفتى ذي الوجه المستدير والعينين المظللتين بحاجبين قصيرين.

تقلب ثانية في مضجعه: هاي.. من.. من هذا الفتى الذي يعرفه ولا يعرفه.. ثم ما حكاية.. وهي الأصلية، كل حبة وقية..

أووف.. أحس بالماء يحاصره، وبأن المكان قد ضاق به، فانتصب فجأة وتنشَّف بسرعة، ومضى في روب الحمام إلى

المكتب، استرخى على الكرسي المرويس ليجد شاشة الكومبيوتر الرمادية تحدق به مستفزة.. هاي.. من هذا الفتى، ولِم يلحُّ عليه بتحيته الباردة هذه؟

سمع تكة الباب الخارجي يفتح، وأدرك أنها الخادم تتسلل إلى البيت لا تكاد تسمع. فهتف. وما لبث أن رآها بالباب تقف جامعة كفيها بذراعيها المستقيمتين في احترام، طلب فنجان قهوة وما أسرع ما انحنت مختفية. انتصب. رأى الطرد البني اللون، فأمسكه، مزَّق الغلاف، ليكتشف أن حدسه كان مصيباً.

كان كتاب مذكرات.. هه.. بقلم صديقه ومنافسه. منذ أيام الحارة والمراهقة، هه.. سعيد أبو السعود.. قلّب الكتاب.. رأى الملزمة الأخيرة. إنها صوره منذ الحداثة وحتى قبل إحالته إلى التقاعد.. أووف.. التقاعد.. أكان ظلماً قانون التقاعد الإلزامي هذا؟.. أعوذ بالله كم تخلص هذا القانون من أقوياء لم تكن هنالك من قوة تستطيع إزاحتهم عن مراكزهم إلا الموت، ولكن.. لا تنس أنك كنت واحداً منهم.. تنهد قليلاً: لو.. لو.. لو تركوا بعض الاستثناءات للكفاءات التي لا يمكن الاستغناء عنها.

كانت أصابعه تقلّب في ملحق الصور عائدة إلى الصفحة الأولى سعيد أبو السعود بعد حصوله على شهادة الكفاءة.. .. هه.. .. إنه يشبه الصورة التي كانت على شاشة الكومبيوتر وفوقها فقاعة هاي.. .. إنها السن نفسها، والملامح المتقاربة، والشعر غير المرجَّل.

وضعت الخادم فنجان القهوة أمامه، وانسحبت دون ضجة. أراد أن يضحك.. .. ولم يكلف الجنرال سعيد نفسه فيرسل صورته صبياً على الكومبيوتر يهتف: هاي؟ ما الذي يغريه بهذا؟

أمعن التحديق في الصورة.. .. لا.. .. هناك بعض اختلاف بل كثير من الاختلاف.. لا.. القليل.. أوف.. .. ما التشابه وما الاختلاف أصلاً.. .. وذكر قول صديقه المورة لي: معظم الأشخاص يتشابهون في صباهم، فالنضرة، والموضة تحكمهم، فلا تستطيع التمييز بينهم إلا إن قررت البحث عن المختلف.. .. ولكن الموضة.. .. طريقة التسريح، طريقة اللباس، طريقة المشي.. .. إنها كلها موضة، أما الملامح الحقيقية الفارقة بين فرد وفرد، فلا تتجلى إلا بعد الكهولة وذهاب النضرة والشهوة والغرور، وبهدوء ذكر الكهول الذين عايشهم في صباه.. كانوا يمضون إلى الجامع، أو السوق يضعون أيديهم وراء ظهورهم والكف تقبض على الرسغ الأخرى، وظهورهم منحنية قليلاً إلى الأمام. كانوا يرون الوقار على هذه الصورة، والاحترام الحقيقي حين يمشون على هذه الطريقة. وكانوا حين يرون الضباط الجدد يسيرون منتصبي الصدور شامخي الرؤوس ينظرون إليهم في احتقار.. ..: فتية.. .. مجانين.. .. لم تعلمهم الأيام الحكمة والوقار بعد.

وحين يقرأ عن أصل هذه العادة فيما بعد.. يقرأ عن الآلاف من المجندين الشاميين في الجيش العثماني والذين أسرهم الإنكليز في الترعة، وفي جنق قلعة، وفي غاليبولي، وكانوا يخرجون إلى فسحة التنفس من معتقلاتهم موثوقي الأيدي إلى

الخلف يتريضون موثوقين منحني الرأس قليلاً لسنوات حتى إذا ما أطلق سراحهم عادوا إلى بيوتهم يحملون معهم عادة الوقار الحزين هذه.. ..

أطلق نفخة سخرية: أيمكن.. .. أيمكن لموضة كهذه أن تفرض نفسها على جيل بأكمله.. .. ولم يستغرب فلقد ذكر أنه قرأ أن أحد الأباطرة اليابانيين كان أصلع لم يترك له الصلع إلا إطاراً من الشعر يحدق برأسه، فقلده كبار النبلاء من الشوغن والساموراي، بحلاقة شعورهم على هذه الطريقة، وهكذا صارت موضة الساموراي المحترمين لزمن طويل حتى بعد وفاة الإمبراطور وساموراييه، هي قَصَّة الهالة من الشعر تحيط بالرأس، ولا يعرفون لها سبباً إلا أنها التعبير عن الوقار والاحترام اللائق بطبقة نبيلة تستحق الاحترام.

قلّب في الصور الملازم سعيد، العقيد سعيد.

تنهد: لماذا يكتب هؤلاء، الآثمون مذكراتهم. ما الذي يغريهم بهذه الكتابة؟. أهو الربح؟ هه.. ليس من يشتري مثل هذه الكتب إلا الملحقون العسكريون بالسفارات، وبعض المهتمين بتاريخ المرحلة يريدون مقابلة المذكرات بعضها ببعض لمحاولة الحصول على بعض الحقائق ضمن هذا الكم من تسويغ الذات وتضخيم الأدوار، وبخس الآخرين.

لماذا يكتب هؤلاء الناس مذكراتهم، وكتابة المذكرات ليس عادة إسلامية، فالنصيحة الإسلامية واضحة: إذا ابتليتم

بالمعاصي فاستتروا.. .. تنهد.. وكلنا ابتلي بهذه المعصية أو تلك، فما المصلحة في نشرها على الملأ. أتراهم يريدون تقديم شهادتهم على زمنهم مبيِّضين صفحاتهم قبل أن يقدمها الآخرون.. .. ولكن.. لا.. هذه الكتابات الانتقائية ليست النوع الأدبي المعروف في العالم، فهي لم تقترب أبداً من كتابات روسو، ولا كتابات تشرشل، ولا حتى سان أوغستين، ولكن أتراه الاختلاف الحضاري؟.. الكاثوليكية أدركت سحر الاعتراف الملحوق بالغفران، ففرضتهما على المؤمنين في كل أسبوع.. .. تمضي إلى الكاهن فتعترف بآثامك الصغيرة، أو الكبيرة أمام كاهن لا يمثّل نفسه، بل يمثّل الكنيسة التي تمثّل المطلق، فيفرض عليك بعض الكفارات، ثم يغفر لك لتبدأ حياتك من بعدها نظيفاً كأن لم تأثم.

تنهد.. ولكن الإسلام قال: إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا.. وتابع: وحتى البروتستانتية حين انشقت عن الكاثوليكية ورأت هذا الحنين إلى الاعتراف والغفران عند أعضائها على الأرض، وفي هذه الحياة الفانية قدّمت لهم المحلل النفسي، هذا الاختراع الأميركي البروتستانتي الذي يقدّم للناس الحل الكهنوتي السابق بشكل أرضي علماني. اعترف. تحلل من ذنبك. عرِّ نفسك أمام الكاهن الجديد المحلل النفسي، وهو سيقدم لك الكفارة التي يرى، ثم يحلُّك من ذنبك، فتعود البريء كمن ولدته أمه بالأمس فقط.

تنهد.. ولكن الإسلام يقول: إذا ابتليتم بالمعاصي، فاستتروا.

كان يعرف أن التاريخ العربي لم يعرف كتابة المذكرات فقد كانوا حريصين على الاستتار، وما عدا ابن خلدون، وربما أسامة بن منقذ، والغزالي. فلم يعرف التاريخ الإسلامي، أو العربي من يعري نفسه أمام المستقبل، القارئ، الغافر، المعرِّف.. إلخ.

فلماذا يكتب هؤلاء الجنرالات والوزراء السابقون مذكراتهم. أتراهم يريدون القول إنا لم نكن الأصفار والظلال، بل كنا الفاعلين المؤثرين، ولكن.. .. أعوذ بالله.. إنها ليست الاعترافات فهي لا تقدم إلا الوجه البريء النظيف الطاهر لكاتبها، فلم أقرأ لواحد منهم أنه كتب عن إدمانه، ولا عن شذوذه، ولا عن اغتصابه، ولا عن الخوازيق التي أحسن إعدادها للآخرين.. لا.. إنه لا يعترف بالذنب، ويطلب الغفران، بل يقدم شهادته المغفورة أصلاً للمستقبل..

نظر إلى المكتبة. رف كامل من كتب المذكرات، كتبوها، أصدقاؤه، زملاؤه، وهو من يعرف البير وغطاه كما يقولون. رف كامل لجنرالات، ووزراء، وسفراء سابقون، لماذا يصر الوجهاء والمتنفذون على كتابة احتجاجهم.. أتراها نسخة أخرى من تماثيل ما قبل الأديان السماوية حين كانوا يكلفون النحاتين بوضع تماثيل لهم تبرزهم في أحلى صفاتهم. فكلهم أدونيس، وكلهم تموز، باقون على شبابهم، وجمالهم رغم الزمن، ولكن قروناً انقضت، والتماثيل انحطمت، فكيف ذكر هؤلاء الورثة ذلك التاريخ، وأرادوا نسخه على الورق.

أزَّت شاشة الكومبيوتر فالتفت. كانت إشارة تقول إن

لديك رسالة، فضغط الزر يستلم الرسالة ليفاجئه صبي الهاي بوجهه المليء بالعفرتة والتقطيب المتفكر، وتساءل لهنيهة: أفلم تقم مروة بمحوه. إنه ليس الرسالة القديمة. بل رسالة جديدة. من مرسلها؟ كانت الفقاعة فوق رأسه واضحة، هاي، وكان الوجه يحدِّق فيه في إصرار وكأنه يستنطقه للحديث. ما الذي يريده هذا الصبي؟ من هو هذا الصبي الذي يعرفه؟ أنا أعرفه جيداً، ولكن من؟

اقترب من الشاشة. أمر الطابعة بطبع الصورة. أخذ النسخة يتأملها عن قرب وفاجأه اكتشاف أن الصورة ليست أصلية، بل منتزعة بمهارة من صورة أكبر، ومكبرة عدة مرات بحيث بهتت الملامح قليلاً، ولكن العينين، الحاجبين، الوجه السمين المستدير قليلاً، الملامح مألوفة يعرفها. من. من هذا الصبي. ورنَّ جهاز الهاتف النقال، فرفعه إلى أذنه في آلية ليسمع نداء الصباح: وهي الأصلية، كل حبة وقية الياسكا..

وشهق.. لقد عرف معنى النداء لقد عرفه. إنه نداء باعة الألاسكا، البوظة، الآيس كريم، أولئك الذين كانوا يجوبون الحارات يحملون ترامس البوظة وهم يهتفون، الياسكا أو الاسكا، أو اسكيموبريمو إشارة إلى إصبع البوظة الأسطواني.. أترى مرسل الرسالة يعايره؟

رنَّ جهاز النقال ثانية، وتوجس أن يسمع النداء ثانية ولم يخيِّب الجهاز ظنه إذ أطال هذه المرة نداءه: وهي الأصلية كل حبة وقية بتاكلها العجوز بترجع صبية. الياسكا.. أنت الأصلية،

الياسكا، أمية.. أمية.. أنت الأصلية.. أمية..

انقطع التسجيل عن الهاتف النقال. سمعت أذنه إشارة انتهاء الإرسال. استلقى بظهره إلى ظهر الأريكة واسترخى أمية.. أمية.. أنت الأصلية.. أمية.

وأخذت تتجلى أمامه في بهائها الفتي.. أراد أن يسخر من نفسه: مالك ولألاعيب الصبا.. ولكن الهاتف كان يقول.. .. .. أف.. أف.. راضي كبِّر عقلك.

رنَّ الهاتف الأرضي، فتوتر.. أتراها المكالمة المنتظرة، أتراهم.. رضوا.. أخيراً. ألح الهاتف، فمضى إليه مثقلاً.. كان يخاف صدمة الإحباط، ولكن نفحة الأمل كانت تشده.

نظر إلى شاشة الهاتف، وكان ما كان يخافه، الإحباط.. ليس الهاتف ممن يشتهي رضاهم.. إنه.. من الجنرال سعيد شريكه في القدر الجديد.. .. الرف.. وانتظار هاتف لا يصل.

كان الصوت صافي المرح على الهاتف، مغسولاً من حس الإحباط والخيبة، كان الصوت.. كان - فكر راضي يحلل الصوت المتشبب - صوت من لم يصب بالضربة القاضية حين صدر قرار إحالته على التقاعد، واضطرب عالمه.. وضاعت السيارات، والمرافقة، وكشك الحراسة، والتحيات تضرب الأرض بأعقابها ترجُّ الأرض و.. .. تنتزع الماء من الأعماق كما وصف مرة شدتها. ضياع المكتب الكبير والهواتف المتعددة بالأرقام السرية والمعروفة، وضياع اجتماعات اتخاذ القرارات في إدارة كل شيء.

كان راضي قد راهن نفسه بأن سعيد لن يعيش طويلاً بعد هذا الانقصاف المفاجئ.. لا.. لن يستطيع الصمود، قص الجناحين وكسر الساقين، والتردي من سماوات الملائكة الذين لا يحاسبون إلى مرتبة هاروت وماروت الأرضيين و.. .. لكنه صمد. لم ينجلط، ولم ينفلج ولم ينهر..

كان الصوت صافي المرح: هيه ما لصوتك خاملاً، ألعلك لم تقم من سريرك بعد.. قم يا رجل. قم. تريض، تنشط. أنت تعيش الآن العمر الثاني.. الشباب الثاني.. قم يا رجل. دعنا نتمشى، ونطارد بعض الفتيات.. قه. قه. قه.. مالك صدمت. أفلم تسمع بالكهول يطاردون الفتيات.. كهول.. أي كهول.. أتعرف.. أحسُّني منذ أيام وكأني في العشرينات. أحس النشاط يدبّ فيّ. أحسُّ مفاصل عظامي تلين، وبشراييني تسترخي، وبأن الألوان تعود وردية.. اسمع.. سألقاك في الكافي شوب، وستحدثني عن رأيك في الكتاب.. هه.. ما رأيك.

وهمهم موافقاً على اللقاء، فلم يكن لديه ما يشغله إلا صبي الهاي.. وأنت الأصلية.

3

ذكّرته السعادة التي رآها على وجهه بسعادات قديمة، سعادات.. أوف.. إنه يذكرها الآن.. كان سعيد يهدر ويهدر، وكانت وجوههم تتبدى. وجوه أصدقائه الذين كانوا يخرجون من قاعات الامتحان، وقد وضعوا الإجابات كاملة على أسئلة الامتحان. كانوا يرونه المخابئ السرية التي يضعون فيها ما كانوا يسمونه في حينها بالراشيتة - الوصفة الطبية - والتي انتصروا بها على ذكاء المراقبين والممتحنين، يدسونها في ثنيات القمصان المقلوبة، وفي الجيوب الصغيرة حيث تدسُّ القطع النقدية المعدنية، وفي ثنيات الجوارب.

كان النجاح في الامتحان الجائزة، وكانوا حريصين على الحصول على هذه الجائزة، ولم تكن الطريق إلى الوصول إلى هذه الجائزة مهمة، بل كان الحصول على الجائزة.

إيه.. تنهد.. كان الجنرال المتقاعد سعيد يضحك وهو يحدثه عن آلام الإمساك التي كان يعاني منها منذ إحالته على التقاعد، وكيف اختفت بعد قراءته النسخة الأولى من مذكراته: ما رأيك. بذمتك. ما رأيك. أليست رائعة.

واضطر راضي إلى التلعثم بكآبة بأنه لم يتح له إلا تقليب الصور: جميلة. الصور جميلة.

واقترب الجنرال سعيد منه: أتعرف. لم أضطر إلى تعاطي تلك - وأشاح بكفه في استهانة وتغامض - الحبوب الزرقاء بالأمس - وتنهد - لقد أرجعتني كتابة المذكرات إلى الشباب.

اسمع - هتف ينصحه - هذه الكآبة على وجهك لم لا تتخلص منها؟ لم لا.. تعشق..؟ إيه.. صحيح. تعرّف على شابة.. تعيد إليك الحيوية والتعلق بالحياة..

وضحك راضي في استهانة: أقول الحق. لا تضحك.. على الإنسان ألا يستسلم لضربات الزمن.. عليه أن يعرف الروغان منها، عليه أن يعرف كيف يتماسك..

أراد راضي التعليق، ولكن الآخر كان يهدر والسؤال يتعاظم في ذهن راضي: ما الذي يبهجه. ما الذي أزال عنه الكآبة التي يعرف أنها حلّت على الجميع منذ سرق قانون التقاعد الإلزامي منهم الفرح فجأة.. هذا القانون، هذا القانون اللعين.. من فكّر فيه؟ من اختار إصداره؟ الآن فقط حين لم أُمض في الخدمة إلا سنتين فقط بعد الستين؟ من.. هذا المؤذي؟ ومن سبقونا مددوا خدمتهم، ومدّدوها حتى نهاية العمر. كيف قرروا التخلي عن خبرتي، وخبرة الجنرال سعيد وكفاءاتنا؟ أعوذ بالله. إنه عمر قضيناه نختزن الخبرات، وفجأة انتهينا.. يكفي.. يلله. إلى البيت. لم نعد في حاجة إليكم.

كان يرى الجنرال سعيد يهدر موزعاً حديثه بين الثرثرة والقهقهات. ولمسات اليد طالبة الموافقة والتحبب. ما الذي يبهجه. ما الذي أخرجه من كآبة الشهور الماضية. هل رنَّ الهاتف لديه يطلب إليه العودة للعمل.. ولم يرنَّ لدي.. أم..

وارتفع صوت الجنرال سعيد يخترق شروده: اسمع.. اسمع.. عليك أن تفعل كفعلي: إنه الحل الوحيد، الحل الأمثل ووجد لسانه ينزلق: كيف.

-اكتب سيرة حياتك. ضحِّ ببضع عشرات الآلاف من الليرات. افترض أنك تقوم برحلة استجمام تدفع هذه المرة ثمنها من جيبك. رحلة ليس إلى تركيا، ولا إلى تايلند، بل رحلة إلى الداخل.. جرب..

ونخر في سخرية: ولكني لم أكتب عشر صفحات دفعة واحدة منذ أنهيت دراساتي العليا. أفتريدني الآن أن أكتب.

-لا.. صرخ الجنرال سعيد.. لا.. لن تكتب. ولن تتعب يديك الناعمتين.. قال يضحك وهو يضغط على كفه في نعومة أنثوية، وضحك راضي، ربما أضحكته الضغطة غير المألوفة من الجنرال. نظر إلى الوجه يغطي نصفه شارب، ثم انطلق يقهقه للمفارقة، ويقهقه، والآخر يحاول تهدئته ولكن.. ما الذي يضحكك. الموضوع جدّي. أقسم بالله إني لا أمزح. اسمع. لا تنشر الكتاب. اكتبه فقط للعلاج.. ففي كتابته تعالج نفسك. صدقني.

ولكن راضي استمر في القهقهة متخيلاً الجنرال سعيد وقد

سقط شاربه وهو يضغط على كفه.

قهقه، وقهقه. وأخيراً وتحت ربتات كف الجنرال سعيد ورجاءاته الكثيرة، وشربه كأس الماء حمله إليه سعيد يهدئه بشربه.. هدأ أخيراً، وتابع سعيد: أرجوك. أرجوك أن تنظر إلى الأمر بجدية.. اعتبره طريقة علاج.. ألا يعالجون بالوخز بالإبر، بالتفريق بالوحل، بالحجامة ينتزعون فيها منك الدم الفاسد.. اكتب يا عزيزي اكتب، أو.. دعهم يكتبون عنك ما تريد، فتستخرج دمك الفاسد، الذكريات المزعجة، والآمال المحبطة، والأفراح المقموعة، و.. تعيد السلام إلى قلبك.

وفجأة انتصب الجنرال سعيد، فانتصب راضي محرجاً: إلى أين.

-لا. أنت ستبقى هنا. سأجري مكالمة وأعود إليك.

وهز راضي رأسه موافقاً، تاركاً الجنرال المتقاعد يبتعد في خطوات شابة وظهر منتصب لم يره عليه منذ سنين، وبهدوء أخذت الفكرة تتجلى. الجنرال سعيد.. وتنهد.. إنها الحجامة.. الحجامة الروحية.. لقد انتزع من شرايين روحه دماءها الفاسدة.. أعوذ بالله. أتفعل الكتابة هذا.. أهي الاعتراف الكاثوليكي ولكن مقلوباً. إنه يحصل على الغفران بمجرد الاعتراف دون معرِّف. الاعتراف - الكتابة هو الغفران.. ولكن.. منذ متى احتاج الإنسان إلى الغفران. هل عرف القدماء الاعتراف والغفران، أم أن هذا اختراع كاثوليكي صرف.. وأخذت الفكرة تتجلى ثانية.

حصل الغفران بعد اختراع الذنب.. ولكن من اخترع الذنب والخطيئة. أهي اليهودية، فكان لا بد للمسيحية والكاثوليكية أن تظهرا لتطهر الإنسان من الخطيئة بالاعتراف، فالغفران.

وهجمت الذكريات. كانت أمه تحدثه أن السارق اليهودي كان يجد على جبينه دمغة سارق لا تزول، والزاني بعد الزنا دمغة زاني، والقاتل دمغة قاتل.. أعوذ بالله ما اصعب أن تعيش وعلى جبينك دمغة ذنبك، ولكن. جاءت المسيحية الكاثوليكية، ثم البروتستانتية الأمريكية عبر المحلل النفسي، فغفرت الذنب.

ولكن الجنرال سعيد استعاد شبابه بوضع كتاب خلّصه من آثام عمره، أفهذا ما أعاد إليه المرح، وحرّره من حسٍّ الذنب والإثم. أيمكن لهذا أن يكون.

4

كان بيتاً شامياً عادياً في حارة عادية لا شيء فيه يلفت الانتباه إلا لافتة صغيرة كتب عليها شركة الإنشاء والترميم. وكان في سبيله إلى تجاوز البيت لو لم يمسك الجنرال سعيد بيده يشده إلى الباب الخشبي العتيق في كل شيء، بخشبه، بمساميره الحديدية ذات الرؤوس بحجم الإبهام تزينه، بإطار من الحجر الأبلق.

فتش راضي عن المطرقة النحاسية، عن كبسة جرس، ولكنه لم ير أياً منهما، بل رأى الجنرال يضغط على واحد من رؤوس المسامير الضخمة، فيرتفع رأس المسمار وكأنه جزء من لولب، وسمع صوتاً يقول:

-أهلاً سيدي الجنرال. ادفع الباب.

دفع الجنرال الباب، ودخلا.. مع دهشة خفيفة تتمطى في راضي.. انترفون متنكر، وكاميرا فيديو متنكرة في باب أثري.. ما معنى هذا؟ معابثة. أم إضفاء جو؟ أم .. ولكنه لحق به في دهليز نصف معتم كان نور الشمس باهراً في منتهاه فلحق به.

كان يعرف أنها الباحة، وكان قد سئم من مفردات البيوت الشامية منذ هجر معظمها؛ الأشجار الداخلية المهملة، والبحرة المهجورة وقد تحولت إلى ما يشبه المزبلة، أو غطيت لتتحول إلى

المهجورة وقد تحولت إلى ما يشبه المزبلة، أو غطيت لتتحول إلى طاولة ضخمة، أو.. ولكنه فوجئ بأن المفردات كلها كانت نضرة هنا وكأن البيت لم يهجر للحظة، فالأشجار خضر، وثمار النارنج معلقة، وزهرات الياسمين توزع ريحها الأبيض، وبحرة دافقة بماء مزبد، وحين اقترب منها رأى أسماكاً نهرية أصيلة، ليست أسماك زينة حمراً، أو سوداً، أو ملونة، بل أسماك نهر بنية.. هل أوقفوا الزمن؟

لم يتركه الجنرال لحيرته، بل أشار إلى الغرف المحيطة بالباحة. كان هناك تكتكة خفيفة لأصابع تضرب على آلة كاتبة، أو كومبيوتر، وكان هناك صوت آلي خفيف لشيء ينزلق ذهاباً وإياباً، وفكر: جهاز تصوير ضوئي.

ثم تساءل: أهو في دائرة رسمية موظفوها يعملون في جد.

اقترب من أحد الأبواب ليقرأ عنواناً صغيراً: الأحماء والأعمام

فالتفت إلى الجنرال، ولكنه كان قد ابتعد إلى الركن الآخر من الباحة إلى حيث كرسي بمسندين ارتمى عليه في استرخاء مستمتع وحين اتجه إليه أشار بذراعه إلى باب الغرفة الأولى إلى يمين الدهليز - المدخل وقال: ابدأ من هناك.

مضى راضي إلى حيث الباب المشار إليه ليقرأ: « الآباء»!! ما معنى هذا. التفت إلى الجنرال، ولكنه أشار بيده يحثه على متابعة الرحلة. فمضى إلى الباب التالي، ليقرأ «الأجداد» تابع السير ليقرأ «الأجداد الأقدمون».

بدأ الأمر يشده: ما معنى هذا، ولكن الجنرال كان قد انصرف عنه إلى تصفح ملازم من كتاب مرصوفة إلى جانبه. أراد أن يتجه إليه، ولكنه عرف أن انصرافه مقصود، فتابع التقدم، ليجد لافتة على الباب التالي مكتوباً عليها. الحب الأول.. ثم على باب تال.. المرأة الأولى.. ولوهلة تساءل: أهناك فارق.. ولم يستطع الإجابة، فقد غلبه الفضول، فتابع: الخيانة الأولى.. الخيانة الثانية.. الخيانات.. الإحباط الأول.. الإحباطات.. المجد الأول.. الأمجاد.. أعوذ بالله.. ما معنى هذا؟ الأمر جدي.

كان قد رضي بمرافقته إلى الورشة كما سماها من باب الفضول لكنه لم يتخيل أبداً أن تكون الورشة على هذا التعقيد، وهذا التخصص و.. تابع: «المناورات».، هه.. تابع.. ليقرأ «التطبيقات».. وتابع.. أعوذ بالله. كم باباً، وكم عنواناً في هذه الباحة.. ليصل إلى ما يشبه دهليزاً متفرعاً عن الباحة.. فتابعه، وقرأ: مراجعة النفس.. خطا خطوة أخرى، وقرأ. الأولاد يتساءلون.. كان قد بدأ يدخل اللعبة، وتمتم لنفسه: حين يتساءل الأولاد تبدأ مراجعة النفس الكبرى. تابع. عنوان آخر: النساء في حياتي.. هه.. مازحاً، ولرجل السياسة وقت يخلو فيه إلى النساء.. تابع.. الأصدقاء - الأعداء.

تنهد.. كأنه يوم الحشر.. يريدون كل شيء.. ثم تساءل: وهل يمكن تمييز الأصدقاء من الأعداء. ثم قرأ العلاقة مع الحكام الموالاة، ثم.. المعارضة، ثم، الموارضة، وضحك: ما معنى هذا، ولكنه بسرعة فهم أنها المزيج من الموالاة والمعارضة.

تقدم قليلاً ليجد باباً يسد نهاية الدهليز وقد كتب عليه: السجل الأساسي، وبخط كوفي صغير قرأ: الكتاب الأول.

أراد أن يعود من حيث جاء، ولكن الباب انفتح، وكأن نسمة هواء دفعته، فغلبه الفضول، وتطاول برأسه يريد أن يرى ما بالداخل، فكل ما رأى حتى الآن كان لافتات مسمرة على أبواب. تطاول برأسه ليفاجأ بمكتب يجلس وراءه فتى يشير بيده في ترحيب: تفضل.. تفضل..

أراد الاعتذار عن تطفله، والاعتذار عن الدخول، ولكن الفتى الجالس وراء المكتب القابع فيما يشبه العتمة - فلم تكن إنارة ما وراء المكتب جيدة - قفز عن كرسيه، وتقدم باتجاهه: تفضل، تفضل نحن بانتظارك.

وجد نفسه ينساق، وضغط الفتى زراً أضاء الغرفة بضوء أبيض قوي. أشار الفتى إلى كرسي أمام المكتب، جلس راضي، وسمع الفتى يقول مخرجاً إياه من حيرته: تفضل. قهوتك ستبرد. وكانت المفاجأة أن فنجان قهوة كان على المكتب قريباً من ذراعه، وما يزال البخار يتصاعد منه.. كنا ننتظرك.. تفضل.

رفع راضي الغارق في حيرته الفنجان إلى فمه، ورشف رشفة متفحصة، فقد كان شديد المزاجية في قضية القهوة، تذوقها وهو يعد نفسه لإرجاعها معتذراً بأنها خالية من السكر، أو أن سكرها زائد، أو أنها خفيفة، أو أنها ثقيلة، أو أنها خالية من الهيل، أو أنها مبالغة الهيل، ولكن القهوة كانت لمفاجأته كاملة.. إنها ما يشتهيه بالضبط، كانت مضبوطة البن

والسكر، والغلي والهيل. فرشف رشفة أخرى، وأعاد الفنجان إلى صحنه على المكتب، والتفت إلى الفتى الذي اصبح غارقاً في النور وراء مكتبه الآن، ولدهشته فلم يستطع التأكد إن كان فتى أم كهلاً، فقد كانت غضون خفيفة تمشط وجهه وكان شعر شديد الجمال أشقر يغطي رأسه، كان الشعر جميلاً إلى درجة أنك يجب أن تشك في أنه شعر مستعار.

أحدّ النظر ثانية والفتى يقلب في ملفات أمامه.. أعوذ بالله، ربما لم يكن رجلاً أصلاً. إن فيه شيئاً نسائياً. هذه القامة الأقرب إلى القصر، وهاتان الكتفان الضيقتان، وهذا الصدر غير الواضح تحت القميص الفضفاض.. أيمكن أن يكون امرأة؟

رشف رشفة أخرى، ثم تنحنح وهو يضع الفنجان في مرقده فرفع الفتى - الكهل - الفتاة - الكهلة.. رأسه، وقال: قهوتك كما تحب أليس كذلك؟ كان الصوت أقرب إلى الرقة والنحولة النسائية منه إلى الخشونة الذكرية. ولكنه لم يكن تام الرقة النسائية.

فكر راضي الأمر محير.

وتابع فتى ما وراء المكتب: حدثني الجنرال عن رغبتك قبل قدومكما، وهمهم راضي يستحثه، أو ربما لم يكن يستحثه، بل كان هذا كل ما استطاع التجاوب معه بينما تابع الفتى ربما مررت على غرف الورشة، ورأيت المفاصل التي نعمل عليها - تنهد - والخيار المطروح أمامك. هو من أين تحب أن نبدأ.

وأشاح راضي بكفه في حيرة: لا أعرف.

فتابع الفتى: البعض يفضل البداية من الأجداد الأولين.

وقال راضي: لا.. لا.. لا ضرورة لهذا.

ولكن الفتى تابع: لا تتعجل في اتخاذ القرار. تعرّف في البدء على طريقتنا في العمل، وهز راضي رأسه موافقاً، فتابع الفتى: والبعض يفضل البداية من الأجداد الأقربين أي الذين ربما عرفهم، والبعض من الآباء المباشرين، والبعض ممن هم شديدو الاعتداد بأنفسهم يفضلون البدء من أشخاصهم مباشرة. ثم تنهد الفتى: وعلى أي حال، فحياة بني البشر كلهم متشابهة. صدقني. لقد عرفت، وصغت، وصنعت من حيواتهم ما يجعلني أعتقد ألا فارق كبيراً في حياة بني البشر، فكل الناس إذا ما أرادوا كتابة سيرة حياتهم إما أن يوقظوا الأجداد الكبار الذين أنجبوا هؤلاء الأحفاد الكبار كما يتمنون أن يقال، وإما أن يدّعوهم، أو يتركونا ندّعيهم بالنيابة عنهم، وكل بني البشر في حياتهم قصة حب أولى قد تكون ناجحة، وعلى الأغلب مخفقة، وكل بني البشر في حياتهم قصة المرأة الأولى، أو المضاجعة الأولى، وقد تكون هذه القصة مشتركة مع قصة الحب الأولى، وقد تكون منفصلة عنها وعلى الأغلب ألا تكون مشتركة، ولكل بني البشر قصص عن الصداقة، وعن الكفاح، وعن الإحباط، وعن الانتصارات، وعن الهزائم، وعن خيانة الأصدقاء، وعن غدر الأعداء.. .. تنهد.. .. وإذا ما أمسكت بهذه المحاور جيداً، وقررت صياغة حياة إنسان منها، فما أسهل الأمر، وما عليك إلا اختيار جواب من اثنين، أو من ثلاثة، فإذا بسيرة الحياة وقد تشكلت أمامك.

كان راضي يسمع هذا الصوت النائس بين الفتوة والرجولة وبين البنوتة والنسوية. كان صوتاً لمخلوق خارج الأجناس. تأمل وجهه وهو يتحدث وخداه يتثنيان ويمتطّان في استرخاء ورضا عن النفس.

حمل ملفاً وألقاه بلطف عبر المكتب أمام راضي. قال: هناك نماذج من السيرة. فما الذي تريده فعلاً.

قلب راضي الملف، وقرأ عناوين: بطولية. قلّب الورقة ليقرأ بعدها، ملحمية، ورفع حاجبه في استغراب: من الفقر إلى الغنى.. قلّب.. من التفاهة إلى العزة.. قلّب.. من العدم إلى المجد.

قلّب الملزمة، وقرأ: شعرية. قلّب الصفحة، وقرأ: فنية. قرأ عناوين أصغر، تشكيلية، تمثيلية، أدبية.

قلّب الملزمة، وقرأ: مغامرات. وقرأ عناوين أصغر. وقرأ: نضال سياسي. نضال عسكري.. مغامرات لصوصية.. قطع طريق.. قرصنة.

كان ما يزال هناك ملازم وعناوين أخرى، ولكن ما قرأ كان مثيراً للدوار.. وضع الملف على ركبته، وأغمض عينيه يفكر. ما الذي جاء بك إلى هنا يا راضي. ما الذي تريده بالفعل.. كان يجب أن تقرأ كتاب الجنرال قبل أن تأتي إلى هنا.

وكأن الفتى - الفتاة أدرك ما يجول بذهنه، فقال: حصل الجنرال على ما أراده بالفعل، ولو أنك قرأت كتب السير والمذكرات التي أهديت إليك في الفترة الأخيرة لكنت أنت من سعى إلينا.

وقال راضي: صحيح. أنا لم أقرأ الكثير منها. كنت أكتفي بقراءة مقتطفات من هنا، وهناك، أو بمطالعة الصور المنثورة فيها - وتنهد - معظمهم من أبناء جيلي، وأعرف عن سيرتهم وحياتهم ما لا يدع لي دهشة بالقراءة.

وقال الفتى في تهكم مهذب: وهل تعتقد أنك تعرفهم حقاً؟ هل تعتقد أنك وقد عاشرتهم، وعايشتهم وعاشيتهم، وغاديتهم. هل تعتقد أنك تعرفهم.. هل تعرف أنت حقاً نفسك. هل تذكر أحلام الصبا لديك. هل تذكر الوعود التي قطعتها لنفسك. هل تذكر الإحباطات والهزائم التي خادعت نفسك، وحولتها إلى انتصارات لتقضي على الأرق - وأطلق نفخة سخرية - لا يا صديقي، أنت لا تعرف حتى نفسك، فهل تظنك تعرف مجايليك، وأصدقاءك.

ثم هزَّ كتفيه كمن ينفض عنهما قضية غير مهمة، وتابع: وعلى أي حال فأنت لم تقرأها، ولو قرأتها كاملة، لكنت حسمت رأيك.

انتصب، فبدا نصف صدره فقط من وراء المكتب، وقال يحسم تردد راضي: على أي حال، ستعطيك السكرتيرة استمارة ستجيب عنها بنعم، أو لا على كل سؤال فيها. وسنعرف من إجاباتك ما الذي تريده وستحصل على البروفة الأولى للجزء الأول

من السيرة خلال أسبوع.

خرج من وراء مكتبه، وقدم له كفاً طرية قوية شد بها على كفه:

مع السلامة.. سنلتقي قريباً.

خرج من الباب، وما كاد حتى لقيته فتاة في يونيفورم يشبه اليونيفورم الذي كان الفتى يلبسه، ولكنَّ ملامح وشعر، وزينة الفتاة كانت واضحة.

أشارت بهدوء أن يلحق بها، فأطاع. كان في جزء منه يريد العودة إلى الباحة حيث الجنرال ليحدثه عن التجربة التي مر بها، ولكن خطوات السكرتيرة الواثقة لم تترك له كثير خيار، فمضى وراءها ليكتشف أن الدهليز الذي قاده من الباحة إلى غرفة السجل الأساسي له تفرع آخر مضت عبره السكرتيرة، فلحق بها، وبهدوء اكتشف أنه لم يعد لا مبالياً بل أصبح مهتماً، صار متورطاً، تحول إلى راغب في قراءة سيرة حياته الشخصية، وكان هناك صوت خبيث في أعماقه: سأخدعهم. لن أقول كل شيء. سأخدعهم لأرى إن كان باستطاعتهم صنع سيرة حياة من كذبات. سأذاكيهم، سأتغلب عليهم في صنع أسطورة أؤلفها أو.. أجعلهم يؤلفونها، وسنرى. أيمكن لهم اكتشاف الخيال من الحقيقة فيما أقول.

طال الدهليز، وطال لحاقه بها، كان يرى أبواباً عليها لافتات صغيرة لم يتوقف ليقرأ ما كتب عليها، فهو يعتقد أنه قد قرأ من العناوين ما يكفي لجعله يعرف آلية عملهم، ولكن الفضول غلبه عند نهاية الدهليز حيث قرأ - الشهر الأقسى في الحياة - سمع خطواتها تبتعد، فسارع إلى اللحاق بها.. الشهر الأقسى في الحياة. أعوذ بالله. أوصل الأمر بهم إلى التفاصيل، الشهر الأقسى، الأسبوع الأشد بهجة، اليوم الأشد مرارة.. ما معنى هذا.

اختفت السكرتيرة وراء منعطف آخر ليكتشف أن الدهليز الذي كانت تتقدمه فيه حلزوني. إنه يدور ويدور وهي تدور وتدور، وهو يلحق بها دائراً في حلزونيات. وماذا بعد.. أبواب.. وعناوين.. وتفاصيل. ما هذه الورشة؟ من صاحبها؟.. ما المطلوب منها؟ ما المراد منها؟.. .. أوف تنهد.. .. ليتني لم أدخل هذه التجربة وعبرت الفكرة سريعة في ذهنه. الذنب والغفران. ولكن.. .. إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا.. وجاءه الجواب سريعاً: ولكنه الزمن الأميركي.. البروتستانتي.. المحلل النفسي.. و.. قفزت الكلمة إلى مقدمة ذهنه، المحلل. أهي من التحليل.. التجزيء والتفسير؟ أم من التحليل - الحلال.. أي جعل ما كان يتبدى ذنباً وحراماً حلالاً.. أتراها الكلمة العربية لغفران ما بعد الذنب.

لم يستطع الاستمرار في استطراداته هذه. إذ وجد عتمة

الـدهليز تبـدأ بالإضـاءة التدريجيـة، وعـرف أنـه في طريقـه إلى الباحـة.. رأى بابـاً يسـد نهايـة الـدهليز، ورأى فتـاة تجلـس وراء مكتب عليه كومبيوتر، وهي تطبع أوراقاً.

وقفت السكرتيرة أمام المكتب، ووقف راضي على مبعدة منها في أدب، فأنهت الطابعة ما تطبع في ضربة أخيرة على الكيبورد، ثم ضغطت زراً وسمع صوت الطابعة تطبع، استخرجت الفتاة الورقة الأخيرة ضمتها إلى مجموعة من الأوراق، وضعتها في مظروف كبيرا أعطتها للسكرتيرة التي التفتت إليه بوجه باسم: تفضل.

أخذ المظروف. فتحت الباب، وتنحت تسمح له بالمرور في احترام. شكرهما في أدب، وخرج ليجد نفسه في الضوء والشارع والجنرال يقف أمام بائع مياه غازية يجرع آخر ما في علبته وينظر إليه في ابتسام.

❖ ❖ ❖

5

كان الغداء، وكان السلطة والشوربة على الطاولة الكبيرة، وكانت الصحون موزعة في انتظاره. نظر إلى الساعة الكبيرة في الصالون. الثانية والنصف. إنه موعدها الدقيق على الغداء. أطلت برأسها من المطبخ: اغسل يديك. الغداء جاهز.

غسل يديه.. واستبدل حذاءه بالشحاطة، وسكبت الخادم الطعام لهما، وكانت تثرثر عن صديقتها المصابة بالاكتئاب واسوداد العالم من حولها، وأنها تنزل كل يوم إلى السوق فتشتري، وتشتري، ثم ترمي ما اشترته في زوايا البيت حين تكتشف أن البلوزة لم تعجبها، وأن التايور كريه التفصيل، وأنَّ.. .. وأنَّ..

كان يأكل في بطء، ويصغي، والفتى - الكهل يحدثه أن حيوات البشر لا تختلف إلا في التفاصيل الصغيرة، فانتصار روكفلر وفورد في عقد صفقة تربح ملايين الدولارات هي نفسها انتصار دكنجي صغير في حارة صغيرة كسب من بيع جبنة عديمة الدسم رخيصة على أنها عالية الدسم غالية، بضع ليرات، أو بضع عشرات القروش. المبدأ واحد والأرقام هي التفاصيل.

هز رأسه وهي تحدثه عن غرفة ابن صديقتها المهاجر إلى ألمانيا والتي امتلأت تقريباً بثياب لا تلبس، ومجوهرات مزيفة لم تنزع من علبها، وعاد الفتى - الكهل يقول: ما الذي تختلف به قصة روميو وجولييت التي جالت العالم رمزاً للحب عن قصة عبدو وأنيسه في حارة دف الشوك وعبدو مسلم حوراني، وأنيسه مسيحية من الحسكة. ما المختلف فيما بينهما.. إنها التفاصيل، وفقط التفاصيل. هموم البشر واحدة منذ فجر الخليقة، وأهواؤهم واحدة وانهياراتهم واحدة. كل ما عليك هو اختيار شكل هذه المشكلة، أو تلك، ثم ملؤها بالتفاصيل المحلية..

صدقني. هذا ما سنفعله، وهذا ما ستساعدنا للوصول إليه في اختيار هذا الموقف، أو ذاك، وليس غير.

استلقى على الديوان المريح في مكتبه يقيل ويسمع موسيقى خفيفة خافتة شديدة الخفوت، موسيقى ليست للسماع، بل للمساعدة على القيلولة.. استلقى.. يبتعد عن ثرثرتها عن صديقتها المكتئبة بالكهولة وضياع الأولاد كل في طرف من أطراف العالم. ولا تجد ما تعوض به عن فقدان الحنان والاهتمام إلا الشراء. إنها تشتري نظرة الاهتمام الواحدة، السريعة، النادرة في عيني البائعة بهذا الثمن الباهظ. إنها تعرف أنها نظرة الشكران للبقشيش الكبير الذي تعطيه، وللنسبة التي ستنالها البائعة من الصفقة، ولكن لا بأس: إنها اهتمام.

ونفض رأسه: راضي. ما الذي تفعله. مالك، ولهذه المرأة. إنها واحدة من ملايين النساء البورجوازيات اللواتي لا يعانين من الفقر،

ولا الترمل، ولا فائض الأولاد لا يستطعن إطعامهن. فمشاكلها هي مشاكل العزلة والفقد.. ولكن.. أعوذ بالله. إنها مشكلة جديدة لم تكن المرأة تعرفها حين كانت جزءاً من عائلة مكتظة بالأبناء والأحفاد والحياة.. تنهد.. هل استوردنا المشاكل أيضاً، أم أنها حركة المجتمع في زمن يصنع مشاكله وهمومه على شاكلته.

قال الفتى - الكهل: الهموم واحدة، والاختلاف في التفاصيل. وأنت؟.. أنت يا راضي، الاقتصادي الكبير، نائب الوزير.. والمدير العام لعدة مرات.. .. والمستشار لكثير من المآزق القانونية والاقتصادية.. ما مشكلتك.

تنهد وهو يدير وجهه إلى ظهر الديوان كمن يختبئ من سائل ملح.. ما مشكلتك. وأحس باختناق ما قبل البكاء.. ما هذا راضي.. أنت تبكي.. تبكي.. ووجد الدموع تنثال عن غير رغبة منه. تبكي؟.. تبكي؟.. ما هذا الجنون، ولكن الدموع كانت أغزر، وأقوى من قدرته على ضبطها.

نظر إلى باب المكتب المفتوح يتأكد أنها غير موجودة، ولكنها كانت غير موجودة. إنها في غرفة النوم تقيل. استسلم لموجة البكاء في فرح، في استرخاء، في استسلام.. ما أعذب البكاء حين تكون الروح مثقلة.

استسلم، فبكى.. وبكى.. يعرف أنه يغتسل من آلام لا يعرف ماهيتها ولا طريقة الخلاص منها.. ولكنها تثقل على الروح

حتى الاختناق.. ولكن. ما الذي أفاقها الآن.. أتراها هذه الزيارة الغريبة لمؤسسة الإنشاء والترميم..

أضحكه الاسم فجأة. الإنشاء.. أهو البناء، أم الإنشاء اللغوي.. حلو هذا اللعب على الألفاظ، والترميم، ما الذي يرممونه، المباني؟ أم الحيوات تريد الخروج من حس بالذنب والإثم عميق بكتابة الاعتراف راجي الغفران.. ولكن.. راضي ما هذه المفردات التي تستخدمها. أنت تستخدم تعابير كاثوليكية، وأنت مسلم من عائلة مسلمة حتى الجد الألف.. ولكن.. فكر قليلاً وهل الأديان علاقة روحية فقط، أم علاقة اجتماعية. ها أنت تعيش في مجتمع مسلم، ولكنه يعيش الزواج الأحادي الواحد، الأبدي. وكان المجتمع قبل خمسين، أو ستين سنة فقط مجتمعاً يندر أن تجد فيه رجلاً لم يتزوج لعدة مرات في حياته، وامرأة لم تتزوج لعدة مرات في حياتها، إما بالترمل، أو بالعقم، أو بالطلاق، وكان تعدد الزوجات مألوفاً، ولكن.. انظر في أي مجتمع تعيش. أنت تعرف أن أسراً كثيرة تصحو وتنام على الشقاق والشجار، بل والخيانة ولكن الزوجين لا ينفصلان لا للسبب الديني الكاثوليكي أبدي العقد، بل لأن الزوجين لا يملكان بيتاً آخر ينفصلان عن بعضهما فيه، فيتعايشان كرهاً كما تعايش الزوجان الكاثوليكيان فيما مضى على مضض.

هه. أما الغرب فقد تخلى عن تحريم الطلاق، وعن الزواج الأبدي. فمن النادر أن تجد زوجين استمرا في زواجهما إلى الأبد، بل كل منهما يطلق، ويتزوج.. فكأن كلا المجتمعين الإسلامي

والغربي استعار من الآخر نظامه في الزواج والطلاق.

شرد قليلاً يجفف آخر دمعاته عن خديه، ويفكر.. وإذن ها نحن.. نستعير من الغرب نزعة كتابة السيرة - الاعتراف - التحليل.. والغرض النهائي طلب الغفران، وغسل الروح مما أثمت به في رحلتها الطويلة.

أزَّ الكومبيور في مواجهته يعلن أن هناك رسالة تنتظره فانتصب، ومضى إلى الكمبيوتر، وضغط الزر ليخرج الصبي في الكنزة المخططة وفقاعة الهاي تعلو رأسه.

أراد أن يمحوه، فلقد سئم هذا الظهور غير المسوَّغ، والذي لم يستطع أن يحمل إليه رسالة، أو معنى إلا كلمة هاي.. أتراها إعلان لمنتج ما. ولكن.. لا ذكر لمنتج ما، فما معنى هذه الصورة إذن؟ أراد أن يمحوها ولكن إحساسا كان يشده إلى الوجه، إلى الصبي. كأنه يعرفه. بل هو يعرفه. يعرف هاتين العينين الغائمتين قليلاً، غيَّمهما، وغبَّشهما التكبير.. يعرف هذه النظرة المثقلة بهمٍّ أكبر من الصبي. من..

سمع حركة في البيت، فأدرك أن مروة قد أفاقت من قيلولتها، فسدد إصبعه إلى الكيبورد يريد محو الصورة، وضغط ، فاختفت الصورة.

عبرت مروة الصالون، أطلت، ورأته عند الكمبيوتر.

-قهوة؟

-نعم، من فضلك. أجاب، وظهره لها، وما كادت

خطواتها تبتعد واصبعه ترتفع عن الكيبورد حتى انبثقت الصورة ثانية، ولكنها لم تكن صورة الصبي فقط، بل كانت صورة لصبيين، واحد منهما صبي الكنزة المخططة وفقاعة الهاي.

تأمل الصورة الجديدة، الفتى بجانب فتى الكنزة المخططة. أعوذ بالله. أنا أعرف هذا الفتى. أعرفه جيداً.. طبع الصورة، وحملها قريباً من النور، وفجأة انبثقت الفكرة، فمضى إلى حيث كتاب مذكرات الجنرال سعيد. فتح الكتاب عند ملحق الصور، قلّب في الصور عائداً بها إلى بداياتها، و.. رآه.. إنه سعيد الفتى. ما معنى هذا ولم يرسل سعيد صورته الفتى مع صورة الفتى في الكنزة المخططة؟ ما الرسالة وراء هذه الصورة؟ أهي.

ولكن جهاز الكومبيوتر أزَّ أزيز البريد القادم، فضغط الزر لاستقبال الرسالة متوقعاً عودة صورة الفتيين كما ألحت صورة الفتى في الكنزة المخططة من قبل. ولكن الرسالة كانت هذه المرة صورة جماعية لعدد من الفتيان. طبع الصورة، وضعها تحت اللامباديرة، ورأى صورة الفتى في الكنزة المخططة، وصورة سعيد الفتى، وصورة لفتى، وصورة لفتى آخر، ولكن ما صعقه كان الوجوه الممسوحة للصور الأخرى.. صور مسحت ملامحها عمداً، عمداً؟ أم خطأ فنياً؟ لم يكترث كثيراً، فقد شدَّته الصورة الآن في إطارها، وفجأة أدرك أنه كان يعرف صاحب صورة الفتى في الكنزة المخططة. ولكن جزءاً في واعيته كان يرفض التعرف إليه.. جلس على الكرسي مستسلماً.. إنه أنا.. أنا الفتى في الكنزة المخططة.. حين زمن الأحلام والأيمان بصنع كل

كبير في هذا العالم.. ولكن.. أين كانت هذه الصورة. أين اختفت كل هذه السنين، ومن أخرجها من مخبئها، ولماذا؟..

وفجأة انطلق الكومبيوتر بنداء الفتى يصرخ، وهي الأصلية كل حبة وقية بتاكلها العجوز.. .. .. .. أمية

أطفأ الكمبيوتر بسرعة، فلم يرد لمروة أن تسمع هذا النداء وتسخر، فتجرح بسخريتها تلك.. الـ.. .. ..

6

عشقها، وهو لا يعرف حقاً كيف عشقها، ولا لماذا. أتراه عشقها لأنها كانت جديرة بالعشق، أم أنه عشقها لأن الجميع كانوا يلحون عليه لعشقها.

عشقها، ومنذ أن عشقها تحولت إلى شيء آخر غير أمية، فبعد أن كان يجلس في حضنها، ويشدها من شعرها حين تشده من شعره، ويرشها بالماء حين ترشه بالماء، ويمد لها لسانه مغيظاً، فتمد له لسانها، وتجعل من كفيها ما يشبه طائرين يرفرفان حول وجهها لتقول له إنه مجنون، وما في رأسه ليس إلا عصفورين يختبطان في علبة فارغة. إذا بكل هذا يتحول فجأة إلى.. حرام. ما الذي حول القرصة من لعب أولاد إلى.. قرصة مضمخة بالحرام. ما الذي حوّل شدّ الشعر من شدّ للشعر مغيظ ومداعب ومؤلم إلى.. حرام؟ ما الذي حوّل خطف الكأس من يدها وشرب الشاي منها حتى القطرة الأخيرة رغم سخونته من خطف للشاي إلى.. حرام..

كانوا في الحارة، الصبية ممن يكبره، والصبية ممن يصغره يحسدونه على كونها تسكن معه في البيت نفسه: أأنت

تراها بدون إشارب؟ أتجبرك على شرب القهوة من يدها؟ أتمشّط شعرها أمامك؟ أتشطف الباحة، وأنت في البيت، فماذا ترى حين تنحني لتشطف الباحة؟ احك.. احك. إكراماً لله.

هو.. .. لا يعرف إن عشقها لأنه اكتشف فجأة كم كانت جميلة، أم عشقها لأن الجميع كانوا يحدثون عن جمالها. عن رشاقة خطوها، وحدثه أحدهم عن عقبها الوردية تتبدى من تحت ثوبها حين تعبر الحارة: عقب كالتفاحة.. وراقبها في البيت للمرة الأولى، راقب عقبها، واكتشف أنها فعلاً طرية كخد طفل، محمرة كتفاحة أول نضجها.. ولكن.. ثم ماذا!!!

كانوا حين يستعرضون نساء الحارة في الخرابة التي جعلوها ملجأهم بعيداً عن الكبار يتخيرونهن واحدة، واحدة، ثم ينخلونهن، ويرفضونهن واحدة إثر الأخرى، فهذه أصغر من أن تعشق، وهذه أكبر مما يجب، وتلك لا يترك أطفالها فيها مطمعاً، وهذه أخت رفيقنا فهي عرضنا ولا يجوز الحديث عنها، وأخيراً لا يتبقى سواها فهي النموذج الكامل للمرأة، للمعشوقة الأبدية.

كانوا يستعرضون سير العشاق والمعشوقات فرجيني وبول عند المنفلوطي، وجين الجميلة معشوقة طرزان التي كانت تفتنهم حين تلبس ثوباً مختصراً من جلد النمر، وعبلة التي ضحى عنتر من أجلها بكل شيء وخاطر حتى بدمه، بل.. وحريته، وكان واحد منهم قد تثقف قبل الأوان فحدثهم عن آلام فرتر، فأحسوا قلوبهم تكاد تشق طريقها خارج قلوبهم بحثاً عن معشوقة يكتبون معها قصة الحب الخالدة، وصارت المثال، فبدأوا الحقد

على أبو حسين، ثم تضاعف حقدهم حتى أقدم أحدهم على ثقب العجلتين الأماميتين لباصه الكبير، ولما لم يكن ممكناً العثور على الفاعل، فقد افترض أبو حسين أن الفاعل واحد ممن أزعجهم وقوف الباص في الحارة يسدها، ويزعج المارة.

استقر رأيهم أخيراً على.. أمية.. صارت الحلم، وصارت المثال.. وصاروا يكتبون القصائد يقرأونها فيما بينهم، ويشتجرون فيمن قال أجمل القصائد فيها، وكان الوحيد لا يكتب القصائد، ولا يأرق الليل، ولا يتلصص عليها في مشوارها خارج الحارة لزيارة أمها، أو لشراء خيوط السدى التي ستسدي بها البسط الملونة التي تنسجها، وكان يسخر منهم في أعماقه، ولكنه لم يجرؤ أبداً على التصريح بسخريته، فمن الممكن أن يقتلوه لو صرح لهم بسخريته، ولكنه كان ينظر إليهم وهو يتلوون ويتباكون، ويتأوهون، وعلى ماذا.. على أمية التي لا تحسن الطبخ، فطبخها لا طعم له كما تقول أمه، ملحه ناقص، وفلفله خشن يقرمش تحت الأضراس فيلذع اللسان، وغسيلها غير نظيف عليك أن تراه منشوراً لترى أنها لا تحسن الغسيل، وشطفها.. هه. لو لم يعاونها في كل مرة يكون دورها في شطف الباحة بحمل سطول الماء من البحرة لتحولت الباحة إلى موحلة متسخة.. بالشطف بدل أن تنظف بالشطف.

كان يرى أبو حسين عند قدومه من السفر. مخلوقاً ضخماً، مرعباً بشاربين ضخمين، وعينين واسعتين مكحولتين. قالت أمه إنه يكحلهما حتى لا تؤذيه شمس الصحراء في رحلاته

الطويلة إلى بغداد، والبصرة، والكويت. أسماء كان يسمعها، وكانت توحي بالبعد الشديد. لكنه حين قرأ ألف ليلة وليلة سيسمع هذه الأسماء كثيراً، وسيعرف عنها، وعن هارون الرشيد، وعن مسرور.. وعن.. ولكن قراءاته هذه ستزيد في إبعادها، فلن يقربها النص الأدبي، بل سيحيلها إلى شيء مصنوع من كلمات وسحر وخاتم سليمان، وبساط سحري.

كان حين يراه وهو يفتح الباب يجده ضخماً طويلاً، مرعباً، جهماً، ضخم الشاربين. يحمل في ثيابه رائحة الصحراء، لم يكن يضحك، بل كان يجلجل، وكأن الصحراء علمته أن الهمس أداة غير كافية للإيصال. كان زموره يهز الحارة، وكانت ضحكته تهز الحارة، وكان سلامه يهز الحارة. وكان لا يدخل البيت إن لم يكن الأب في البيت، بل يكتفي بالصراخ: أميه. أنا رجعت.

وكان راضي يلتفت إلى الوراء ليراها ترتعش تحت وقع صراخه.. ترتعش وهي تضع المعطف الأسود الطويل، ترتعش فتعجز أصابعها عن ربط البونيه جيداً، ولكنها أخيراً تفلح في تجهيز نفسها للخروج فتتدحرج وراءه حتى الجادة حيث الباص الضخم ينتظر، وكانت عيونهم، عشاق الحارة الصغار تلاحقها في حزن حتى الباص، وكان راضي يكتفي بالوقوف في فتحة الباب ينتظر سماع زئير الزمور الصحراوي يعلن أن الباص قد تحرك بغنيمته إلى بيت أبو حسين.

ثم يتلفت من حوله فيراهم وقد تهدلت أكتافهم في

انكسار، وتدلت رؤوسهم وهم يتجهون إلى الخرابة ملجئهم الأخير، وكان في تلك اللحظات لا ينضمُّ إليهم فقد كان يخشى أسئلتهم، ويخشى تعليقاتهم الجارحة، وخيالاتهم الجامحة فيعود إلى نافذة غرفتها، ويسترق النظر إلى الداخل وكأنه كان يتوقع أن يراها تلوِّح له من الداخل.. فيما بعد وبعد أن تقرصه تلك القرصة التي ستغير مجرى حياته وتخرجه من مستنقع الخمول والتفاهة إلى جحيم العشق ولهيبه سيذكر أنه حين كان يسترق النظر عبر نافذتها كان يتشمم رائحتها، رائحة العطر المزيج من آس وريحان.

كان يحسُّ بعد غيابها بالخواء. لم كان يحس بالخواء وهو لم يمتلئ بشيء حتى الآن؟ لا يعرف، ولكنه كان يحس بالخواء الكبير، خواء أشبه ما يكون حين تنظر عبر فتحة الجرة الكبيرة الفارغة من الزيت والماء. تنظر إليها من الخارج فترعبك لكبر حجمها ولكنك إن نظرت إلى الداخل من فتحتها، بل إن صفرت، أو صفقت قريباً من فتحتها وسمعت الصدى، فستدرك أن الخواء سيد أصيل.

كان حين يخوي البيت.. منها يساعد أمه في كل شيء، في سقاية نباتات الزينة، في شطف البيت، في تنقية البرغل، في التواجد في كل مكان، وفي كل آن حتى تضيق به، فتطرده إلى الحارة ليصدمه الخواء الآخر، خواء الحارة الصامت بجدرانها العازلة حيث لا صراخ ولا شجار، ولا راديو، ولا يجد أمامه من ملجأ إلا الخرابة، فيمضي إلى الخرابة ليبدأ التحقيق الطويل:

رجعت؟ متى ترجع؟ لم تتغير مشيتها من مشية الغزال إلى مشية البطة حين يرجع أبو زمور؟ وكانوا يسمونه أبو زمور، فقد كان أسوأ في نظرهم من أن يسمى أبو حسين. كانوا جميعاً بمن فيهم راضي يتفقون على شيء واحد كراهية أبو حسين. أما لماذا يكرهونه، فربما لن يستطيعوا الإجابة لو سئلوا. ولكنهم كانوا يكرهونه.

وما إن يسمع الزمور في الصباح الباكر حتى يقفز من فراشه وكأنه لم يكن نائماً. يقفز ليفتح الباب، وينتظر، وتكون هي.. وقد رجعت إلى بيتها، فقد مضى أبو حسين في رحلاته الطويلة البعيدة إلى بغداد والبصرة، والكويت، و.. .. يمتلئ البيت بحضورها، ويختفي الخواء.

قرصته من كفه مداعبة، ولم تكن المرة الأولى، وقرصها هذه المرة مداعباً، ثم.. .. فجأة لم يعد مداعباً، فلقد شم منها رائحة الآس المخلوط بالريحان، بالعرق الخفيف النازّ من صدرها. قرصها، وتغير شيء في كل شيء، قرصها ثانية، ولم تكن قرصة إيلام، لا.. لقد قرصها في ضعف، في ارتخاء.. في.. ..

عشقها، وحتى الآن لا يعرف إن كان قد عشقها لحسابه، أم لحساب الجميع، كل أولئك الذين كانوا يتغنون، ويكتبون القصائد، ويتأوهون متكئين على الجدران الخربة لضريح رجل كان اسمه السلطان عمر، وليس في الخرابة ضريح، وليس فيها سلطان اسمه عمر.

7

أمية الأصلية كل حبة وقية بتاكلها العجوز بترجع صبية الياسكا.

لم يصدق عينيه.. فركهما جيداً، ثم سدَّدهما عبر عتمة الغرفة مسدلة الستائر، ولكنها لم تكن هناك.. كيف..؟ هو لم يشعر بيقظتها، أو حركتها منذ الفجر الباكر. استيقظ. ترى. أهو قد استيقظ بالفعل. الاستيقاظ يجب أن يسبقه النوم، ولكنه لا يذكر إن نام. ولكنها ليست بالداخل. هذا يعني أنه قد نام، وإلا، فكيف خرجت. متى. ولماذا.. .. أعوذ بالله. بعد كل ذلك الفرح تخرج..

تلهى بالثرثرة مع أمه، عرض مساعدتها، ولكنها صرفته ساخرة، فتسلل إلى الممر الخفي عن أنظار الأم والذي تطل نافذتها عليه، وأطل ثانية. وكان نور ما قد انتشر في الغرفة، فأنارها ليتبدى سريرها مرتباً خالياً. وأنّ شيء في القلب. إنها لم تنم في الغرفة أصلاً ولكن.. أين تراها مضت.

اندفع إلى الباب، فدفعه، فاندفع.. كان أمل ما صغير، خفي متشبث يدعوه إلى الإيمان بأنها تداعبه، تختفي في زاوية صغيرة ما.. هنا وراء الخزانة الخشبية، ولكنها ليست وراء الخزانة الخشبية.. تحت السرير، ولكن تحت السرير.. أف.. كان

مشحوناً بأحذية وشحاطات وعناكب وغبار. انتصب.. حفرة النول.. البساط ما يزال مشدوداً.. لم ينجز بعد.

انحنى فوق شرشفها يتشمم ريحها.. ما تزال رائحة الآس المخلوط بالريحان تنز منه. أراد أن يتقلب في سريرها، أن يعانق ريحها العالق في الشراشف، ولكنه سمع حركة الأم في الباحة، فخجل، وانسحب من الغرفة إلى الممر المعزول بين بيت المونة وبين غرفتها. جلس على الأرض، استند بظهره إلى جدار بيت المونة، وأخذ يفكر.. ..

كانت قد عادت إلى البيت، مبكرة، وكان في استقبالها، وكان باص أبو زمور يشخر وهو يبتعد عن الحارة.

قفز إلى الباحة على عادته. فتح الباب، ورآها تتقدم متهدلة مرهقة، تعبانة.. ما الذي يرهقها.

رفعت المنديل عن وجهها، فتبدت الهالات الزرق حول عينيها والإجهاد المرهق في وجهها. صاح مرحباً، فردّت في وقار، وانزلقت من جانبه دون أن تقبله في وجهه على عادتها كلما عادت، بل دون أن تغرق وجهها في خده وهي تتشمم، ثم تهتف مازحة: يا عليك. أما غسلت وجهك بعد؟ رائحة النوم تطفح منك. ثم تشده إلى البحرة، فيقاوم قليلاً، ولكنها كانت دائماً قادرة على تليينه وجعله يستجيب لغسيلها وجهه، ثم تمشيط شعره. أما اليوم.. لا.. لقد انزلقت، مستسلمة، راضخة، متعبة انسلت دون صوت إلى غرفتها، فتوقف مشدوهاً: ما الذي تغير فيها.

استجاب لنداء أمه التي أعدت له الإفطار، ثم سألت بلا اكتراث:

-العروس رجعت؟

وقال في غم وهو يأكل مرغماً: رجعت

أخبرته أمه أنها ماضية إلى بيت جدته. أتحب أن تصحبني؟

ولكنه اعتذر بأنه ماض مع الشلة إلى المسبح، وسيرجع من المسبح مباشرة إلى بيت جدته، ولم تبد الأم اعتراضاً، بل أخذت في تغيير ثيابها، وأخذت تغريه: جدتك تعد لنا اليوم كبة.. كبة مقلية، وكبة مشوية، وكبة نية هه. وقال في حزن لا يعرف سببه - أترى الحزن يعدي -..! سأعود إلى بيت جدتي مباشرة. ثم تمارح.. احفظوا حصتي. لا تجعليهم يأكلونها. وضمته إلى صدرها في حب: جدتك سترفع حصتك منذ أول لقمة. لا تخف.

مضت. لاب في البيت يريد سؤالها عما يكئبها، ولكن الستائر كانت مسدلة تماماً، والباب مقفلاً بالمفتاح، والعزلة عن كل حوار كاملة.

سئم، فخرج من البيت. جال في الحارة، في الخرابة، في الجادة، وصل حتى الحنفية العمومية. عبث في الطوالع الموزعة لماء النهر على الجيران. ولكن الخواء كان أكبر من أن يُملأ بهذه الولدنات.. و.. رآه من بعيد.. أيوب.. الصديق الغامق السمرة، والشاعر المبكر، تهلّل أيوب للقائه، فدعاه إلى اجتماع عند السلطان عمر.

صحبه إلى الخرابة، لم يكونوا هناك، ونظر إليه متسائلاً: فما هذا الاجتماع إذن.

لكن أيوب وضع إصبعه على فمه يمنعه من متابعة الحديث: خدمة. أريد منك خدمة.. خدمة العمر.. كان يتوسل، وما عهده يتوسل وهو المتكبر، الشرس، المشاجر، ترى ما الذي طامن من شموخه ليجعله يتوسل، وأجابه راضي في أريحية: اءمر.. أتريد نقوداً.

-من يتحدث عن النقود يا غبي.

ودس يده في عبه.. وأخرج مظروفاً وردياً رقيق الورق حتى لا يكاد يصلح للحمل.. فتحه بأصابع مرتجفة: ما هذا.

-قصيدة. أرجوك.. هذه القصيدة إن نجحت في إيصالها لها، فلن تكون قد قربتني منها، فحسب، بل ستكون قد قربتني من الشعر.. سأعرف أني شاعر.. سأتأكد من أني لم أضلَّ طريقي بالشعر، وأعدك.. بل أعد.. وتلفت من حوله.. أعد السلطان عمر نفسه. ومضى إلى ضريحه المهدم الذي لم يتبق منه إلا ركام من حجر يمكن لك مع بعض التسامح تسميته ضريحاً. مضى إلى الضريح، ووضع كفه فوق الكرة الحجرية، وأقسم إن نجحت هذه القصيدة في القيام برسالتها، فسيكرس نفسه للشعر، ولن يمارس مهنة أخرى عدا الشعر.

دسَّ راضي المظروف في عبه، وودعه أيوب بعينين شاكرتين خضلتين.. لاحقه بنظراته يعبر الحارة، ورآه يدخل البيت، فتنهد في سعادة.

أغلق راضي الباب الخارجي في حذر. كان يريد أن يفاجئها، أن يرعبها، أن يقول بوه، ويرى الذعر في عينيها، وصرخة الدهشة تطلقها. تسلل إلى المطبخ لا بد أنها تعدُّ قهوتها الآن، ولكنها لم تكن في المطبخ، مضى إلى الإيوان حيث تستلقي محدقة في السقف المستعار المزيَّن بلوحات ناصلة لنساء يركبن قوارب في أقنية وأنهار لم يرها في حياته. ولكنها لم تكن في الإيوان. ألعلها ما تزال في غرفتها؟ مضى إلى غرفتها، نقر الباب ولا جواب، مضى إلى الممر ليتأكد من وجودها في الغرفة ولكن الستائر ما تزال كاملة الإسدال. رجع إلى الباب وقد قرر أن يقتحم الباب، ولكن الباب كان مقفلاً.. هاه لا بد أنها نائمة.. سمع خشخشة المظروف في عبه، فخشي تبلله بالعرق، أخرجه، نظر إليه في سخرية، ثم قرر إيصاله لها على طريقته، فدسَّه تحت الباب، ومضى.

كان أمجد بائع البوظة في الحارة يهتف: وهي الأصلية.. الياسكا.. ولما اقترب منه سأله عن نوع الآيس كريم التي يبيعها أجابه في فخر: أمية. وضحك.. أمية ثانية؟

اشترى إصبعين من الآيس كريم، ورأى البائع يبتعد وهو يصرخ الياسكا، وكاد يلحق به يصحح له الاسم إنه ألاسكا، ألاسكا، وليس ألياسكا، ولكنَّ البائع ابتعد مع انحناءة القوس إلى الجادة، وأخذ صوته يتلاشى. مضى إلى خرابة السلطان عمر يعطي أيوب اصبعاً، ويتلذذ بالأخرى، ولكن أيوب كان قد مضى، فاقتعد الأرض مسنداً ظهره إلى شجرة مسك عملاقة، وأخذ يتلذذ بأكل الآيس كريم.

فيما بعد، وفي لوبانه الطويل يبحث عن أمية ما بين بيت أمها وسوق الخيطان، والحاجة ثريا، وبيت أبو حسين لا يطلب إلا شيئاً واحداً، أن يراها مرة أخرى. مرة أخرى فقط سيتساءل وسيلح السؤال عليه كثيراً. أهو قد عشقها لأنه كان يجب أن يعشقها، أم لأنهم جميعاً التفوا من حوله، وألحوا عليه ليعشقها، ألحوا عليه ليفتح عينيه، ويرى جمالها، ألحوا عليه ليرى مشيتها الغزلانية، ألحوا عليه ليسمع ضحكتها الخجول كصدى لحسون يغرد، ألحوا عليه حتى رسموها له في لوحات من قلم الرصاص، والطباشير على جدران الخرابة، ألحوا عليه حتى كتبوا له القصيدة التي ستجعلها تتنبه أخيراً إلى أنه كبر، وصار رجلاً يعشق و.. يكتب الأشعار..

8

دخلت حاملة صينية القهوة، وكانت هذه واحدة من الإشارات القليلة التي احتفظت بها من علاقتهما الزوجية، فبعد غياب خلدون ناديا والسوداوية التي حلت عليها حين حملته كل آثام هذا الغياب، وكانت تضمر اللوم في البدء، ولكنها منذ بدأت شجارات ما بعد التقاعد فقأت الدمل، وأعلنتها ليكتشف أنه كان المسؤول الأول عن انتحار.. .. خلدون، وعن زواج ناديا الهروبي إلى أميركا، ثم حادث السيارة الذي أودى بها وبزوجها، وبحفيده الذي لم يره أبداً.. أعوذ بالله. كأنهم لم يوجدوا يوماً. وكأنها لم تملأ البيت ضحكاً وفرحاً وسعادة.. أعوذ بالله.. إيه.. لقد تغير كل شيء منذ بدأت التساؤلات. من؟. ما؟. لماذا؟.. كيف.. .. وما زالت التساؤلات تترى، والبنت تكبر حتى اختتمت التساؤلات بالهرب إلى أمريكا، ثم الغياب.. الغياب.

-تفضل. قبل أن تبرد.

رفع الفنجان إلى فمه وجرع جرعة خفيفة، تأملت النسخة المصورة عن الصورة الجماعية للفتيان، قلبتها لتجد تحتها صورة سعيد، وصورتـ.. .. ـه.. التي لم تتعرف فيها على أحد.

-ما معنى هذا.. من هؤلاء.

لم تكن هناك فائدة من أي جواب لن تتعاطف معه فيه على شيء، فاكتفى بالإشاحة بكفه في لا مبالاة: ولدنة.

كان يعرف أن العاطفة الوحيدة التي ربما ملكتها يوماً هي الأمومة، فهو لم يعرف منها أبداً عاطفة الزوجة المحبة، ولا العاشقة المتيمة، ولا الرفيقة المتفهمة، كانت ابنة وزير سابق من العهد السابق، وكانت حريصة على ألا ينسى هذا، وهي ما كانت تترك فرصة إلا وتذكره بها. حتى الصورة المركزية في الصالون كانت لأبيها - بنت الوزير - وحتى حينما كان يذكرها بأن وجود هذه الصورة في صالونه مسيء له سياسياً لم تبال: هه.. وتظن وزراء هذه الأيام المعينين دون استشارة وقاعدة نيابية وزراء!! ثم تطلق ضحكة صفراء كانت كافية لقتل كل بهجة عرفها.

-طيب. قالت وهي تهتف منادية الخادم التي ظهرت فجأة وكأنها كانت تقف وراء الباب مباشرة، فحملت الصينية والفناجين، واختفت.

-أنا ماضية إلى السوق.

وهز رأسه في حياد. لقد فهم الجملة، وفقط، فهو لم يسمح، وهي لم تسأله يوماً السماح، ولم يرفض، ولم يملك يوماً الرفض.

اختفت، فرفع النسخ الورقية للصورة المزدوجة، وللصورة الجماعية يتأملها. وقفزت أمية.

انتفض كمن لطم.. لا. لا أريد، مضى إلى النافذة.. ما.. ما الذي لا تريد.. ولم يعرف بم يجيب، ولكنه أصر على تكرار: لا. لا أريد.. لا أريد..

اتجه إلى المكتب، رفع مظروف الاستمارات، حمله، نثره أمامه. وأخذ يقرأ الأسئلة، الملاحظات. كانت أسئلة مراوغة تترك لك الخيار كاملاً لاختيار الحياة التي تريد منهم أن يكتبوها.

الآباء.. الأجداد.. الأجداد البعيدون.

و.. .. قرر أن يبدأ اللعبة.. قال: سأبعدهم، وأبتعد بهم، ومعهم عن.. .. ها.. ..

وأرسل الاستمارة بالبريد الإلكتروني حسب المعلومات المدونة على الاستمارة. ضغط على الزر، فمضت الرسالة.. واسترخى.. قال: أجرب.. كيف سيصطنعون.. هذا الجزء من السيرة. كان قد أجاب على عدد كبير من الأسئلة بنعم، أو لا.. حسب ما خطر له. لم يلتزم بنظام معين، بل أراد اختبارهم، فأجاب بنعم حيث وقع القلم، وبلا حيث أراد القلم. كان يجيب بسرعة معطلاً ملكة النقد، والرأي والاختيار.. .. حسناً. أراد للصدفة أن تقرر من هم الآباء الذين انحدر منهم، وسيرى إن كانوا يصلحون للتأبي - أن يكونوا الآباء - فإن صلحوا تأبّاهم وتابع معهم كتابة هذه السيرة. قال: سأتسلى، وأرى إن كان أنا الذي سيصنعون يستحق السيرة فأطبعه. وأقول انظروا إنه أنا.. .. وإلا.. .. فواحدة من التجارب المخفقة!!!

هـرب مـن البيـت.. لم يـرد لرســائل فيهـا صـبي أو صــبيان وفقاعـة هـاي فـوق رأسـه أن تـرد ، أغلـق هـاتفـه النقـال، فلـم يـرد لرسـالة: وهـي الأصلية كل حبة وقية أن تهاجمه ثانية.

هرب إلى المقهى، ونـادراً مـا ارتـاد المقهـى، ولكنـه قـال: في الزحمة تتوه الأفكـار. سلّم علـى واحـد مـن الرفقـاء القـدامى.. لم يتحـدثا كـثيراً إذ سـرعان مـا استحضـر الصـديق طاولـة، وبـدأ المبارزة ملغية كل حوار مع الآخر، أو مع النفس.

9

لم يكن الجوع هذه المرة من صنع السماء، بل كان من صنع الإنسان.. جوع لا يمكن التحايل عليه، فقد هاجم الجند المستودعات والمخازن، وحفروا باحات البيوت بحثاً عن قمح مدفون، وهدموا أسواراً ترابية لبساتين كانت مثيرة للريبة في جدَّتها، يبحثون عن القمح والشعير، والحمص، والفول، والدبس، والزيتون والزيت المخبوء فيها. كانوا يريدون كل شيء، فالغول الكبير المسمى بالحرب كان قد فغر فماً لا قعر له يطلب كل شيء الشبان، والغلة، والخير، و.. حتى الشمس.

كان جوعاً أيقظ كل المجاعات التي ما تزال ذكراها عالقة في ذواكرهم، جوع أكل فيه آباؤهم الكلاب والقطط والجرذان، جوع سرقوا فيه أطفال الآخرين وأكلوهم. جوع غلوا فيه جلود الأحذية حتى الذوبان ثم أكلوها، كانت مدينة توقظ ذاكرة مشحونة بالعذاب، مدينة تستطيع اختصار تاريخها حسب رواية أبنائها بـ.. ..: قحط وجوع، وطاعون وموت، و.. حاكم ظالم لم يختف من ذاكرتهم أبداً.

كان جوعاً أيقظ ثالوث الرعب مرة واحدة، الجوع، والريح الصفراء أو الكوليرا، والحاكم الظالم يزين ساحات المدينة بورود من لحم بشري تتدلى متأرجحة كل بضعة أيام، فيسودٌ كل شيء. كان جوعاً جعل الفقراء يطاردون بغال الحكومة حين تعبر الشوارع ليس لمحاولة سرقتها وقتلها وأكل لحمها. فهذا فوق الحلم، ولكن بانتظار أن ترمي روثها، فإذا ما سقط الروث على الأرض حملوه، وغسلوه مستنقذين حبات الشعير غير المهضومة والضائعة فيه..

مهن جديدة استيقظت في المدينة الجائعة، ليس نادراً فيها القتل والخطف، فجوع المدن هو الجوع الأقسى في العالم، ففي الريف حيث الأم الطبيعة تعطي هناك دائماً بعض عشب ضائع هنا وهناك، خبيزة، بقلة، قرصعنه، قره، يمكن قطفها وملؤ بطون الأطفال الجائعة من طبيخها، في الريف هناك دائماً أرنب بري، أو أهلي ضائع يصاد فيملأ البطون لحماً، هناك طير ما بائس غضب الله عليه، فوقع بين أيدي الجياع. ولكن.. جوع المدينة هو الجوع حيث لا عشب برياً، ولا طير ضائع، ولا حبة قمح منسية، أو حبة فاكهة مختبئة بين الأوراق.. في المدينة.. الجوع حيث لا بد لكل لقمة إن وجدت من مال يدفع في مقابلها، وحين يحط الجوع يهرب العمل من الفقراء.. ويتخفى ليصبح الحلم، ففي أيام الجوع كل عمل يمكن تأجيله، وكل بناء يمكن إلقاؤه إلى حضن المستقبل، وكل ترميم يمكن له أن ينتظر.. ..

أما الأمر الوحيد الذي لا يمكن تأجيله، ولا يمكن له أن

ينتظر، فهو البطن الجائعة وبكاء الأطفال منتفخي البطون بغازات الجوع، وهكذا ولدت أسطورة أبو فاروق الخاروفي، وحين يحارون في سبب تسمية الأسرة بالخاروفي ينسج أحد الأحفاد أسطورة تسمية الجد بالخاروفي حين رآه في المنام يأكل خروفاً كاملاً؛ كان نهماً مطلقاً، ولكنه كان - كما سيضيف الحفيد الثاني - شهامة مطلقة، وكرماً مطلقاً، ورأفة بالفقراء والمساكين والأرامل والأيامى واليتامى.

كان أبو فاروق خبازاً بسيطاً، ولما كان وقود الفرن في معظمه من قضبان القنَّب، فقد شكّل صداقات مع الفلاحين موردي القنَّب، ومن أحبِّ هؤلاء الفلاحين إليه كان عبد الواهب، الأرمل لم تترك له زوجه إلا ابنة تنوس ما بين الطفولة والبنوتة، ولما لم يستطع الأب الزواج بعد وفاة المرحومة، فقد اكتفى بالبنت تسليه، وتملأ حياته. كانت ترجوه اصطحابها حين يحمل القنَّب إلى الفرن، فيصحبها، ولم لا، وليس لديه صديق يصحبه في رحلته الطويلة من بيت سحم إلى المدينة، وليس لديها من يسليها، ويعتني بها، ويحميها إن تركها في الضيعة.

كان أبو فاروق يراقب نموها شهراً بعد شهر، ولم تكن تستطيع رؤية وجهه المغطى دائماً بالكوفية والطاقية، فبعد وقفة الساعات الطويلة وراء الفرن لم يكن يستطيع احتمال برد أيام الصيف الحارة.

كان العالم بارداً، كل العالم بارد ما عدا حفرة الفرن. كان العالم بارداً بشمسه وقيظه، فكان يحتال على هذا البرد

بالكوفية الثقيلة يتلثم بها فيحتمي من برد العالم.

كان أبو فاروق يراقبها.. ويعرف أنهما جائعان بعد رحلة تطول منذ منتصف الليلة السابقة وحتى الظهر يحملان القنّب على الطنبر، ويحلمان بالوجبة المجانية يقدمها لهما أبو فاروق. ولم يخيِّب الرجل ظنهما أبداً، فكان يقدم لهما دائماً عدة أرغفة كبيرة انتزعت لتوها من الفرن، فيحملها عبد الواهب ويعدو إلى حيث معصرة الزيت القريبة، ويقدمها لصاحب المعصرة دون كلام، وما كان لصاحب المعصرة أن يرفض أو يعتذر، فهذه الزكاة حق لجميع الطالبين، وما كان لصاحب الزيتون أن يرفض أو يعتذر، بل كان ينتظر من يقدم له هذه الزكاة التي ستحمي جرار الزيت من الكسر، والزيت من الفساد، وأشجار الزيتون من الدودة.

يأخذ صاحب المعصرة الأرغفة، فيغطس بعضها في الزيت الجديد ما يزال يحمل بعض المرارة والكثير من رائحة الزيتون اللذين سيختفيان بعد شهور الخزن، ولكن من سينتظر هذه الشهور إلى أن تختفي المرارة والرائحة! يأخذ عبد الواهب الأرغفة المغطسة بالزيت، فيحملها على الأرغفة الجافة، ويعدو بها إلى الفرن حيث يرشان عليها الكثير من الملح المكوم في الأكياس في الفرن، ويأكلان وجبتهما التي سيتغنيان بها حتى الأسبوع القادم حيث القدمة التالية والقنّب الجديد.

ولكن أبو فاروق الملثم فلا يمكن معرفة عمره كان يراقبها، وكان يلاحظ نتوء الخوختين المتمردتين تحت الثوب

الطفلي، وهكذا وبعد رغيفين مغطسين بالزيت ومرشوشين بالملح الخشن تقدم إلى عبد الواهب يطلب يد ابنته هدية على سنة الله ورسوله، ويفتح عبد الواهب عينيه الحولاوين إلى أقصاهما غير مصدق: أهناك من يفكر بهدية كامرأة؟ أهناك من يستطيع تجاوز سنواتها الإحدى عشرة وقراءة المرأة فيها و.. من؟ أبو فاروق.. صاحب الفرن.. انتقلت هدية إلى البيت وراء الفرن فلم يكن من عازل بين الفرن والبيت إلا باب صغير منه ينسل إلى البيت حيث الماء الساخن يستحم ويتغدى، وتمسد له كتفيه وظهره بعد تعب يوم طويل وراء حفرة الفرن، وينجبان الأولاد.

استند بظهره إلى المقعد، ورمى الملف على المكتب في انزعاج خفيف: ما هذا.. أي سيرة هذه.. إلى أين يريدون الوصول. وما هذه الحكاية المملولة عن فران، ومورد قنب فقير، وفتاة تزوج لرجل لم تر وجهه من قبل، فاللثام الواقي من البرد حاجز بينه وبين الناس.. أي سيرة هذه..

و.. طلب الرقم المثبت على أعلى الملف يحتج على هذه البلادة والبلدية في كتابة سيرة يجب أن تهز، فإذا بها قطعة من الملل المكرور.

أنصت الآخر على الجانب الآخر من الهاتف ملياً في صبر:

-أفهم من ذلك أن هذا الجانب من السيرة لم يعجبك.

- ولن يعجب أحداً في العالم.

- حسن.. غير مهم. أقترح أن تهمله.. ضعه جانباً، فربما

هذا الجانب البلدي كما سميته لا ينسجم مع مزاجك. ما رأيك في وضعه جانباً والاستراحة قليلاً لتكمله حين يعتدل مزاجك، أو أن تشغل نفسك بقراءة الملف الآخر، ففيه مقترح آخر وبداية أخرى و.. نحن في انتظار تعليقك.

وضع سماعة الهاتف في مرقدها. تناول الملف الثاني وقرأ العنوان

لعنة الجمال

أمسك بالصفحة الأولى

كان فتى جميلاً حتى لتعشقه أخته كما تقول الحكايات، وكان أميراً إذ لا يجب أن يكون الجمال بائساً، فالبؤس قاتل للجمال، ويقال إنه كان ابناً لملك العجم، والبعض يقول إنه ابن لملك الهند، وآخرون يجزمون، بل يؤكدون بأنه كان ابناً لملك الروم.

شبَّ، فأدرك تأثير حسنه، وسرَّه الأمر، فصار يستمتع بالنساء يتخلين عن عزتهن وشموخهن، فيرتمين عند أقدامه، و.. .. .. اشتهر الأمر في المملكة، بل طار صيته ليصل إلى أكثر من مملكة مجاورة، ثم صار التحدي الدائم للنساء يسمعن بحسنه، ويعرفن أنَّ امرأة لم تستطع نيل حظوة لديه أبداً، ويقال إنّ أكثر من امرأة انتهت بالجنون، أو الموت قهراً أن لم تنل حظوة لديه أبداً، ولكن واحدة منهن فقط، استطاعت.. ..

كانت تؤمن برسالة أن هذا الحسن لا يجب أن يموت بموت

هذا الفتى المتكبر على النساء، كانت تؤمن بأنها من يجب أن تنقل هذا الحسن للأجيال القادمة، للبشرية.. كانت تريد لكل من يأتي بعدها أن يقول: هذا الحسن.. ابن الجورية. وكان اسم المرأة الجورية.

سألت، حامت، ولكن الفتى الجميل كان في شغل شاغل عنها وعن غيرها من النساء، فلقد عرف حسنه، فأصرَّ على ألا يبتذله بالنساء، أصرَّ على أن يظل المشتهى المستحيل، وقمر الليل لا ينال.. ولكنها أصرَّت، والنساء إذا ما أردن الوصول إلى أمر، فمن الصعب حرفهن عما أردن.

استعانت بالمكر الطويل.. فهي لم تحتكّ به، لم تُرهِ وجهها أبداً، لم تماشِهِ في طريق، أو تجالسه في عشاء، أو تشاركه في حفل طرب، كانت الملاك أو الشيطان المراقب من بعيد. كانت تفكر، وتفكر، فلا بد لهذه القلعة من الرضا عن النفس من دهليز خفي، لا بد لهذا السور المصمت من ثغرة ضعيفة خفية، و.. .. أخيراً وجدت الدهليز.. إنه الأخ الأكبر الذي لم يكن يشبه صاحبنا في شيء إلا في انتمائهما للأبوين نفسهما أما ما عدا ذلك، فلا، فالأنف النحيل كمرآة يقابله أنف غليظ كقطعة من يقطين، والعينات البارقتان كنجمتين، يقابلهما عينان ضيقتان ضائعتان بين الأجفان والوجنات و.. .. كانا الصورة ونقيضها، النهار والليل، الحياة والموت.. الجمال هدية الله إلى بني البشر و.. .. فلنقل الإنسان قبل أن يعرف ما الجمال.. ولكنها سعدت حين رأته معه، سعدت حين عرفت أنه أخوه، سعدت حين اكتشفت فيه

الثغرة التي ستنفذ منها إلى من لم تمسّه امرأة من قبل.

تعرضت للأخ الأكبر، فعشقها، طلب إليها الزواج، فقبلت وبذا صارت قريبة من قمرها، ولكنها حافظت على تجاهله، كانت تراه، وتغضي فما هو من يلفت نظرها، كانت تسمعه وتشيح، فليست ممن يغريهن أمثاله. كانت تجالسه، وتلتفت عنه إلى زوجها بكامل جسدها وروحها. كانت تعرف أن من اعتاد أن يكون المركز لا يستطيع أن يعيش مع التجاهل.. كانت تريد جذبه إليها بتجاهله، وهذه حيلة قديمة في طراد الرجال والنساء، ولكنه كان أكثر استغراقاً في جماله من أن تجذبه حيلة ساذجة كهذه، وكانت.. .. تتمزق. ترى عينيه الدعجاوين خلسة، فتحترق، وترى خاتم سليمان في فمه وهو يثرثر مع أمه، فتبكي وردة القلب في صمت، وترى ضفائره المسروقة من الليل فتتشهى الموت. ولكنها ظلت محافظة على صمتها في انتظار أن ينهار جدار الثلج.. ولكن الجدار لم ينهر..

وبعد أسابيع اتفق الأخوان على رحلة للاستجمام والصيد، فاصطحبا ما يلزمهما، وأرسلا العبيد إلى البستان الملكي يعدّونه.. علمت المرأة بذلك، فسبقتهما إلى البستان، حيث تنكرت بزي عبد، ورشت العبيد فاختلطت بهم. وشاركتهم الخدمة، وحين وصل الأخوان لم يريا المرأة المتنكرة بين العبيد والخدم، فالعبيد والخدم لا نراهم عادة. أنت تمر بهم، تأمرهم. تتقبل خدمتهم، ولكنك لا تراهم، وكانت قد أعدت أعشاباً أضافتها إلى الشراب. فسكر الجميع وداخوا بمن فيهم الخدم.

وهكذا خلا لها الجو كاملاً، فانقضّت على العاشق معذب النساء فأشبعت كل شهوات النساء اللواتي متن على صهد ناره، انقضَّت عليه، فروت عطش المئات من النساء، والشهور من الانتظار مع زوج لم تحبه.. ولكنها لم تكتف بهذا.

قالت: أمّا وقد نلت منه ما لم تنله امرأة من قبل، وكنت الأولى. فسأكون الأخيرة.. جاءت بسكين حادة، فجبَّته، وتركته ينزف دماء عذريته، واختفت..

بعد زمن أيقظه النزيف، وأيقظ صراخه عبداً لم يشرب الكثير، فأيقظ الآخرين مرعوباً أن رأى سيده ينزف، وظنه يموت.

قطبوا جراحه، وحقق الأخ مع العبيد، فعرف حكاية العبد المدسوس الذي اختفى، وحين اكتشفوا اختفاء المرأة أيضاً من القصر والمدينة تجمعت الخيوط، وعرفوا الخبيء من حكايتها من جاريتها. أما هو، فقد قهره الحزن والخجل، فهجر المملكة، وانطلق يجوب البلاد، ولكن قدره - لعنته، الجمال كان يلاحقه، ففي كل مدينة يدخلها كان يرى النساء يحمن حوله كالفراش، ولكنه لم يعد الفتى المدلل كما كان، بل صار الفتى الخجول الخائف، الهارب.

أمعنَّ في ملاحقته فازداد عذاباً. أمعنَّ في التعرض له فازداد انغلاقاً وخوفاً منهن وأخيراً لم يجد خلاصاً من عذابه إلا الهرب منهن إلى الخمار يحتمي به من عيون النساء.

تخمَّر، ولم يكن خماره لثاماً كلثام الآخرين، به يخفون نصف الوجه، بل كان كيساً يلبس في الرأس، فلا يبدي سوى العينين، والفم يأكل به. طال به التجوال، وطال الخوف من العالم، فقرر الحج، وحين قرر الحج كان لا بد له من المرور بالشام، وحين مر بالشام كانت الشام مدينة صغيرة محاطة بالبساتين والأسوار تغلق مع مقدم الليل، وكان من حظه أن وصل المدينة، فوجد الليل قد سبقه بالوصول وإغلاق الأبواب. نام في بستان قريب من المدينة على أمل دخولها مع إشراقة الشمس، ولكن تعب السفر، وظل الشجر وعذوبة الهواء جعلته يطيل النوم، فلا يفيق إلا على صوتها تشهق..

كانت ابنة صاحب البستان، وكانت قد بكرت إلى البستان على عادتها لا تتوقع أن ترى فيه غريباً، وحين رأته لم تتوقع أن يكون هو، وحين كان هو لم تتوقع أن يكون على ذلك الحسن، فشهقت.

عرف أنه قد وقع في المأزق ثانية، ولكنه أسرع إلى الخمار يتخمر به فصرخت الجابية وكان هذا اسمها: أنت إنس أم جن؟

وتابعت وهي تراه يلملم ثيابه: ولكن هذا الحسن لا يمكن أن يكون لإنس. قال: الله يخلق ما يشاء.. وابتعد، ولكنه لم يستطع الابتعاد طويلاً، فلقد تيمَّها، وحين رأته يبتعد يكاد يفارق البستان حزنت، فلقد عرفت أنه سيمضي، وأنه إن مضى فلن يندمل جرح القلب الذي انفتح، فصرخت بحراس المدينة، وأعلنت أنه تحرش بها، وهاجمها، فصدَّته، وكان في عرف المدينة آنذاك

أن من اشتكت منه امرأة لتحرشه بها ومهاجمتها وكان عزياً أن يصبح عبداً لها سبع سنوات، وإن كان متزوجاً فعلى زوجته أن تدافع عنه أمام القضاء، فإن أحسنت الدفاع برئ. لذلك ندر أن ترى في المدينة عزياً. فكثير من الزوجات ممن كرهن أزواجهن كن يعمدن إلى رشوة امرأة ما فتدعي على زوجها بالتحرش بها، ولا تدافع، أو تتعمد عدم إحسان الدفاع عن زوجها، فيصبح عبداً للمدعية لسبع سنوات تتخلص فيها الزوجة منه.

و.. .. صار صاحب الخمار كما صار يدعى عبداً لها، وعرضت عليه الحل.. يصبح زوجاً لها، فتعفيه من العبودية، ولكنه خجل من أن يعترف لها بما فعلت به الأخرى. و.. .. صار عبداً لها. أمرته بكشف القناع، والعبد لا يملك المخالفة، فكشفه، فتيَّم النساء، وصرن يترددن على البستان لا يردن إلا أن يتأملن هذا الحسن غير الأرضي، ولكن واحدة منهن لم تستطع أن تخمِّن أنه صورة بلا روح، وجسد بلا دفء، وتكررت المأساة الأولى، الماء قريب والحسن معروض، ولكن الأيدي كلما اقتربت اصطدمت بالسطح الأملس كمرآة.

كان يموت في كل يوم مئة ميتة، رجل ككل الرجال، الرغبة، والجسد، والدفء والحب، ولكن المعبد مهجور. انتقمت منه تلك المرأة وتركته يحترق كما أحرق قلوب نساء المملكة. يراهن يتحججن بزيارة البستان، ويعرف بأنهن ما يردن إلا الطواف حول المعبد المهجور، وفهمت الجابية أنه سيطير من يدها إن لم تتزوجه، فأصرت.. وأصر على الرفض و.. تهامس النساء

حين رأين رفضه وتمنّعه بأنه ربما كان امرأة متنكرة، فأمرته الجابية بتعزيل مجرى النهر في البستان، فتعرى حتى الوسط يعزّل النهر، فانكشف شعر جسده وعضلاته المفتولة، ورجولته المسجونة، فزدن تعلقاً به. قالت الجابية:

-لا أفهم. لم لا تريد الزواج مني.

قال: للزواج مهر لا أملكه.

قالت: لو ملكته، أفتقبل الزواج مني.

قال: ليتني أملكه.

قالت: وأنا قبلت أمنيتك. مهرك تعزيل النهر، عزّله أصبح زوجتك.

وتورط ثانية، فها هو يلتزم.. وأمعن في تعزيل النهر. كانت تفهم تعزيل النهر رفع بعض الحجارة وأغصان الشجر اليابس وفتيت الزمن، وكان يفهم تعزيل النهر تنظيفه من منبعه وحتى ضياعه في سراديب الليل، من كل حصاة وورقة شجر، وصبرت. قالت: سينظف النهر، وعندئذ سيكون مجبراً على تنفيذ وعده.. ونظّف النهر. نظّفه حتى صارت قطرة الماء الواحدة تنساب مرتاحة من منبعها في بردى، وحتى غيابها في متاهات المدينة المعتمة.

في هذه الأثناء عمدت الفتيات الأخريات، النساء المنتظرات إلى بناء بيوت لهن قريبة من البستان، بيوت لا يردن منها إلا رؤية ذي الخمار في عريه الأعلى ينظف النهر، فيكشف عن الجسد الجميل، والوجه الرباني. ورغم أن أحداً لم يجرؤ على بناء بيت

خارج سور المدينة من قبل إلا أنهن جرؤن، وتكاثرت البيوت، وكان لا بد لها من ماء، فسألنه الماء، فشقَّ لهن من النهر النظيف أقنية سرية تتسرب تحت الأرض، قنوات تحمل الماء، وتحمل الانتظار، وكان النهر لا يكفي لكل هذه البيوت فأنشأ لكل بيت طالعاً تتسرب منه المياه، أو تمنع، وتدفق الماء إلى البيوت، فامتلأت البحرات، وسقت البحرات أحواض البنفسج، والخبازى، وشكرية خانم، وعرفن أنه يحب روائح الكباد والياسمين، فقد كانت تذكره بالأرض التي هرب منها، فانتشر الياسمين، والكباد والليمون، والدراق الزهري في الباحات، وعرفن أنه يهوى الهواء الغربي، فأنشأن الغرف العلوية لاستقبال هواء الصباح من الغرب، وعرفن أنه كان يحب شمس الصباح، فأنشأن المشارق ينتظرنه فيها ليستمتع معهن بشمس الصباح.

تكاثرت البيوت، وامتلأت زهراً، وانتظاراً، وامتلأت عشقاً مستحيلاً، فالجابية تنتظر، والنساء ينتظرن، ولكن التعزيل وبناء سور النهر، وأقنية العتمة كان سينتهي، والحارة ستنشأ، وعليه أن يفي بوعده للجابية التي كانت جبلاً من صبر، فهي تعرف أنها لا تملك غيره.

انتهت السنوات السبع، وما إن أعلن القاضي حريته حتى كن جميعاً بالانتظار ليتقدمن بشكاواهن يطلبن عبوديته.. وقالت له الجابية: تزوجني فأدافع عنك. ولكن. كيف يتزوجها، وهو من لا يملك الزواج، فرفض، ولما رفض، حكم القاضي بعبوديته للنساء الأخريات، وكان عليه أن يبدأ العذاب من جديد، تعزيل

النهر، تنظيف الماء، وكن يدعونه إلى الكباد، فيخاف الكباد، ويدعونه إلى الياسمين، فيذعره الياسمين، وكانت السن تتقدم بهن، وهن يحترقن، وكان يحترق، وكانت النار الذابلة فيه تزيده حسناً، وتزيدهن احتراقاً، وأخيراً كادت السنوات السبع أن تنقضي، وكان عليهن أن يصنعن شيئاً قبل أن يهرب بحريته.

وأخيراً قررت ثلاث جريئات منهن أن يصنعن ما صنعت المنتقمة الأولى، فأسكرنه، وهاجمنه ليكتشفن لخيبتهن.. .. .. أن المعبد خال، والقمر بارد.. والسراج دون زيت. وصرخن من الغضب: أربعة عشر عاماً تضيع وراء ثلج لم يصمد أمام الشمس، وفي لحظة جنون خنقنه، ثم تحلقن من حوله يندبن حظهن، ولكن حين جاء الصباح، وأدركن فعلتهن، ورأين حسنه الميت أمامهن اختنقن بالغيظ، والحزن، وخيبة الأمل.

جاءت النسوة الأخريات، نسوة الكباد والياسمين، نسوة البحرات والمشارق، نسوة الياسمين في الإيوانات، جئن يستكشفن تأخره وتأخرهن، فرأين الموتى قهراً، فَنُحن، وبكين، ولم يستطعن استكشاف الحقيقة، فقتلهن الأمل الخائب، وحين وصلت الجابية، ورأتهن مطروحات إلى جانب النهر غلبها الحنين، فعانقت منه الجسد الميت، ولكن البرودة المنبعثة من جسد ميت منذ سنين، منذ أن غادر بلاده هارباً من الفضيحة والذل، هذه البرودة انتقلت إليها، فأمرضتها.

تحاملت على نفسها تعاتب النار المنتظرة منذ أربعة عشر عاماً، فتحولت إلى مدى ومباضع تمزق سر القلب، تحاملت على

نفسها وجرّت قدميها تريد البيت القديم ترتاح فيه وتمرض وعلى الطريق لقيت القاضي فقالت له: الجميع موتى في البستان.

وشهق في رعب: لماذا؟ فقد كان فيهن ابنته.

لم تجب، وأكملت مسيرتها تتحامل متسندة على النهر المرفوع عن الأرض بأشواق التأجيل، وخوف الياسمين. أكملت مسيرتها تتسند على الطوالع، طالعاً، فطالعاً. أكملت مسيرتها لا تشم الكباد ولا الياسمين، فالحزن والخيبة وانطفاء العمر قتل فيها الحواس جميعاً.

كانت تمشي وتحس الأقدام من تحتها تضعف، كانت تمشي وتحس القوة منها تتسرب، ولكن كان عليها أن تصل إلى البيت القديم.

تهاوت، قامت، سقطت، تحاملت، وأخيراً وصلت إلى الباب الغربي من المدينة. أرادت الدخول، فذكرت ذا الخمار، أرادت الدخول، فذكرت الحسن غير الأرضي الذي مرَّ في حياة المدينة كشهاب من رماد، انطلقت موجة دافئة من الحزن والأسى، والمرارة في عمق القلب، فوقعت، و.. .. في المكان الذي وقعت فيه أقاموا لها قبراً سموه قبر الجابية. أما القاضي فوصل إلى البستان، فرأى الحسن غير الأرضي الحزين. أمر بدفنه، ودفنهن جميعاً وسريعاً ليكتم السر، ولكن وفي اللحظة نفسها التي كانوا يدلون فيها بذي الخمار إلى قبره وصلت امرأة معها صبي لم يتفتق حسنه بعد، فما زال دون البلوغ.. نظرت إلى الميت، ثم إلى الصبي،

وشهقت، فقد عرفت أنها لم تستطع إدراكه حياً، أما الصبي الذي لم يعرف من أمه إلا القوية لا ترضخها صعوبة ولا توقفها استحالة، فقد أذعره رؤية دموع من صخر لم تذرف.. .. من قبل.

انتهى الملف.. وضع راضي الملف على المكتب..

انتهى الملف.. هه؟.. لعبة قديمة، لعبة التشويق هذه، لعبة المسلسلات والحلقات تتوقف عند نقطة التشويق.. ولكن.. تنحنح.. حكاية ذي الخمار هذه جميلة.. ما الذي يقترح كاتب السيرة؟ أن يكون الجد الأول! - وأطلق ضحكة ساخرة - ولكنه كان مجبوباً، كان الجمال المحترق الحارق، ونسيت المرأة الأولى - الجورية، تلك التي اغتصبته، ونالت عذريته؟ ولكنه كان سكران، مخدراً، وهل يمكن للسكران أن يقرب امرأة، وضحك راضي في تسامح: دبرت نفسها. ألم تر كاتب السيرة ينهي الملف بالمرأة تصل ومعها صبي إلى ذي الخمار قبل دفنه..

أووف.. .. لم يدرك راضي أنه قد فقد الحياد الذي كان يتظاهر به وأنه أخذ في التورط في السيرة التي أراد أن يسلي نفسه بها، قلّب صور الفتيان أمامه، ثم صورته وصورة الجنرال سعيد صبيين. استند بظهره إلى المقعد حين سمع أزيز الكومبيوتر يعلن عن وصول رسالة إلكترونية. نظر إلى الشاشة في تسامح.. كان يعرف الرسالة دون أن يطلب إظهارها. ولكنه منسجماً مع اللعبة ضغط الزر ليرى ما توقعه تماماً، الفتى في الكنزة المخططة عرضانياً، وفقاعة هاي، ولكنها لم تكن هاي فقط هذه المرة، بل كانت هاي هذا أنا.. و.. قه قه قه.

كان مزاج راضي رائقاً فضحك، واستدار عن شاشة الكومبيوتر وما تزال البسمة تعوم على شفتيه.. هذا أنا.. من هو هذا الأنا؟ أأنا أنا؟ أم مرسل الرسالة هو الأنا..؟

عبس فجأة. راضي لا تدخل إلى هذه السفسطات. مزاجك لا يحتمل.. دفعة صغيرة وتعود إلى السوداوية، وانتظار هاتف تعرف أنه لن يرن.. ولكن.. انتهينا. أرجوك لا تعلق كثير آمال على هذا .. .. الهاتف. جرب أن تتسلى بهذه الفرصة أتيحت لك.. كتابة السيرة. ألم تسمع ما قال الجنرال سعيد.. لقد تخلص من الإمساك، ولم يعد بحاجة إلى الحبة الزرقاء.. أرأيت إلى مشيته؟

نظر إلى الملف أمامه. تمنى لو أرسلوا ملفات أخرى، ولكن. لا لن يرسلوا ملفات أخرى قبل الموافقة، أو الرفض، أو التعديل على الملفين الذين أرسلا إليك.

جر الملف الأول، ملف أبو فاروق..

10

حين رأت وجهه للمرة الأولى شهقت، ولم تتخيل أنها عاشت معه السنوات السبع الماضية دون أن ترى وجهه المرعوب من البرد.. كانت تعرف، وكان عبد الواهب قد حدثها أنه لا يجرؤ على كشف رأسه - وليس وجهه فقط - للهواء.. قال لها عبد الواهب وهو يهز رأسه بحكمة العارف: صدره محروق، رئتاه امتصتا النار. أفلم تلحظي ذلك؟ ولما هزت رأسها بالنفي. قال: أنت على حق، فأبو فاروق من أسرة معروفة بالصبر وعدم الشكوى.. ولكنه -تمتم- عرف ذلك من أبيه كان أبو فاروق قد تعرض لبصقة نار لا تخطر على البال. ولما سألت كيف. حدثها عن عاصفة هبَّت على حين غرة، وبلا سابق إنذار وكان يقف عند فتحة النار، فلم يأخذ حذره وكانت العاصفة قوية إذ ردَّت الدخان والنار عبر المدخنة، فالفرن، ففتحة النار - فتنهدت في خوف - وأكمل عبد الواهب: ولما لم يكن المسكين قد حسب حساباً لهذا، فقد امتصَّت رئتاه النار، فلم تعودا تحتملان النسيم والهواء البارد.

فقالت هدية: ووجهه. أنا لم أر وجهه أبداً.

قال يهز رأسه في أسف: من حسن حظك أن لم تريه.

ولما كان الحزن والدهشة قد أخرساها، فلم تسأل عن السبب، فتابع بعد أن تنهد: صار مشوهاً.. لا جفون، ولا أهداب ولا شارب ولا خدود إلا تجاعيد ما بعد الحريق.

وأخيراً نطقت: المسكين.

فقال: ووجد الحماية من الشفقة التي يشمئز منها بهذا الخمار.

انتبه راضي إلى أن الكاتب استخدم صواباً أو خطأً كلمة الخمار، أفتراه يريد إقامة صلة ما بين أبو فاروق، والرجل ذي الخمار الذي جبّته امرأة، وقتلته امرأة.

صمتا، هدية وعبد الواهب، وأخيراً قالت: هـه.. الحمد لله. لقد أنجبت منه صبيين كفلقات القمر.

فأطلق آهة سخرية: لا.. ليسا كأبيهما قبل الحريق.

شهقت حين رأت وجهه للمرة الأولى بعد سبع سنوات من زواج، وصبيين كقمرين، وسنتين من حمل القنب إليه، وأكل الأرغفة الساخنة الغارقة بالزيت والمرشوشة بالملح.

شهقت، فقد كان وجهاً خارج كل جمال عرفته، وعلى أي حال، فقد كان قليلاً ما رأته من جمال.

كانت الحرب نعمة عليهما، فقد حملت إليه عجوزاً تركية تدعي المعرفة بالطب، فخلا إليها، وشكا ما يعاني من تشوهات

وضيق نَفَس، فأعطته مراهم وأعشاباً عطرية، وطلبت إليه الادِّهان بالمراهم وشرب مغليّ الأعشاب كل صباح قبل الطعام، فهدأ الخفقان في القلب، وخفَّ الخوف من البرد والهواء. وحين كان يتحسس وجهه تحت اللثام وبعد الادِّهان بالمراهم كان يحس نعومة جديدة تسري إلى الوجه مكان الغضون والتجاعيد، ولكنها ربما العادة، وربما الخوف ما منعه من مجابهة التحولات الجديدة، وكان يمكن لجماله الجديد أن يظلَّ خبيئاً تحت الخمار لولا أن الحرب حميت والحكومة صادرت القمح والشعير والحبوب. وكل ما يمكن للوحش المسمى بالجيش أن يستهلكه، وكان الوحش بحاجة إلى الخبز، وكان خير من يعدُّ هذا الخبز ولا يسرقه أبو فاروق الذي كان صديقاً لضابط الثكنة، وتم الاتفاق على الحصص، وأخذت الخيرات تهلُّ، وأخذت النقود تجري بين يديه، نقود لم يعرف فيما مضى من استخدام لها إلا تحويلها إلى طعام أو تخزينها في صفائح يدفنها حتى الحاجة لو لم يطرق الباب عليه منافسه الأكبر المعلم عبد الرحيم، ولما استقبله مندهشاً لم يتقاعس عبد الرحيم ولم يكثر من المقدمات بل قال: أغلقت الفرن، فلا قمح ولا دقيق.

ولم يكن في هذا من مفاجأة، فمعظم الأفران أغلقت، ولكن المفاجأة كانت في أن عبد الرحيم أعلن أنه يريد العمل عنده، وبالأجر الذي يرتضيه أبو فاروق.

دخل أبو فاروق جنة الراحة والجلوس أمام باب الفرن يدخن الأركيلة للمرة الأولى في حياته، فصحيح أنه كان صاحب

الفرن، ولكن الصحيح أيضاً أنه كان العامل الوحيد في الفرن، فهو من يعجن، وهو من يقرّص، وهو من يخبز، وهو من يبيع، أما الآن فقد صار عمله المساعدة ليلاً في العجن، ونهاراً في البيع. أما العمل الشاق كله، وخاصة حفرة جهنم، فقد صارت من نصيب عبد الرحيم.

بعد أسابيع من راحة صار يحلو لأبو فاروق تلمس شاربيه الناميين تحت اللثام، ولحيته الجديدة، وأهدابه الجديدة، وحاجبيه الجديدين، وكان يهمس في فرح: هذه العجوز كنز.. ليتني عرفتها من قبل. وأخيراً قالت له المرآة: إن كل عقابيل الحريق قد زالت، فرفع اللثام، وكانت دهشته من عودة الحياة إلى وجهه أكبر من رؤيته لجماله الجديد.

أما هدية، فقد رأت، وشهقت.

-أعوذ بالله: أيكون على هذا الجمال، ولم أره. أيكون على هذا الحسن ولم يكشف عنه أمامي أبداً.

وشتمت أباها في سرها، هذا الذي خدعها بحديث الحريق عن اكتشاف هذا الزوج الفاتن الذي احتضنته لسنوات سبع، ولم تره.

كانت تأكل برؤوس شفاهها، وترمقه في نزق، وتضطرب كمراهقة، وكانت رغم طفليها الصبيين مراهقة تضطرب، وهي ترى العينين الدعجاوين، المكحولتين بكحل رباني، والوجنتين الحمراوين كوجنتي صبي لم تريا الشمس، وكانتا لم تريا

الشمس فعلاً، والأنف الصقيل، والفم الصغير كخاتم سليمان المتخفي وراء اللحية الخفيفة المائجة بين الصهبة والحمرة.

عشقته فجأة، ولم تعرف العشق من قبل، هي تعرف أنها زوجته، وتعرف أنها أنجبت منه صبيين، كيف أنجبتهما، لا تعرف. كانت ترى بطنها تنتفخ، وكانت تعرف من الجارات أن هذا هو الحَبَل، وكن يسردن عليها الحكايات عن الوحام، وأوجاع الولادة، ثم فرح الولادة، وقد مرت بكل هذه التجارب، ولكنه كان ملثماً تعرف أنه مرعوب من برد مفاجئ.

كانت نادراً ما تخرج من البيت، ولولا الجارات يزرنها يقترضن قبضة خميرة، أو بعض دقيق تختلسه لكسب ودّهن وزياراتهن لما رأت أحداً منذ توفي عبد الواهب حين انقلب به الطنبر وهو يحمل القنّب إلى الفرن.

كان كريماً، فلم ينقص البيت يوماً شيء، وغرفة المونة، تشهد بجرار زيتها، وصفائح سمنها، وأكياس برغلها، وصفائح القاورما ومشاكيك الرمان وجرار الجوز.. كان كريماً، وكانوا يحملون إليه كل ما يحتاج إليه في الفرن، فيدفع ثمنه، ولم يكن في حاجة إلى التجوال في الأسواق يشتري وينتقي.

بيت المونة هو الشاهد على حسن حال بيت ما من عدمه، وكان بيت المونة لديها شاهداً على أن أبو فاروق كان الكرم الصافي، لم تتوحم يوماً على شيء، وتبحث عنه خارج بيت المونة، فقد كان في بيت المونة كل شيء. سوق مصغرة. البرتقال المكوم

في موسم البرتقال، والبطيخ المركون في الزاوية في موسم البطيخ، والتفاح.. ولكن.. أعوذ بالله. الآن فقط تكتشف أنها كانت تعيش مع كل هذا الحسن ولم تره من قبل.

كانت ترمقه مخالسة، ويحمرُّ وجهها. أكل هذا الحسن أعوذ بالله كان لي؟ في أحضاني أنا؟ كانت حين تذكر الرجال تذكر رجال بيت سحم بلحاهم المهوشة وضفائرهم المزيتة، وأحياناً بشعورهم الحليقة إن كانوا قد تعلموا الحلاقة الصفرية في العسكرية، كانت حين تذكر الرجال تذكر أباها في شيخوخته المبكرة، وبؤسه، وسعادته حين يترك كل شيء ويجري إلى المسجد ليصلي جماعة، فقد كان الشيخ قد بشّره بأن من صلى الصلوات الخمس وراء إمام المسجد لأربعين يوماً متتالية فقد برئ من النار، ولكن المسكين لم يستطع أن يضبطها لأسبوع كامل مرة واحدة، فهناك دائماً ما يخرق هذا الانتظام، وظلت البراءة من النار حلماً يعدو وراءه ولا يدركه.. .. ولكن أبو فاروق شيء آخر. كيف عاشت في كنفه هذه السنوات، ولم تدرك حسنه.. صحيح أنه لم يضربها يوماً، ولم يؤذها بكلمة يوماً، وأن حفرة جهنم علمته الصمت، ولكن.. أن يكون على هذا الجمال.. .. الملائكي.

بعد رفع الغداء ومضي أبو فاروق، وخلوتها بنفسها كانت تفكر: أتراه الحظ الطيب ما أخرَّ اكتشافها لجماله حتى سن نضجها، فلو اعتادت جماله منذ اليوم الأول لفقدها طفولتها لاعتادت هذا الجمال.. ولو أنها عاشت العمر، ولم يكلفه ضابط

الثكنة بإعداد الخبز لعسكر الثكنة فيشغّل غيره، ويرتاح، ويكشف حسنه، أفكانت تعيش هذه السعادة التي تعيشها الآن.

أنزل راضي الملف يفكر: أيمكن لهذا أن يكون منطقياً. امرأة أمية لم تلق الكثير من الناس، وتعيش في كنف زوج لسبع سنوات تنجب فيها صبيين ثم لا ترى وجهه...؟ حسن. لقد قدَّم كاتب الفصل ما يقارب الإقناع في أن عاصفة النار قد جعلت رئتيه لا تحتملان الهواء والنسيم والريح والبرد، وأن حريق وجهه قد جعله ينزوي عن الناس. ولكن أن ينكشف عن هذا الحسن، فتكتشف زوجه أنها تعشقه. هه.. .. على أي حال دعنا نكمل. (كان راضي قد تورط في الحكاية).

كانت المرأة تغني وهي تسقي بضع أصص الخبيزة والعطرة المنتشرة حول الباحة. وما كان لها بالغناء عادة، ولكن شيئاً قاهراً لا تستطيع تفسيره كان يقسرها على الغناء. لم تغني؟ ولمن تغني؟ وما هذه الكلمات العادية عن جمال زهر الخبازى ودهونة وخشونة ورق الدادا. كانت تدندن مغنية تختلق كلمات لا تعرف لم تختلقها، فجأة صارت تشبّه شفتيه ببتلات زهر الخبازى الحمر.. ما الذي جعلها تختار التشبيه والتشبيه بالورد للإشارة إلى شفتي المحبوب الذي ابتعد عنها بمجرد أن كشف وجهه، وما الذي جعلها تشبّه خديه بظلال الغسق على سطح بحرة البيت، .. .. ثم مضى إلى الفرن وتركها للوحدة حالما أراها أي حسن غير أرضي يملك. أي قدر هذا الذي أبعد عنها زهرات الدادا المتغلغلة على وجنتيه بين أعشاب اللحية الصهباء..

كانت تقول شعراً، وما كانت تعرف أنها كانت تقول الشعر، كانت تغني كشحرور يغني للصبح، وما يعرف أنه يغني ولكنّ وجداً كان يحملها على راحتيه، فينشيها، ويرقصها، ويحيلها إلى سحابة ليست سماوية، بل سحابة تميس على علو بضعة أصابع من الأرض. أكانت ترقص؟ لا تعرف. أكانت تغني؟ لا تعرف. أكانت تقول الشعر؟ لا تعرف. ولكنها كانت كل هذا ولا شك ولو ملكت من تخاطبه، أو من يستغرب سلوكها غير المعتاد من امرأة مثلها، في ظروفها البائسة لسألت في سذاجة: أهذا هو الحب إذن؟

كانت تنحدر من أجداد لم يرفعوا رؤوسهم عن تراب الحقل يوماً، ومن جدات لم يرين جسد رجل عار يوماً، بل كانوا يقعون على بعضهم كمن يأكل خبزاً بائتاً مؤدّماً في مجدرة بائتة. لم يكن الحب، ولا الوجد، ولا استبطان النفس ترفاً مما عرفوه يوماً، فقد كان الشغل الأسود يسرق كل لحظة يمكن أن يروا فيه سر الإله في صنعه للإنسان.

أراد راضي أن يضع الملف من يده، فقد شعر أن كاتب السيرة يبالغ. أراد أن يحتج، أن يهتف له حسب شروط العقد، ولكن شيئاً في الكتابة جعله يؤجل كل هذا. قال: لننتظر حتى نرى إلى أين يريد أن يصل بنا. فلاحة أمية ساذجة لم تشبع الطعام قبل زواجها تعيش مع رجل أمّي فران ملثم لثّمته النار الطافحة من فتحة الفرن، و.. .. يكشف وجهه، فترى حسنه وتحس أنها تعشقه. أهذا ممكن؟!

عاد إلى الملف ولكن السؤال جاء هذه المرة على يد محرر الفصل في المؤسسة: *العشق خاص بالمثقف؟ بالمتعلم؟ بالمتأمل..؟ على العكس. فمعظم العشاق المشهورين؛ روميو وجولييت كانا أميين أو كادا، قيس وليلى، عنتر وعبلة. ما علاقة الثقافة والاستبطان بجمرة القلب، وجوهر الروح. صحيح أن الرماد والغبار والبؤس يمكن أن يغلفها، ولكن. انفخ مرة واحدة على هذا الرماد.. انفخ لترى الجمرة تتقد.*

واتقدّت الجمرة.. كانت تريد أن تعبر الباب الصغير إليه في الفرن، ولكنها تعرف أن هذا فعل لا يجوز، وأن أبو فاروق لن يغفر لو فعلت. أرادت أن تراه مرة ثانية، مرة تتأكد إن كان فعلاً على هذا الجمال الذي فتنها، ولكن كيف تفعل وكل ما حولها يمنعها، فهناك الزبائن والعساكر، والعمال، وكل هؤلاء الذين يحرمون عليها الظهور بينهم.

شوق هائل، وحب عظيم، ولهفة حارقة أخذت تلهبها في انتظار أن تراه. كانت تريد أن تعول، أن تصرخ، أن ترجو، أن تفعل شيئاً لبلِّ ظمأ الروح، ولكن.. .. .. على الجانب الآخر من الجدار الطيني الفاصل بين البيت وبين الفرن.. كان أبو فاروق، وكانت تجربته الجديدة في اكتشاف أثر.. .. لشيء لم يعرفه من قبل.. الجمال.

كان ملاك الجوع يحوم فوق المدينة مثل طائر من رعب، وكانت المدينة ترزح تحت وطأة ظله الأسود، ولكن هدية أبداً لم تشعر بظل هذا الطائر، فقد كان بيت مونتها مشحوناً بما ينسيه

طريق بيتهم. أما هناك في الخارج، فقد كان الكثيرون يرزحون، ويركعون، أمام براثن الجائع بلا خجل.

عدّ أبو فاروق الأرغفة، ساعد في حمل الأقفاص الخشبية، في رصف الأرغفة على الطرحات تحمل على رؤوس الجند، في رصفها في العربات يجرها البغال. وكان صفان من البؤساء يواكب هذه الحمولة العزيزة فلا ينالهم منها إلا الروائح تحرك الحيوان القادر على القتل فيهم في سبيل رغيف لو ملكوا القتل، ولكن من يملك القتل، وقد ضعفوا عنه.

كانوا ينتظرون سقوط رغيف ما بمعجزة، تسرب كسرة، شفقة في عين جندي أو حارس، ولكن القسوة حولت هؤلاء الجنود الذين كانوا بالأمس فقراء إلى مخلوقات أخرى ليست تلك التي نجاملها، ونحييها، ونسامرها ونزاوجها.

وضع راضي الملف من يده: هه.. ها هو الكاتب يتحول إلى منفلوطي آخر.. ما علاقة هذا بالحديث عن أبو فاروق الذي اكتشفت زوجه على حين غرة حسنه فهامت به، ولا يفصلها عنه إلا الجدار الطيني. ما علاقة هذا بذاك.

لم يستطع هجر الملف، فقد كان فيه شيء سحري يجذبه إليه رغم العاطفانية المبتذلة.

في قلب هؤلاء البؤساء كانت نادرة. امرأة ترك لها زوجها طفلين، ومضى إلى الجندية لتكتشف أنها أرملة، أو تكاد مع طفلين وما تزال في العشرين، تمنّت الخلاص منهما بحملهما إلى

فاكتفت بدورها أم الأولاد.. .. ولزمن طويل كانت تكتفي بدور المراقب. تراه يصطحبهن إلى بيته عبر الباب الصغير الفاصل بين البيت وبين الفرن، فكانت تقدم الطعام، وتغلي الشاي، وتستحضر الفواكه من بيت المونة وتقوم بالواجب كاملاً.

في الصباح كانت تسخِّن الماء، وتحمل المنشفة والقبقاب إليهما. و.. .. كانت الوحيدة التي رضيت بدور السادنة في معبده ذاك، فبقيت، فالسدنة لا تمسُّهم حرائق المعابد والعابدين.

وضع الملف من يده في انتصار: من الواضح أن مؤسسة الإنشاء والترميم ليست كما تدعي.. لا.. هه.. إنها مثل كل مؤسسات البلد كلام كثير، وفعل قليل..

أسند ظهره إلى كرسيه: لقد انسقت مع كاتب الملف قليلاً.. نعم قليلاً.. ولكن.. حين يصل الأمر إلى تحول فران أمي إلى خليط من كازانوفا ودون جوان وهارون الرشيد معاً.. لا.. على الخيال حتى الخيال.. عليه أن يربط نفسه بالواقع بشكل ما. ثم.. كاتب هذا الملف لم يدَّعِ أنه يكتب فانتازيا، أو قصصاً سحرية، ولا.. حتى خيالاً علمياً.. إنه يقول إنه يكتب سيرة، وعلى السيرة أن تقنع بواقعيتها، ثم.. ما علاقة هذا الفران الكازانوفا بسيرتي.. الـ.. لا.. ليست خائبة لا.. ربما لم تكن كاملة السعادة، ولكنها لم تكن خائبة أبداً، و.. نظر إلى صورته ذات الهاي، ورفعها أمام عينيه، ثم رفع صورة الجنرال سعيد طفلاً في مذكراته، ثم إلى الصورة الجماعية، تمعن فيها جيداً.. تأملها بقوة كما لو كان يريد أن يستحييهم بقوة الإرادة، لماذا؟.. لماذا.. ما الممتع في

الجمال في الحيوان. أترى الشهوة المنبثقة منها قد وصلت إليه فتخطّت كل شيء.

كان الموكب قد عدا وراء العربة تحمل الخبز إلى الثكنة، فخلا الشارع إلا منهما رجل، وامرأة.. وجمال وجوع.

بعد أن مضى الجند والسائقون والحمالون والشحاذون قال ما سيقوله كثيراً فيما بعد، ولنساء كثيرات: جائعة؟

وهزت برأسها أن نعم. قال: ادخلي إلى الفرن.

كان النداء واضحاً، وكانت تعرف ما معنى: ادخلي إلى الفرن. فليست الدعوة دعوة إلى رغيف وطعام.. ولكنها دخلت.

صحيح أنها فيما بعد حملت معها أرغفة وطعاماً، ولكن ما حملته في روحها الريّا كان أكبر بكثير. كان ريّاً بعد عطش استمر سنين منذ رحيل الزوج إلى الترعة، وكان ريّاً مخلوطاً بأنها واحدة من سعيدات العمر أن لقيت وحظيت بمثل هذا الجميل.

مرت أيام الحرب، وكبرت أسطورة أبو فاروق محطم قلوب النساء.. فقد كان جماله المصباح الذي يحرق فراشات النساء المهجورات الفقيرات الجائعات إلى كل شيء. كان كالمصباح يدعو الفراشات إليه ولا يستقبلهن بناره إلا مرة واحدة يقترين، فيحترقن، ثم يختفين من حياته، فقد عرفن ألا فائدة من رجاء، أو بكاء، فالقلب الحجري لا يرق للفراشة المحترقة.. المرأة الوحيدة التي نجت من هذه القسوة كانت هدية التي أدركت منذ مرحلة مبكرة مصير النساء المحترقات بمصباح جمال أبو فاروق،

أهل زوجها لو كان له أهل، ولكن أهله كانوا قد ماتوا، أو رحلوا إلى مدن أخرى، بحثاً عن لقمة، تمنت لو تستعين بأهلها، ولكنهم كانوا راكعين تحت وطأة ملاك الجوع الحائم، والجوع يقتل أول ما يقتل النبيل من العواطف.

كانوا عذابها حتى لقد أنساها بكاؤهما فرحها بهما، ولكن.. كانت تقف في الزحام تراقب الخبز يحمل إلى العسكر في ثكنتهم..

فجأة لمحته. لمحت أبو فاروق. كان بلا لثام. لمحته، فشهقت لا تعرف لم شهقت. هل اشتهته؟ وهل يستطيع الجائع الشهوة؟ هل شعرت بفتنة هذا الجمال غير الأرضي الذي كان مختزناً لسنين وراء لثام يحمي من البرد، وما كان يحمي إلا جماله عن العيون؟

شهقت وتمنت لو أنها فتاة ولا أولاد لرمت نفسها تحت قدميه، ولكنها لم تكن تدرك أنها ما تزال الفتاة الجميلة، رغم الولدين، فقد كان الجوع والحرمان قد أبعداها عن نفسها.

اقتربت منه تدعي طلب رغيف، ولو نالت الرغيف لكان سعادة، ولكنها في الحق كانت قد نسيت الرغيف. كانت تريد التملي من هذا الوجه الجميل.

رآها، وهو من لم يقارب امرأة غير هدية، ولا رمق امرأة أخرى بنظرة سواها، وكيف له أن يرمق امرأة، وهو المحبوس وراء حفرة جهنم أو وراء لثام من صوف.

رآها، فتحرك حيوان ما كان له به عادة. أتراها من أراه

استحيائهم وبهدوء رآه.. شيء غريب في خلفية الصورة. ما هذا المستطيل الشاحب.. أهو.. ستار دكان معدني.. لا.. أحدّ النظر.. لم يستطع التأكد.. لم تكن الصورة من الصور الثابتة أمام خلفية سوداء أو خلفية من زهور مرسومة توحي بحديقة.. لا.. الصورة أخذت في الحارة ولكن.. ما هذا المستطيل؟!.

أخرج عدسة مكبرة من درج المكتب، سلطها على الصورة، وتأوه بهدوء.. كان المستطيل باص أبو حسين، وحين أمعن في التكبير، رأى ما كان أيوب قد كتب منذ قليل بالطبشور (يسقط أبو حسين).. ابتسم.. ولو كان لديه مرآة لرأى أن ابتسامته لم تكن ابتسامة.. كانت حزناً..

ما الذي أغراهم بكتابة هذه الجملة، وما الذي أغراهم بتخليدها بهذه الصورة.. .. ..

وضع الصورة على المكتب.. أغمض عينيه.

رأى البحرة الصغيرة، ورأى النافورة الصغيرة، ورأى سطح البحرة يتموج بقوة، فلقد قذف السطل فيه يريد ملأه.. ولكن لماذا كان يريد ملأه.. آه.. سمعها تقول: يلله، فغطس السطل في البحرة في قوة كانت تريد السطل لتكمل شطف الباحة.. آه.. امتلأ السطل، رفعه، وما كاد يضعه على جانب البحرة حتى أحس بقرصة قوية في ظاهر كفه.. التفت.. .. كانت أمية.. يلله يا كسلان. وكانت تضحك في ارتخاء، وكانت الشمس قد ألقت بكثير من الظلال على الباحة، كانت تضحك، وكانت غمازتان

لم يرهما من قبل تتراقصان على خديها.. يلله يا كسلان.. قلّب بصره في الباحة. كانت مساحة كبيرة فيها ما تزال جافة في حاجة إلى ماء وشطف.. يلله يا كسلان، وكان ظاهر كفه يؤلمه، ولكن لا.. ليس الألم. كان شيئاً جديداً إحساسه بالقرصة، إحساس هرب عن عالم الطفولة والقرص والعض وشدٌ الشعر.. لا.. إحساس جعله يرى الغمازتين والعينين اللامعتين، والخصلة المتدلية على الجبين، فالخدٌ في إهمال، فالضحكة الخضلة المبتلة المداعبة، المنادية، ووجد السطل يسقط ثانية في البحرة حين أفلته وأمسك بيدها يقرصها، فتطلق ضحكتها الرخوة، وتهرب حاملة السطل، ولكنه وقد أغراه هربها فيلحق بها يحاول قرصها، فتسكب عليه سطل الماء، وحين يتشعث شعره ويتحول إلى خصلات تغطي جبينه وبعض وجهه تأخذ في الضحك، ضحك أخرق ممتد لا عادة لها فيه.

وحين سيفكر في هذه الضحكة الخرقاء فيما بعد، يفكر فيها وهي تشير بإصبعها إليه مغيظة، ساخرة، مقهقهة في خرق تهتز بكامل جسدها، سيتساءل: أكان ضحكاً حقيقياً، أم كان بداية التحول في رؤيته لها، ورؤيتها له.. .. فيما بعد ستحدثه عن مقولة أمها الشهيرة: لا تأمني لذُكير ولو كان طول شُبير. ستحدثه وهي تحتضن رأسه على ذراعها مستلقيين تحت أشعة القمر عن رعبها ودهشتها لرؤية وجهه الأحمر العرقان، وشعره المرجل بالماء، وعينيه البنيتين اللتين احمرتا. ستقول: أعوذ بالله. كيف جرؤت.. من أين أتتك الجرأة. أيها الأزعر الصغير. ثم

ستمسك بأذنه في مداعبة سيستجيب لها بدس وجهه في إبطها، وستتابع: كنت أفكر: أنت مثل ابني.. ولكن.. لا.. ليس كابني فما بيننا لا يتجاوز السنوات الست.. ولكن..

انقض عليها بعد سكب السطل عليه، فهربت. طاردها فتزحلق، فازداد تبللاً بالماء، ولكنها وهي تعدو وهو يعدو خلفها سترى أن شكوكها التي كانت تعتلج في صدرها إن كان قد أدرك الرجال أم أنه ما يزال الصبي الغر يعابثها تتساقط حين تكتشف في ابتلال ثيابه أنه لا بد قد أدرك الرجال.

قالت وهي تضمه إليها: أنا المخطئة حين لم أنصت إلى نصيحة أمي: لا تأمني لذُكير، ولو كان طول شُبيرا!

❖ ❖ ❖

11

تم نقل ملفكم ورغباتكم إلى مديرية الواقعية السيرية. وذلك بناء على طلبكم، وستجدون في ملفنا هذا ما سيرضيكم. نرجو أن تتقدموا إلينا بكل ما يخطر لكم من ملاحظات واعتراضات، وستقوم المؤسسة بكامل جهدها بتلبية طلباتكم.

مع التحية والاحترام

مؤسسة الإنشاء والترميم.

كانت الرسالة والملف المرافق مفاجأة لراضي، فقد توقع غضبهم، والتوقف عن التعامل معه، إذ كانت رسالته إليهم غاضبة مستفزّة، ومستفّزة. أفرغ فيها وهو يعرف أنه يخاطب آلة لا تستطيع الرد في رسالته الإلكترونية غضباً كثيراً. غضباً كان - الآن أدرك فقط - يراكمه في صدره، غضب الهجر والخذلان والخيبة، والإحساس باللاجدوى. غضباً كان يريد فيه الردّ على من أحالوه على التقاعد المبكر.. وعلى أولئك الذين لم يعودوا يهتفون له محيين كل صباح، وعلى الجيران الذين صاروا يديرون وجوههم عنه حين يعبر بهم، فلا يسلّمون، وكانوا يسارعون إلى

فتح باب المصعد في احترام يقدمونه على أنفسهم في ركوب المصعد. وعلى الجيران الذين صاروا يسبقونه إلى رصف سياراتهم العتيقة المهترئة في الركن الظليل أمام البناية، وهم من كانوا لا يجرؤون على الوقوف فيه بأنفسهم، لا بسياراتهم.. غضب على.. على كل شيء، حتى على مروة وخلدون وناديه الذين خذلوه.. أوف.. أووف..

كان قد تقمص ثوب الناقد الأدبي في قراءته للملف الذي تحدَّث عن الفران أبو فاروق، وعن اكتشافه جماله المفاجئ، واكتشاف نسائه جماله المختفي طويلاً تحت اللثام الصوفي والطاقية. فقدَّم مرافعة عن المصداقية الفنية، وعن الإقناعية، وعن وجوب تقديم المسبِّب قبل السبب، وعن المعلول قبل العلة، وعن رفضه لإمكانية فران إخفاء وجهه وجماله المفترض عن زوجة تعاشره وتنجب منه ولدين ثم لا ترى وجهه.. ثم تذكَّر، فحدَّث عن الأسطورة الهلنستية تتحدث عن الإله الجميل المتخفي إيروس والمتزوج من الحسناء بسيشه والذي يطلب منها ألا تنير نوراً ولا ترى وجهه، فهو لن يزورها إلا ليلاً وإلا فسيهجرها، ولكن أختيها تغريانها مخيفتين إياها بأنها متزوجة من أفعوان سيأكلها، فتقوم بإضاءة مصباح كانت قد أعدَّته لتكشف أمره، فتكتشف أنها كانت متزوجة من رب الجمال إيروس الذي يفيق من نومه إثر سقوط قطرة من زيت المصباح الحارق على جسده، ويرى النور، فيغضب، ويهجرها تاركاً إياها للحزن.

تحدث راضي عن السخرية في استعارة نص كلاسيكي،

والحطّ منه ليصبح عن فران وابنة بائع قضبان قنب، وتساءل: أهذه هي رؤية المؤسسة للحضارات الكلاسيكية التي انحطت على أيدي المعاصرين ليصبح الإله فراناً، والحورية ابنة بائع قضبان قنب.

تحدث في غضب عن رفضه السخرية منه، فهو ليس واحداً من الجنرالات أنصاف الأميين الذين اعتادوا التعامل معهم، وتلفيق سير وقصص لهم غير هيابين من اكتشاف تلاعباتهم وكذباتهم. فالسير التي تنشر توقع بأسماء الجنرالات والمتنفذين وليس باسم مؤسستهم المتخفية وراء غموضها. ولكني أنا راضي الدكتور في الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع لا أقبل بأن تذيل كتابة كهذه باسمي.

بعد أن أرسل رسالته الإلكترونية الغاضبة وخلا بفنجان قهوته أحس بالأسف، فقد عرف أنه قد اندفع هذه المرة وراء غضبه بأكثر مما يجب. خلا بفنجان قهوته يتساءل: ما الذي دفعه إلى هذا الغضب، ولم يكن بحاجة إليه، فالأمر لم يكن بحاجة إلى هذه الحدّة.

كان العقد والاتفاق واضحين. كل ما لم تقتنع به وتعجب به نعدّله.. فقط. أشر إليه ونحن نعدّله تماماً. فقاعدتنا كانت دائماً: الزبون على حق، ونحن في خدمة الزبون.

أعاد قراءة رسالتهم الإلكترونية، وأحس بالخجل؛ لقد غلبه ذلك الفتى - الكهل - الفتاة الذي قدم نفسه له مديراً للمؤسسة،

غلبه باتزانه ولطفه، لقد أظهره عجوزاً نزقاً أحمق كان في غنى عن كل هذه الحماقة، وإبداء ملاحظاته دون إبداء كل هذا الغضب والتظاهر بالثقافة والاعتداد بشهاداته العليا.

هـه.. تنهد.. على أي حال. ربما كان هذا للأفضل. سيحسبون حسابهم منذ الآن. ولن يحاولوا استغفاله والتعامل معه كتعاملهم مع الجنرالات المتقاعدين من أشباه الأميين.

طبع الملف الجديد، رفعه، ومضى إلى المقعد القريب من النافذة يقرأ. كان الطبيب قد نصحه بألا يكثر من الجلوس إلى الكومبيوتر، وألا يقرأ عن الشاشة مباشرة، بل يطبع ما يريد قراءته، ثم يخلو به في وضع صحي وقرائي أفضل. صحيح أن بعض النفقات ستزيد، ولكن.. .. هـه.. تنهد الطبيب. صحة العمود الفقري والعينين أغلى.

اتكأ بظهره إلى وسادة المقعد الموريس معطياً نفسه الوضعية الأكثر راحة.

هل الحرب قانون بني الإنسان، أم السلم؟ من يستطيع الإجابة الحقة عن هذا السؤال.. طبعاً سيتنطح الكثيرون ليقولوا إن السلم والبناء والحضارة هي الأصل، وأن الحرب طارئة، مؤقتة في تاريخ بني الإنسان، ولكن. أهذا الكلام صحيح؟ فإن كان صحيحاً، فلم تتعطل كل القوانين والشرائع زمن الحرب، ولم لا تجد هذه القوانين والشرائع مدافعاً عنها زمن الحرب؟ لم يسقط حق الملكية ليصبح النهب حقاً مشروعاً للمحاربين، ولم يسقط

حق الزواج والعفة واحترام المرأة والبيت والأولاد زمن الحرب. لم أوجد العرب مقولة هذه المرأة أحلّها سيفي. أي أسقطت الحرب تحريمها، فصارت حلالاً لا حاجة للوصول إليها إلى زواج ومهر، ورضا أهل، وقبيلة، وشعب، وقاض، وحاكم.. كل هذا الهرم الاجتماعي يسقط بضربة واحدة، الحرب. فإذا بالأموال حلال، وإذا بالنساء حلال وإذا بالمعابد والمقدسات حلال.. لقد أحلّها سيف الحرب.

رفع راضي رأسه: هل يتفلسف هذا المحرر الجديد.. وضحك في سخرية خفيفة: أنت من حرَّضتهم على هذا، أفلم تعلن لهم أنك مختلف عن الجنرالات أشباه الأميين، وأنّك تحمل شهادة جامعية عليا، وأنك اكتشفت استخفافهم بالكتابة، ها هم قد كلّفوا من يخاطبك بما تحب.

ولكن.. ما هي الحرب.. أهي صراع السيوف والبنادق والمدافع، أم هي إخلاء البلاد من الرجال، وترك المدن والقرى للنساء والأطفال.. ما هي الحرب. أهي إبعاد سلطة الرجل صاحب الحق في ملكية الأرض والمرأة والأطفال لتتحرر المرأة بغرائزها وهواها، وإراداتها غير مكترثة لقوانين الأب والزوج، ورجل الدين. أم هي تمكين رجال أقوياء من العودة إلى القانون القديم.. قانون الغوريلات.. والوعول.. .. الإناث حق للذكر الأقوى، والأقوى في سيرتنا هذه هو من نجا من مذابح الحرب، هو من خلت له المدن والقرى بعد مضي الذكور الودعاء الطيبين، الأزواج الآمنين إلى الحرب ليموتوا، ويبقى الأثرياء، والأقوياء، والكبراء يتمتعون

بكل ما ترك الطيبون من ورائهم.

رفع راضي رأسه متبرماً: ما هذا التفلسف.. أين السيرة التي يكتبون..

وكان هذا قدر نادرة وأبو فاروق. (تنهد راضي: ها هو يعود إلى السيرة) كان هذا قدر هذه المرأة التي اكتشفت أنها أم لأربعة صبيان قبل أن تبلغ العشرين: مات اثنان منهم في الأشهر الأولى من حياتهم، وعاش اثنان تحولاً بعد غياب الأب إلى فمين مفتوحين، وكان عليها أن تملأهما بعد موت الجدين والجدتين بالكوليرا وهروب العمات والخالات ممن لم يمت إلى مدن أخرى هرباً من الكوليرا، ومن الجوع المهاجم.

في الشهور الأولى لغياب الزوج كان لديها من الذكاء العملي ما جعلها تخفي بعض جرار الزيتون والمكدوس، بل وجرة قاورما صغيرة أقسمت ألا تمسها إلا عند الضرورة القصوى. ورغم التفتيش الحاد قامت به الحماة إلا أنها لم تعثر على الكنوز المخبوءة، وبعد شجارين أو ثلاثة اقتنعت الحماة أنها ربما سرقت، أو أكلت، وكان يمكن لهذه الشجارات أن تستمر، أو ينكشف المخبوء لو لم تتقدم الكوليرا بالحل المناسب فيخلو البيت لنادرة وطفليها إلا أن ما لا ينبع ينضب، وما ظنت أنه الذكاء اكتشفت أنه غير كاف للوقوف أمام الكارثة، فالبيت دون رجل لا يكفيه الزيتون والمكدوس، وبعض الزيت والقاورما. فالخبز. والفحم، والثياب، وزيت السراج وأشياء كثيرة يحتاجها البيت ولا يقدمها إلا الرجل.

لم يترك الزوج لها مالاً، كما لم يترك الأب لها مالاً، وما كانت مهنتهما مما يكفي لادخار المال، بل تركا لها مهنة وأدوات مهنة لا تطعم خبزاً. فالخبز أصبح من حصة الحكومة وأبناء الحكومة، وأبناء الحكومة الشرعيون كانوا الجند، وحين اختفى القمح ثم الشعير، ثم الفول والحمص والحبوب جميعها في مخازن الحكومة كان على من تبقى من النساء اللواتي تخلى عنهن الذكور في سبيل الواجب أن يتدبرن أمورهن، وهكذا كان على نادرة حين ورثت بيت أبويها، ورأت النول القديم وعليه شرشف لم يستطع إنجازه، فقالت: أتسلى بإنجازه.. .. ولكن الخيوط نفدت، والشرشف لم ينجز..

كان البيتان متجاورين، وكانت في عرف الجيران الأحياء غنية، فلديها بيتان، ولكن لا طعام للطفلين. تدبرت أمورها في البدء في الإجهاز على الخزين المخبوء من زيتون ومكدوس وخضار جففتها الأمّان لقادمات الأيام.

قالت: سأقاوم، وأخذت تبيع مدخرات أبيها من الشراشف والمناشف الساذج، والمطبوع منها بأبخس الأثمان ولكنها نفدت، ولم ينفد الجوع.

بعد عدة شهور على غياب الزوج لم يكن الجوع الهم الأساسي لدى نادرة، فقد كانت صبية يافعة اعتادت الزوج والرجل، ولقد اختفى الزوج والرجل، ولكن البيت المليء بالضجيج والجد والجدة، وأخت الزوج الأرمل والطفلين كانت تملأ عليها نهارها بين مداعبة وشجار وبكاء وضحك، وطعام

يخترع من أبسط المواد. ولكن الليل، الليل العتمة، الرعب كان العذاب، فقد كان كل شيء يذكرها بالزوج الغائب. كان صوت فأر يخشخش في السقف يرعبها، فيذكرها بالزوج يضمها إليه ويقسم إنه لن يترك فأراً في البيت يخيفها، وكان سماع عصفور يتخبط بين أغصان الشجرة يوقظها فيذكرها برعب وفرح الليالي الأولى للزواج، وتأرق متقلبة على شرشف من ذكريات أفراح مضت.

في تلك الأيام تعلمت التلصص على الحارة ومراقبة من تبقى من الصبية والعجائز ممن لم يستدعهم الغول المرعب المسمى بالحرب، ولكنها في جزء صغير من عقلها كانت تعرف أن هؤلاء الذين تتأملهم وتراقبهم ليسوا الزوج، ولا من يقوم مقامه، وكان يمكن لهذه الشهوات والأحلام أن تقودها إلى مغامرات ما كانت تعتقد أو تتخيل أنها تتجرأ على التفكير بها لولا هجوم الكوليرا.

كان الموت المجاور، والمعايش، والمساكن، والحرب قد أخليا المدينة من رجالها، فكانت حين تعبر في الأسواق هاربة من بكاء طفليها، ومن عواء جسد يبكي جوعين ليس من يشبعهما، تمشي وتتأمل التجار الشيوخ - فالشبان اختفوا - لحى بيضاً وقامات منحنية، وكانت في لحظات جنون تتساءل إن كانوا ما يزالون الرجال، ولكن صفعة أب ميت تلطمها وتعيدها إلى التزازن، فتمضي لترى صبية في العاشرة أو الثانية عشرة، فتتأملهم في دهشة.. لا..

رفع راضي رأسه وتنهد مستغرباً: أكانت الحياة على هذه

القسوة.. أعوذ بالله. كان يظن أن جيله هو من قاسى الأسوأ. فكان ظنُّه هذا غافراً للخطايا الكثيرة ولكن.. عاد إلى الملف.

كانت تلوب في الشوارع والحارات، فترى لائبات كثيرات. كن جموعاً من نساء تخلى عنهن الرجال، ومضوا إلى الحرب ليموتوا هناك في بلاد الصقيع، وفي جبال البرد، وفي صحارى القيظ، يموتون لا يعرفون سبباً لموتهم إلا أن إلهاً غامضاً اسمه السلطان كان قد قضى عليهم بالموت ليتركوا من خلفهم نادرة تلوب في الشوارع تاركة في البيت طفلين يبكيان من الجوع، وتحت إزارها وحش يبكي من جوعين.

وكانت المصادفة، المصادفة المحضة التي لا تجري إلا مرة في كل مئات المحاولات، فقد حُمّ ابن أبي فاروق، وخافت هدية على الطفل المتقلب بين يديها لا تعرف كيف تشفيه، أو تعالجه، فاستنجدت بجارة الدقيق المستعار ولا أمل في إرجاعه، فدلّتها على الشيخ عبد الكريم فهو خير من يعالج ويداوي، ويكبّس، ويقرأ، ويتفل، وندر أن خرج مريض من عنده إلا مجبور الخاطر، ولكن كيف تمضي إليه وأبو فاروق في الفرن يَعُدُّ الأرغفة ليسلمها إلى ضابط الثكنة.. كيف تستأذنه وهو من طردها أكثر من مرة في الشهر الأخير تتحرش به مدعية كل الأعذار لتراه، فالليل ستار يخفي حتى جمال أبو فاروق. ولكن الولد يتقلب في حُمّاه، والجارة تلح، وأخيراً تتجرأ وتريه الطفل، ويرى حُمّاه الصارخة، فيأذن لها بالمضي إلى الشيخ. وهكذا هيئ المسرح، فالخبز نفد، والجند مضوا، ونادرة واقفة على الجانب

الآخر من الحارة تتأمل هذا الناجي من الحرب، والموت، ولعنة السلطان. كانت تتأمل الأرغفة الماضية إلى الحرب جائعة، وتتأمل العربات تحملها وتمضي بها إلى القلعة جائعة. وتتأمل أبو فاروق بهذا الحسن الإلهي جا.. .. ئعة.

وقال لها: تعالي.

مضت تجرجر قدميها منهكة من مشي ولوبان طويل، ومن جوع استنزف منها كل طاقة على المقاومة، فرائحة الخبز الفائحة في المكان كانت أكثر من جوع. دخلت الفرن، ورأت الباب الصغير يؤدي إلى نور كبير، فتساءلت: ما هذا النور، أهو الشارع الآخر، ولكنه سبقها، فلحقت به على ارتباك.

كانت باحة بيت أبو فاروق المزينة بنباتات الزينة والبحرة الدافقة بالماء، وبالأشجار الريا تذكرة بأيام خلت كان بيتها شبيهاً بهذا البيت، النظافة، والبحرة الدافقة ونباتات الزينة والأشجار الريا.. أدركت حالما رأت كل هذا أن للبيت امرأة، وأن المرأة سعيدة، وما دلائل السعادة إلا ما ترى من حولها، فأحست بحسد طاغ يعتصرها. لماذا كان لهذه المرأة التي لا تعرفها كل هذه السعادة، البيت النضر والزوج الذي اختصر كل جمال الرجال في رجل و.. .. الخبز الكثير، وحرمت هي من كل هذا، فالبيت بلا رجل، ولا خبز يتحول إلى خرابة. كانت نباتات الزينة قد يبست، والأشجار الخضر قد كلحت، والبؤس الذي حل عليها وعلى طفليها قد انعكس كلوحة وجفافاً وتهرؤاً، وحتى البحرة

لم تعد تدفق بالماء، فقد سدتها الأشنات، وفتيت الأيام إلا ما انسرب من قليل ماء يكاد يكفي لخدمات البيت الضرورية.

كان أبو فاروق قد اختفى بعد أن طلب إليها أن تغسل وجهها ويديها لو شاءت من البحرة الدافقة.

شمّت رائحة خبز، ورائحة طعام يسخن، فارتخت ترتاح على فراش قريب غير عابئة بما ستقول امرأة البيت وسيدته لو رأتها، ولكن الأقدار كانت قد تآمرت لتحوّل أبو فاروق من الملثم الخجل من قروح وجهه ولهاث صدره إلى سيد الجمال في مدينة خسرت الرجال في أقاصي الأرض.

تقدم يرحب بضيفته، وقد تخفف من ثياب السوق ولبس قمبازاً من الألاجا، وخلع الطاقية والكوفية، فتبدى شعره البني الطويل، وشارباه الخاطّان كأنهما شاربا مراهق وخداه المحمّران، كأنهما ليسا خدي فران، ولا أب، ولا زوج.. بل هو الجمال الرجلي الذي حلمت به كل الشهور الماضية تتقلب بين صراخ الأطفال الجياع، وذكريات رجل مضى وفي قرارة قلبها تعرف أنه لن يعود، فكل ذكريات المدينة عن الرجال يستدعيهم السلطان إلى الحرب هو أنهم لن يعودوا.

قال وقد أطلق بسمة خجولة كان من المدهش أن فراناً يصارع النار والريح والطحين يطلقها، ولكنه كان خجولاً، فهذه هي المرة الأولى يخلو بامرأة ليست زوجه هدية، وفي وضح النهار، ولا يعرف ما يصنع. قال وهو يضع صينية الطعام: تفضلي، ولما رأى

تلكؤها عرف أنها مرتبكة خجول، فقال: أم فاروق ليست في البيت، وأنا سأمضي فأغسل بعض الغبار والعرق عني.. تفضلي.. كلي.

مضى، وما إن غاب حتى استيقظ الجوع الأول روائح، فانقضّت على الطعام تأكل وتأكل، وتتمنى لولا قليل خجل أن تخفي ما تبقى في ثيابها تحمله إلى طفليها، ولكن قالت لنفسها: هذا الجميل لن يكون البخيل.

انتظرت عودته، ولكنه تلكأ. تسلت بقضم بعض اللقيمات في انتظار عودته، ولكنه لم يعد.. استندت إلى وسادة محشوة بقش قريبة تتأمل الدالية تعلوها فوق صقالتها، فلحظت أن ورقها قد قسا. فكرت: لن يصلح للمحشي. لقد قسا واحمرت جوانبه.. أمعنت التأمل تبحث عن عنقود ضائع.. عنقود.. عن.. قو.. د..

حين اضطجعت نادرة تستريح مطمئنة شبعى لم تكن تقدّر أن الطعام الكثير بعد جوع طويل يثقل المعدة والدماغ، و.. يجلب النوم. نامت نادرة وهي من اعتادت الأرق، فثغاء الأطفال الجوعى مؤرق، ومواء الجسد المتمرد مؤرق، وهبوب النسيم الخفيف في ثنايا السقف الطيني، وعبر أغصان شجرة الباحة مؤرق.. وكل ما في حياة الأم الوحيدة في مدينة وحّدها فقدان ذكورها في حرب غير مفهومة مؤرق.. وها هي للمرة الأولى منذ زمن طويل تشبع وتأمن، وتستسلم لنسيم رقيق لا تعرف مصدر هبوبه. وحين دخل أبو فاروق وتأملها راعته البراءة في النومة، الهدوء والاستسلام

والطمأنينة فشعر أنه يعرفها منذ زمن طويل. خاف عليها البرد، وخاف عليها الذعر لدى الإفاقة في بيت ليس بيتها، فهمس يوقظها، ولكنها كانت مستسلمة لنوم ثقيل. وضع ذراعه تحت رأسها، ثم وضع الذراع الأخرى تحت ساقيها، وحملها إلى الغرفة التي ستصبح معبد حبه.. مدّدها. استلقى إلى جوارها، لثمها يهمس بكلمات إعجاب رقيقة، ومن الغريب أنها لم تفتعل، ولم تمثل، ولم تكذب، فقد كانت غارقة في النوم العميق..، ومن الغريب أن حملها لم يوقظها وتمديدها في غرفة النوم لم يوقظها، وكانت اللثمة الرقيقة والهمسة التي طال انتظارها لها ما أيقظها.

فتحت عينيها، ورأت وجه المراهق الخالد إلى جوار وجهها.. شمّت رائحة الغار، ولا تدري كيف جذبته إليها معانقة، فانجذب

وضع راضي الملف من يده.. ففغمت أنفه رائحة الغار الحادة.. وأثقلته الرائحة اللزجة الحارقة الحريفة.. أثقلته رائحة الغار المختلطة بقليل من حموضة عرق خفيفة ممتعة.. وملمس الكتف الطرية يستند إليها، والعالم عتم.. تلك العتمة الخليط ما بين سواد الليل وشحوب الغروب.. قالت و.. .. وفيما بعد وحين يراجع ما قالت في مآرق الليالي التي تلح بالذكريات: كيف جرؤت علي.. متى دبت فيك العفرتة كنت.. .. أنظر إليك وأنت تمرر الشموط وترمقني بتلك العين الوقحة.. أعوذ بالله. كيف يتغير الصبي فجأة. فتمتلئ عيناه بالوقاحة.. أتعرف. لم أعد أجرؤ على الظهور أمامك بالشلحة، لم أعد أجرؤ على الابتلال بماء الشطف من البحرة.. لم تعد الصبي..

ضحك راضي في مقعده الموريس، وانتبه إلى أنه ضحك، فضحك ثانية، وانتبه إلى أنه يكرر تلك الضحكة التي أطلقها وهي تعاتبه، وتناجيه، فيلصق نفسه بها، ويغرق في رائحة الغار والعرق الحامض ويتدلل عليها: الله يخليك.. خليك بالشلحة.

أسند راضي ظهره إلى ظهر الكرسي الموريس يغمض عينيه، وسمعه يصرخ مغلظاً صوته: هاتي كبكوبة حمراء. ورآها تعطيه الكبكوبة الحمراء فيربطها إلى لحمة البساط ويبدأ شدّ النول.

رمقها خلسة يرى استجابتها لأمره. كان يعرف أنه يغلظ صوته، ويعرف أنها تعرف أنه يغلظ صوته يريها أنه قد ولج أبواب الرجولة.

تنهدت وهي تعطيه الكبكوبة الحمراء، وتستند إلى ظهر الديوان، ثم تغمض عينيها وهي تتمتم: ابن الحرام ينطنط من بلد إلى بلد، ومن امرأة إلى امرأة، ولا يخجل، ولا يتردد، ولا يقول: لدي مربوطة في البيت تنتظرني، وما يكاد يعود وأحس بمسامي كلها تشتاق وتحن.. ثم وكأنما تعتذر: هه. أليس رجلي، فيطلب الحمام، وأسخن له الماء وأبدأ غسله، ولكن الكلب، ابن الكلب كان يتفاخر بها أمامي. آثار العض على كتفه، والخمش على ظهره، الله يلعنه، ويلعن أصله الواطي..

تتنهد مرتبكة وتقول وهي تضم راضي إليها بشدة حتى ليصرخ من الألم. فتفلته معتذرة: أتمنى لو استطعت خنقه،

ولكني لم أعتد الخنق، ولا القتل، فأسرتنا أسرة صنايعية.. لم يعرفوا القتل، ولا اعتادت نساؤها عتاب الرجل على فلتانه.. كانت أمي تقول مطمئنة: دعيه. سيطير ويطير، وسيعود أخيراً إلى عشه.

وعاد إلى الملف

كانا يعومان في عش سعادتهما، فلم يستجيبا للطرق على الباب الخارجي الذي أحكم أبو فاروق إغلاقه، تركاها تقرع، وتقرع حتى يئست، فمضت مع جارتها إلى بيتها تنتظر عودته من السوق، أو إفاقته من النوم، أو نزوله من السماء.. المهم أن يفرج عن الباب، ويفتح لها، ولابنها الذي كبّسه الشيخ، وقرأ عليه، ودمدم وعيونها تراقبه في ذعر آمل، ثم.. ختم قراءاته بالتفل عليه، والدعاء له بالشفاء العاجل.. حملت الصبي، توكأت على الجارة.. وعادتا ولكن.. الباب كان محكم الإغلاق.. قالت الجارة: تعالي.. استريحي لدي قليلاً.. اسقي الولد بعض الماء البارد.. واشربي.. ولعله يعود قريباً.. ومضتا.

كانت نادرة تنام على ذراعه، وسعادة استرخاء تشبه الموت الجميل تحوم من حولها. كانت تعرف أنها تعيش سعادة ما عرفتها من قبل، وربما لن تعرفها من بعد.. كان كل شيء فيها ينزُّ سعادة، وسعادة المحروم مضاعفة دائماً، فما بالك لو كان في أحضانها أبو فاروق، الجمال الخبيء ينتظر من يكتشفه.

كان الصبي الجميل لم يسعد بجماله، وصباه، فاختفى

وراء اللثام والطاقية، وزواج لم يعرف متعه، فقد كان أشبه بأداء للواجب ليس فيه لذة الاختيار والسعي وها هو يكتشف للمرة الأولى سحره في ذوبان هذه الغريبة بين ذراعيه، في آهات يعرف أنها صادرة من قلب لم يعرف آهات المتعة من قبل، في ارتخاء يبعثه شبع من لم يشبع من قبل.

كانا جائعين إلى إنسانية لم يعرفاها، فشبعا.. مشتاقين إلى حنان حرمتهما منه الحرب والجوع، ومآزق لا علاقة لهما به، فإذا بكل شيء يتهاوى وإذا بالمواضعات الاجتماعية والدينية والأخلاقية تسقط بضربة.. الحرب.. وكانت الحرب لهما جنة، وربما كانا الثنائي الوحيد في العالم اللذين استطاعا انتزاع جنتهما من رعب الحرب والموت والجوع والكوليرا.

كانت نادرة تعيش في تلك اللحظات القليلة سعادتها الخاصة.. سعادة ليست صورة بلاغية، بل صورة حسية حقيقية. فيها تستعرض مسيرة حياتها كلها كشريط سينمائي مسرَّع وهو يعتصرها فتستجيب شاهقة تتمنى لتلك اللّحظة لو تتحول إلى عمر.

كانت ترى طفولتها تركض في البيت بين نولي الأب وابن العم الذي سيصير الزوج ينسجان الشراشف والمناشف التي ستتحول فيما بعد إلى خبز وفواكه ولحم ومونة. فكرت: كانت المونة أهم ما يشغل بال نساء البيت.

المونة - الأمان ضد العدو الدائم الجوع والقحط، وكان فخر كل بيت بيت مونته، ترى أمها تفتعل زيارة أمها وأختيها إلى

بيـت مونتهـا ليريـن الجـرار المملـوءة، والأكـيـاس المحتقنــة، والمشاكيك المعلقة. وكانت حين تريهن ذلك تشعر بالراحة والفخر والامتنان فقريباً، وربما قريباً جداً سيأتي قحط، أو جراد، أو حرب تنتزع من الأسواق والحقول والأفواه آخر لقمة، وعندئذ ستكون الأم وأسرتها في أمان.

كنّ جميعاً متفقات على هذا الفرح، وكن يتسابقن، ويتساعدن في تجفيف الخضار، وشكّها بالخيوط، وتعليقها حتى أيام الندرة، أو الجوع. كن يتسابقن، ويتساعدن في ملء الجرار بالزيتون والزيت، والمكدوس والمربيات، وكان البرغل زاد العائلات جميعاً، وكانت نادرة تساعد في تنقيته، وتصويله، وسلقه وجرشه.. كانت تعرف كل هذا، ولكنها ما كانت تعرف أو تقدر أن العمر سيمتد بها حتى تقع عليها كل مصائب المدينة، الجوع والقحط، وفقدان الزوج.

كانت تعرف في الآن نفسه أن هؤلاء اللواتي اعتدن الخزن والتموين خوفاً من يوم قحط كنَّ أيضاً يلملمن نثار السعادة والفرح، ويخزنّه في جرارهن الخاصة، وفي مشاكيك معلقة على جدار القلب. كن يخزنَّ الفرح والشهوة لأيام قادمة لن يجدن فيها الفرح، ويعتقدن أنهن سيستخرجنه من جراره ومشاكيكه يتغذين عليه، ولكن الأيام تمضي وجرار الفرح تفسد، ومشاكيكه يأكلها السوس ولا فرح.

كانت تعرف هذا كله بقلبها، بلا وعيها، بمسام

جسدها، وكانت تؤمن كما يؤمن الجميع بوجوب التخزين خوفاً من القحط القادم، وها هو قد أتى مضاعفاً عشرات المرات لتكتشف أن خزينها فسد، ولن يعوضها عن كل فرح تخلت عنه في حينها..، و.. فجأة ومن قلب هذا الجحيم المركب يأتي أبو فاروق الرجل الذي اكتنز فتوته وصباه وجماله تحت اللثام والطاقية واكتنز السعادة يحملها إليها. كانت تحس بامتنان لا تعرف مبتداه أو منتهاه، بل كانت تعوم في الامتنان.

ووجدت نفسها تقبّله، وما عرفت في حياتها أنها قبّلت زوجها لا حباً، ولا شهوة، ولا حنيناً، بل كانت تستقبل قبلاته في تواضع وخجل وتظاهر بالحياد. لم تكن القبلة أداة جنس، بل كانت أداة احترام للأبوين، وحنان للطفلين، أما للشهوة، فلم تخطر لها على بال، ولكن مع أبو فاروق فقد شعرت أنها يجب أن تقبله، ليس عن شهوة فقط، وقد كانت الشهوة تحوم في المكان كنور ما بعد العصر حين يعبر الطاقة العلوية فينير ذرات معلقة لا ترى لولا النور، ولكنك تستطيع أن تراها. سعادة نشوتها كانت كهذه الأشياء الصغيرة المعلقة السابحة في النور.. قبّلته ممتنة. فلقد شعرت للمرة الأولى أنها تعيش إنسانة.. محبوبة.. سعيدة.. شبعانة.

ملأ أبو فاروق كل فراغ في حياتها، وحين سمعت القرع البعيد على الباب لم تأبه، فالعالم الخارجي اختفى.. بقحطه وجوعه، وشوارعه الخاوية، ببيتها المهمل المكتظ بنباتات زينة يبست في أصصها، بشجرة المسك الشاحبة أشحبها قلة السقي

والتقليم، بباحتها التي تغيَّر لون بلاطها من الرخامي الأبيض إلى العسلي الغباري لم يشطف منذ شهور، بطفليها الباكيين يطلبان لقمة.

اختفى العالم بأم فاروق التي تقرع الباب بكلتا يديها تطلب نجدة، وباباً يفتح..، ورجلاً اكتشفت أنه كان الحلم بين ذراعيها ولم تره.

لم تبال نادرة وهي من كان رعبها ورعب المدينة فضيحة العيب والحب الحرام، لم تبال.. ولو كسروا الباب ووجدوها بين ذراعيه، فقد كانت السعادة أكبر من كل عقوبة، فاكتفت بضمِّه إليها تحميه وتحتمي به.

سمعا صرخات وما يشبه عويل نساء متجمعات عند الباب، فانسلَّ الرجل من ذراعيها، ولبس القمباز الألاجا وخرج، فتلملمت نادرة، واستندت لابسة ثيابها إلى الوسادة القشية الكبيرة تنتظر.

مع صوت انفتاح الباب الخارجي استيقظت من حالة السحر التي كانت تعيشها. استيقظت، فاستيقظت نساء المدينة المعولات الصارخات الخامشات اللاطمات حين يكتشفن رجلهن مع أخرى، واستيقظ الرجال والشيوخ، والعجائز، والعيب والحرام والتهديد بالموت والجحيم،.. كانت تتوقع أن تضؤل، وتتكمش، وتخزى أن ضبطت في وضع كهذا، ولكنها لدهشتها لم تبال، بل استلقت نصف استلقاءة على الوسادة القشية فاردة ذراعيها كأنما تنتظر رجلها ولا خوف، ولا خجل ولا حزن.. كانت في جزء صغير من

عقلها على استعداد للموت، للفضيحة، للرجم، للتجريس، لكل شيء، ولكن على ألا تستلب منها تلك الساعات الهنيئة التي عاشتها منذ أن قال تعالي، فتعالت، وتبعته.

صمتت الأصوات المقوقئة فجأة، وانغلق الباب، فقلقت.. لقد تغيَّر شيء، واضطرب البرنامج. هي تعرف أنها عاشت عشقاً محرماً، وهي تعرف أن صاحبة الحق الشرعي في هذا الرجل الجميل قد وصلت، وهي تعرف أن من حقها أن تثأر لكرامتها، ولكن الصمت حلَّ.. .. صمت كانت تسمع معه أزيز ذبابة علقت وراء زجاج النافذة المطلة على الباحة ما يزال فيها بعض نور، فهي تسعى وراءه، ولكنه الصمت، الصمت المريك.. ولا عويل، ولا نواح، ولا فضيحة.

أزَّ جهاز الكومبيوتر، فالتف راضي بجذعه مضطرباً للأزيز غير المتوقع.. وضع الملفَّ من يده، انتصب، فطقطقت عظامه العجوز، فضحك: لقد شخت يا راضي. اتجه إلى الكومبيوتر ليرى شارة أن هنالك بريداً قادماً. ضغط الزر لتظهر الصورة الجماعية.. ممسوحة الوجوه عدا وجهه ووجه الجنرال سعيد الصبي.

ألقى الصورة في سأم وعاد إلى مقعده، ولكن الكومبيوتر أزَّ ثانية: من يلاعبني. ما يريد من هذا اللعب.. من هؤلاء الصبية في الصورة التي ما تفتأ ترده على البريد الالكتروني. جهد في تذكرهم من.. .. ثيابهم، من أحذيتهم المغبرة، من أيديهم تحمل

نقيفة، أو كرة قدم.. من.. من.. كيف امسحت ذاكرته عنهم جميعاً، كيف.. من.. لا.. أيوب ليس بينهم، هو يذكره جيداً. كان لا يتحرك إلا وديوان شعر بين يديه، أو مجلة أدبية. لا.. ليس بينهم. أتراه.. المصور، ولكنه لم يكن هاوي تصوير، فمن هؤلاء إذاً، ولماذا. قام إلى الكومبيوتر. ضغط الزر فظهرت صورة الصبي في الكنزة المخططة، وسمع الصوت المقهقه: وهي الأصلية كل حبة وقية.. فأغلق الجهاز..

وحل الصمت.. كان الليل، فمن يعرف أنه ما يزال صاحياً فأرسل إليه هاتين الرسالتين. من؟ وما المراد النهائي من هذه الصورة الصبية له، وما المراد من صورة الصبي الجنرال، ومن هؤلاء معه في الصورة ممسوحو الوجوه، وما المراد من هذه القضية كلها. ما المراد من.. وهي الأصلية كل حبة وقية.. أعوذ بالله.. من يعرف بهذه الحكاية.. وكيف.. وما المراد من إخراجها من أسر الذاكرة إلى فضاء الواعية.. من؟

و.. .. .. هرب من السؤال إلى الملف

كانت قد استرخت في استلقاءتها ناشرة ذراعيها متكئة برقبتها ورأسها إلى المخدة ما تزال تحت تأثير السعادتين الحسيتين اللتين عاشتهما في الساعات الماضية، كانت مسترخية غير عابئة بكل مواضعات المجتمع، وإداناته واحتجاجاته. كانت تحت تأثير هل نقول المخدر لا، فهي لم تكن، ولم يكن أبو فاروق يعرف المخدرات، ولكنه كان خَدَر السعادة بعد طول حرمان.

وستتساءل نادرة وهدية كثيراً فيما بعد، وفي مسارّاتهما المتلصصة: هل السعادة مخدر؟ هل السعادة حالة من ضياع التركيز يشبه الحالة التي يعيشها المخدَّر. كانتا تسمعان كثيراً عن الحشاشين، ولكنهما لم تعرفا أبداً حشاشاً ولا حشيشاً. كانتا تريان شاربي العرق وتدعوان لهم بأن يمحو الله كاساتهم، ولكن، ستقول نادرة معلقة: لا بد أن السعادة التي تجعل رجلاً يتحدى أهل الحارة، وشيخ الحارة، والمعدلين، والتهديد بالعقوبة ليستسلم لتلك اللذة لا بد أنها سعادة كبيرة.

ثم تهمس مسارَّة وهما تتلصصان على أبو فاروق: لا بد أنها قريبة من هذه اللذة.

وستنظر هدية إليها تكتم حسداً بلا حدود: لا بد أنها كذلك.

كانت هدية قد دخلت تحمل طفلها، وتتبع أبو فاروق الذي لم يكترث لصدمة ما ستشاهد، بل أراد بكل بساطة أن يريها بعينيها، ويضعها أمام الواقع دون تزويق، فمضى بها إلى حيث كانت نادرة مستلقية في استمتاع أشبه بالخدر وقد نشرت ذراعيها في استرخاء لا تخاف.. .. حتى الموت.

شهقت هدية وضمت كفيها إلى صدرها وكادت تطلق العويل الذي يطلقه النساء في ظرف كهذا، أو النشيج أو صرخة الانتقام حين تنقض على غريمتها التي اختلست منها المتعة التي لم تستطع نيلها منذ أن كشف أبو فاروق عن كنزه الخبيء وراء

اللثام وقروح الحريق وصفير الرئتين تفسخت أسناخهما بريح صهد الفرن.

ولكنه أمسك بذراعها في قسوة، ونظر إليها تلك النظرة المهددة التي ستظل تذكرها حتى تراه ممدداً على خشبة فارقه فيها الرونق والنضارة ونظرة التهديد، وتحول إلى مسكين يقلّبه المغسّل بلا رحمة ولا شفقة. فتضطرب زوائده اللحمية والجلدية وهو يتقلب دون مقاومة.

فهمت هدية من تلك النظرة كل الرسائل التي كان عليها أن تفهمها، فهمت أنها أمام خيارين، أن تترك التنين الذي انفلقت عنه بيضة جلد الحريق يعيش كما يريد، ويتركها تعيش في كل النعيم الذي عرفته من قبل، أو تحتج، وأي مكان تستطيع اللجوء إليه، وأي بيت فيه تستطيع تربية طفليها في زمن الجوع والحرب وفقدان الرجال.

فكّرت هدية، فكّرت، ونادرة ما تزال مستلقية حيث كانت ناشرة شعرها على الوسادة القشية، وذراعاها على السجادة فوق التوطاية الطويلة. فكّرت وبسرعة اتخذت قراراً هو حكمة نساء عائلتها المختزنة: دعي العاصفة تمر، ثم يخلق الله ما لا تعلمون.

رضخت برأسها، ضمت طفلها المحموم، جرّت طفلها غير المحموم و.. مضت إلى غرفتها.

تنفست نادرة الصعداء وهي تفيق من خدر السعادة التي

عاشتها في ذلك اليوم، ورفعت ذراعيها تدعوه إليها، فاستجاب.

تنهد راضي وهو يضع الملفّ من يده: كأن القدر يحب تكرار ألعابه.. كأن.. ولكن ما يدريك. ألعل مؤلف السيرة يحاول عبر اصطناع السيرة القديمة أن يعيد عليك حكايتك الشخصية. ولكن.. أعوذ بالله. كيف عرف؟ من هداه إليها.. ولكن ما يدريك؟ أهو القدر ما يكرر ألعابه؟ أم هو الفن المخادع المتنكر، والمتواري وراء التشبيهات، ومعادلات التاريخ، وأقنعة السيرة.. ما يدريك. أترى مؤلف السيرة المتنكر وراء اسم مؤسسة الإنشاء والترميم يعرف عنك وعن أميّة، وها هو يسرد ما يعرف متقنعاً بقناع تاريخ العائلة: أعوذ بالله، فإن كان الأمر كذلك، فلماذا؟ وما المراد من هذا.

صمت قليلاً: يجب أن أعرف المحرر الذي كتب الفصول الأخيرة. ولكن.. تراجع.. لن توافق المؤسسة، فقد كان الشرط أن يتم التعامل بعد تقديم الاستمارات وتوقيع العقد عبر البريد الإلكتروني، فلا لقاء، ولا مراجعة، ولا احتجاج، وإن بدا لك ما تحتج عليه، فاحتج، وسنعيد كتابته بما يرضيك، ولكن، لا لقاء، ولا مراجعة شخصية.

شرد قليلاً، ولكنه يحدث عن تفاصيل لا يمكن أن تكون من بنات الخيال. لا يمكن أن تكون روائية، فهذا المشهد لنادرة تستلقي هذه الاستلقاءة المستسلمة للسعادة، وهذا الـ.. ..

أغمض عينيه.

12

كانت أم راضي قد تركت الأب يصحب الأولاد إلى كرم داريا الذي اعتاد على ضمان ثماره كل صيف، فيصحب الأولاد والبنات، وزوج أخيه المتوفى وأبناءها فيقيمون في الكرم يقطفون ثماره، ويأكلون ما استطاعوا، ويحفظون ما استطاعوا مجففاً ومربى، ومخللاً وبكل الطرائق التي اعتادوا بها حفظ فائض ثمار الصيف.

وكان راضي قد اعتاد الهرب من داريا والانضمام إلى أصدقائه في مغامراتهم في المسبح والمرج، وقراءة الشعر وتأليف المغامرات يصطنعون بها غراميات ومغامرات يقلدون فيها شخوص جرجي زيدان، وادغار والاس، والفرسان الثلاثة، وغادة الكاميليا، وآلام فرتر، و.. .. أبطال ألف ليلة.

كانت أم راضي تعرف أن أمية عند زوجها أبو حسين الذي عاد من رحلاته إلى بغداد والبصرة والكويت، فمضت مع زوجها إلى بيت الصيفية في داريا تستكمل قطاف المشمش للمربى، والحصرم للعصير، وورق العنب للكبيس في انتظار نضج العنب والتفاح واللوز وقمح البرغل لذلك لم تكترث كثيراً لغياب راضي عن الكرم والتحاقه برفاق الحارة، ولم يكن راضي يطيل غيابه بعيداً عنهم، فغيابه لا يتجاوز اليوم أو اليومين، وأم راضي

المتسامحة مع بكرها لم تكن تطيل غيابها عن البيت بأكثر من هذا، فبيت مهجور نداء للّصوص والغبار والحشرات.

فتحت الباب الخارجي بمفتاحها الخاص، خلعت نعليها على عادتها حال دخولها إلى البيت تبرِّد باطن قدميها بالبلاط البارد، وكانت هذه العادة نكتة الأب والأولاد الدائمة، بل كان الأب يدعوها أحياناً بالحافية، فكأن الحذاء تلبسه في مشاويرها وزياراتها، الحذاء ذا الكعب العالي الذي يجعلها تخطر في الحارة في خطوٍ لا يتساوق مع سنها، وأبنائها، هذا الحذاء كان العبء الثقيل تتخلص منه حال دخولها البيت. فقد كان حبساً وألماً لقدميها وخاصة في الصيف، فما إن تفتح الباب حتى تخلعه وراء الباب مباشرة، ثم تلحقه بالجوارب وتعلق معطفها على المشجب في الدهليز، ثم تنزلق إلى الباحة حيث كرسيها إلى جانب البحرة لتضع قدميها تحت الماء الدافق عن البحرة تبترد وترتاح.

دخلت حافية تتجه إلى البحرة حيث كرسي الابتراد حين سمعت حركة خفيفة. فالتفتت تتوقع قطة حين رأتهما..

كانا متجمدين تماماً ينظران إليها كتمثالين من شمع مذعور. نظرت إليهما في غبشة الغروب، ورأته مستلقياً على ذراعها وهي في الشلحة مكشوفة الساقين. أرادت ألا تصدق ما ترى. فابتسمت تعتبر ما رأت من ألعاب الطفولة التي اعتادا لعبها. أضاءت اللمبة الكبيرة تضيء الباحة، فذعرت أمية. وانطوت على نفسها، فكأن النور دبَّ الحركة في التمثال الشمعي فانطوت لتصبح أضأل من راضي الفتى.

رأت أم راضي المشهد كاملاً. راضي في نصف عريه مستلق على ذراع أمية، وأمية في الشلحة وذراعها تحت رأس راضي، لم تكن أمية تبدو المرأة الناضجة، الزوجة لسنوات للمخيف أبو حسين، بل بدت في جسدها الضئيل تحتضن راضي، وكأنهما ثنائي خلقا لمثل هذا المشهد.

أرادت أم راضي أن تستدعي غضب الحارة حين تشهد مشهداً مخالفاً للأعراف كما يجب أن تفعل، ولكن الغضب لم يستجب، أرادت أن تستدعي العويل، والفضيحة، وغضب السماء والأرض والأبوين.. ولكن كل ما استدعت نأى عن الاستجابة. ورأت راضي الولد لم يشبع الحليب بعد، الولد لم يشبع الحنان والضم إلى الحضن بعد، وتساءل شيء ما غريب في قلبها. أوقد كبر الولد؟.. معقول؟ وهذه المجنونة هي من شدَّه إلى الكبر؟.. معقول؟

ووجدت بسمة فخر تزحف إلى شفتيها، الولد صار رجلاً وصار النساء يشتهينه، وحين أحست البسمة تزحف إلى شفتيها أحست أن البسمة تحدٍّ للأعراف والمواضعات وهي أمر غير لائق، لا يجوز.. أتبتسم لمشهد ابنها الطفل في هذا الوضع.

كانا متجمدين، وكانت متجمدة.. كان الثلاثة مرعوبين من الموقف غير المتوقع، وكان يمكن لهذا الجمود والحرج أن يطول أمده فالعاشقان شبه عاريين شلّهما الخجل، والأم المرتبكة قد شلّتها الحيرة لا تدري ما تفعل.

وأخيراً، وبطريقة لا تعرف كيف ملكتها وجدت نفسها تنسحب إلى غرفتها تجر ساقيها غير قادرة على اتخاذ قرار. ولكنها ما إن فتحت باب غرفتها حتى هرع راضي إلى ثيابه، فلبسها وانطلق هارباً من البيت تاركاً أمية تحت رحمة أمه التي دخلت غرفتها لا تعرف كيف تتصرف. .. ..

تنهد راضي، تنهد متألماً: ما الذي أخرج كل هذا الألم إلى السطح.. ما الذي أخرج أمية والأم، والـ.. .. وتنهد ثانية، ورنَّ جهاز الهاتف. رفعه أمامه يريد أن يقرأ الرقم، ولكن الإضاءة لم تكن كافية، وعيناه لم تكونا كافيتين للرؤية.

عدَّل من وضع النظارة، ولكن المكالمة انقطعت. نظر إلى ساعة الحائط. كانت الثانية: من يهتف له في وقت كهذا؟ لا بد أنها مكالمة خاطئة.. وضع السماعة.. أغمض عينيه يحاول هضم الاضطراب الذي وجد نفسه فيه.. أغمض عينيه، وما كاد حتى رأى نفسه في الحارة يتسلل مبتعداً عن البيت. رأى مجموعة الأصدقاء مجتمعين عند عبد الغني السمان، وهم يلعبون لعبة فتح زجاجات الكازوز. يعرفهم كيف يخضونها، ثم يفتحونها فجأة فإن فاضت فبها، وإن لم تفض.. .. استدار مبتعداً عنهم. تسلل عبر حارة، فحارة. كان لا يريد لقاء أحد. كان يريد الهرب من المواجهة، ليس الأم فقط، بل الجميع.. كان يعتقد أن الجميع يريد أن يدخل إلى سرانيته.. الكل يريد أن يسمع قصة حبه، قصة قدرته على الوصول إلى حلم شبان الحارة جميعاً، أمية. كان يشعر برغبة في الحديث والتفاخر، ولكنه كان يشعر أنه لو فعل

هـذا فسيخسـر أجمـل شـيء عاشـه.. العلاقـة الخـارجـة عـن كـل الحكايات والقصص. إنه الآن روميو، وهو الآن قيس، وهو الآن..

سمع زمور سيارة محذرة، فالتفت مبتعداً، وكشف له نور السيارة أنه كان على طريق داريا. أكان يريد المضي إلى حيث الأب والأهل في بيت الصيفية. لم يكن واثقاً مما يريد..، ولكنه وجد قدميه تسوقانه. كان خائفاً من مواجهة الأم، وكان خائفاً من مواجهة أمية، وما سببه لها من فضيحة، ولم يجرؤ على اتخاذ موقف، وما كان قادراً على اتخاذه، فمضى.

ساعة، ساعتان لا يعرف، ولكنه أخيراً تسلل إلى الكرم، فالبيت فالسطح، فناموسية الأولاد. انسل، واستلقى طالباً النوم ولكن أنى للنوم أن يقربه وهو المعذب بعيني الأم وبكفّي أمية اللتين تعلقتا به، وهو ينسل هارباً، لا يعرف إلى أين.

سمع تكة زر الكهرباء. فالتفت إلى الصالون. كانت مروة وكانت تمضي إلى الحمام شبه مسرنمة. رأت نور مكتبه، فاتجهت إليه لتفاجأ به صاحياً، فتتساءل عن سبب أرقه، ثم تسأله أن يمضي إلى النوم، فلقد اقترب الصبح.

محكوماً بالعادة مضى. تمدد في سريره.. وقبل أن تعود من الحمام كان قد نام.

13

وضع ركوة القهوة والفنجان أمامه، أقفل الكومبيوتر، وأصمت هاتفه النقال، واستسلم للموسيقى الخفيفة المنطلقة من مذياعه القريب. كان يريد أن يهضم كل هذه التجارب التي مرَّ بها منذ أن زار تلك المؤسسة الغامضة.

فكر؛ لم لا أزورهم ثانية، لم لا أثرثر معهم، فلعلي أصل إلى بعض السلام الذي افتقدته منذ عرفتهم. ولكن. هذا مخالف للاتفاق. حسن.. ولكن الجنرال سعيد مضى إليهم، واصطحبك معه. دعنا نجرب.

وبسرعة وقبل أن يشرب قهوته وجد نفسه يغيِّر ثيابه ويركب سيارته إلى المكان الأقرب إلى حيٍّ القيمرية حيث اصطحبه الجنرال سعيد.

رصف السيارة.. مشى، وفكر: هه.. نتريض لبعض الوقت، ونفاجئهم بعرض شرب القهوة مع هذا الفتى – الفتاة – الكهل.

كان يعرف الحي، ويعرف حاراته، فمضى يشق الحارات.. كان يتفحص الالتواءات، والمداخل يريد قراءة اللافتة الصغيرة المخادعة: مؤسسة الإنشاء والتعمير، ولكن البوابات تتوالى،

والمداخل تتلاحق، ولا لافتة، ولا بوابة خشب عتيقة مزينة بالمثمنات والمربعات. كرر المحاولة، ولا لافتة ولا بوابة. رجع إلى النوفرة، المنطلق الأول، ثم أعاد السير على الطريق القديم. الحي يعرفه جيداً، قضى جزءاً كبيراً من يفاعته في مدرسته، فكيف يضيع فيه.

كان الحي كما تركه قبل عقود. لم يتغير فيه إلا بعض الهرم والتآكل، والكثير من أسلاك الهاتف والكهرباء المتناثرة والمتدلية في كل مكان، ولكن أين البوابة؟ لا بوابة. أين اللافتة؟ لا لافتة.

عاد ثانية إلى النوفرة. كان عامل المقهى ينشر الطاولات والمقاعد. استدار عائداً إلى الحي يخترق الحارات الأخرى التي كان على ثقة بأنه لم يدخلها، ولكن ما يدريك. الذاكرة خداعة.

وصل إلى باب توما، ولم يجد المدخل، ولا اللافتة.

أحسَّ بالجوع والتعب، فقرَّر أن يعود: سأصحب الجنرال سعيد معي في المرة التالية فهو يعرف الطريق.

ركب سيارته. عاد إلى البيت. وجد رسالة من مروة تخبره فيها بأنها مضت لشرب القهوة عند صديقتها مريم، وأن الخادمة ستعد له الإفطار. تنحنح، غير سعيد، ومضى إلى غرفته المكتب. كانت القهوة قد بردت، فاستدعى الخادم وطلب إعداد قهوة جديدة، فقالت: والإفطار. قال: فيما بعد. فيما بعد.

جرع جرعة رشيقة من فنجان قهوته البارد يستعرض ضياعه غير المبرر وغير المفهوم عن مبنى المؤسسة. التفت إلى الكومبيوتر. كان يريد تشغيله ليقرأ صحف اليوم حين رأى على الرف القريب صفوف كتب المذكرات التي وردته في الشهور الأخيرة. قال: أتأكد من دور النشر. مَنْ نشر كل هذه المذكرات؟ اقترب منها. تفحصَّها، ولم يتفحصَّها من قبل ليكتشف أنها جميعاً من نشر مؤسسة الإنشاء والترميم.

صفَّر في استغراب: كيف عَرفتْ طريقهم، أو كيف عرفوا طريقها حتى نشرت كل هذه المذكرات. فكَّر، قال: أقلب مذكرات الجنرال سعيد لأرى إن كانوا قد اصطنعوا له العالم الخيالي التاريخي كما صنعوا لي.

عاد إلى مقعده.. وضعت الخادم أمامه الصينية وفيها ركوة القهوة والفنجان والماء البارد، فصبَّ لنفسه فنجاناً جديداً. رشف رشفة طويلة، فقد كان يحس رأسه في حاجة إلى كمية كبيرة من القهوة. فتح الكتاب في منتصفه ليفاجأ بعنوان غريب: أبو حسين.

رفع رأسه مندهشاً: أيتحدثون عن أبو حسين نفسه سائق الباص على طريق بغداد.

انحنى على الكتاب .. ..

كانوا يظنون أنه يكحِّل عينيه، وقد تراهنوا طويلاً على أنه يكحِّل عينيه، وقد قال راضي: إنه يكحِّل عينيه ليقاوم ضوء

الصحراء الحاد الأبيض بلا ظلال، ولم يصدقوا، وتراهنوا على تكحيل عينيه، ولم تكن هناك من وسيلة للتأكد. ولكن سعيد تشجَّع مرة، فانتظر مروره تحت شرفة بيتهم في طريقه إلى الباص، وسكب عليه سطل ماء كامل. ثم اختفى غير مبال بلعنات أبو حسين وصراخه، وحين طرق الباب في غيظ، وكان هذا ما ينتظره سعيد، فتح الباب له في براءة، وتساءل: إن كان أبو حسين يريد خدمة، وحدّق ملياً في وجهه يريد أن يرى سيلان الكحل على وجهه، وحين قدمت أم سعيد تحت صرخات أبو حسين الغاضب لابتلال ثيابه، وعرفت بما حدث، فاعتذرت بألاّ أحد في البيت ليسكب الماء وسعيد كان يدرس في غرفته، ثم جاءت ببشكير نظيف، واعتذرت منه طالبة أن يجفف وجهه ورأسه، فجففهما، ومسح بهما على قميصه يجففه، ومضى حائراً. فبراءة الجوابين أقنعته بأن الماء لم ينسكب من بيتهما، ولكن سعيد كان قد عثر على الجواب الذي انتظره طويلاً حين تفحص المنشفة، واكتشف ألاّ كحل عليها. ليس هذا فحسب، بل أخفى المنشفة في كيس ليحمله إلى رفاق الحارة ويؤكد لهم أن راضي كان على خطأ، فكحل أبو حسين رباني، وليس مصطنعاً.

فيما بعد سيكشف لهم راضي عبر جارتهم أمية أنه كان يمسِّد شاربيه بالكوزماتيك، فهذه الانتصابة الدائمة للشاربين الفحميين لا يمكن أن تكون ربانية، وحين يكبر سعيد ورفاق الحارة، وتكبر شواربهم سيكتشفون أن الشوارب لا تنتصب دون

مثبتات، وكان الكوزماتيك قد اختفى من أدوات زينة الرجال.

كانوا يخافون من حضوره الخشن، وصراخه الخشن، وزموره الصحراوي القوي، وكان يقود الباص إلى الحارة، فيسدُّ نصفها، ويجعل الجيران يدقون الباب كلما أرادوا لعربة أن تمر، أو لطنبر يحمل حمولته أن يصل إلى الدكان، فيتنازل ويخرج بالكلابية المطرزة المعطرة التي جاء بها من البصرة، ويشغِّل الباص ثم يتقدم به بضعة أمتار ليمرَّ الطنبر، أو العربة، ثم يعود به إلى موقعه عند الباب تماماً.

استند راضي إلى ظهر مقعده يفكر: أبو حسين.. الباص.. أمية.. العروس الجديدة حملت إلى بيت أبو حسين، لقاؤه الأول بهما.. .. ..

كان راضي يبكي منطوياً على شيء يضمُّه إلى صدره قرب باب بيت أبو حسين. فتحت أمية الباب تتفحص الشهيق المكتوم، والأنين المخنوق، فرأته. وستقول له: أعوذ بالله كم كنت صغيراً، وديعاً، وأنت تبكي عليه.

كان الأبوان قد منعاه من تربية الكلب الصغير الأبقع الذي سرقه من وجاره في زقاق الفحامة. قالت أم راضي: نجس، وقال أبوه: يقطع الرزق.. .. فحمله إلى الخرابة المجاورة، وربطه فيها يحمل إليه بقايا طعام البيت، وبقايا نفاية اللحم من اللحام.. .. وشاء سوء حظ الكلب وسوء حظه أن يهرب من رباطه بينما كان يطعمه، وحين وصل الكلب إلى الحارة كان أبو حسين يرجع الباص استعداداً للمضي به إلى الكراج، وكان راضي يطارد

الجرو الذي ظن أنه يعابثه، فاختبأ تحت العجلة مباشرة.

صرخ راضي، ضرب الباص بكفيه، ولكنه كان كمن يصفع حجراً، فلم يره أبو حسين، ولم يهتم لما جرى، وحين تجاوزت العجلة جثة الجرو المهشمة حمله راضي في حضنه وأخذ يبكيه.. .. مضى أبو حسين بالباص. وبكى راضي جروه القتيل، وفتحت أمية الباب وأدخلته إلى البيت تنظف ثيابه وتمسح دمعه، وفجأة تكتشف العروس أنهم أقرباء أبو حسين.

وحين تنتهي عطلة أبو حسين التي اختارها لعرسه وفرحه سيخاف عليها البقاء وحيدة في البيت، فيسكنها عند أهل راضي.. هه. أطلق راضي نفثة سخرية.. .. وبعد سنتين ستحمل نولها إلى غرفتها في بيت أم راضي، وتعود إلى نسج البسط فقد تخلى أبو حسين حتى عن الإنفاق عليها.

وسيراها راضي تتنهد، وتشرب القهوة مع أمه.. وكان راضي يتشرب حكايتها وتظنان أنه غارق في القراءة على مقعده البعيد: لم يأذن الله بالحمل، ولم يقصِّر أبو حسين بمعايرتي، واتهامي بأنوثتي، لم يقصر في الصراخ في وجهي، وبأني بسبب برودتي لا أحمل. برودتي؟ سألتُ أمي، رفيقاتي، قريباتي. كيف يمكن تجاوز البرودة، ولكن واحدة منهن لم تكن تملك الجواب، فكل ما كن ينصحن به كنت أعرفه، ولكن.. ما الذي يمكن أن يدفع بالحرارة إلى جسد مرعوب.

نظر إلى ساعة الحائط.. كانت العاشرة، شعر بشهوة هائلة لتشغيل الكومبيوتر واستقبال الصحف، والملف الجديد، و.. الـ..

ولكنه صمد. كانت وهي الأصلية، كل حبة وقية ترعبه.. الآن.. لا يريد.

هرب إلى مذكرات سعيد.

كان أبو حسين واحداً من أولئك المغامرين المبكرين الذين عملوا على طريق دمشق بغداد سائقاً لتلك الباصات المبكرة العجيبة الشكل على طريق غير معبدة يعرفها من آثار السيارات السابقة، ومن حدس ورثه عن أجداد كانوا يعملون على طريق القوافل من دمشق إلى بغداد، ومن دمشق إلى المدينة، ومن دمشق إلى.. .. .. كانوا مغامرين لا دليل لديهم إلا النجوم وذاكرة هائلة تجعل من صخرة هادياً، ومن تلة دليلاً ومن اتجاه الريح ورائحة النخيل، وأسراب القطا وقطعان الخدري وحمار الوحش والغزلان هادياً إلى الواحات والماء ونقاط الاستراحة.

كان أبو حسين واحداً من أولئك الرجال المبكّرين الذين أعادوا إلى طريق القوافل سيرتها الأسطورية مذكرين بمغامري الصحراء ومتحدي الرمال، والساقطين عطشاً وجوعاً وضياعاً.

كان معلماً في الميكانيك، فمن يصلح الباص إن تعطل في منتصف الصحراء ومعه خمسون راكباً. كان لديه العدة شبه الكاملة، وقطع غيار لكل عطل طفيف أو متوسط ممكن، وكان ينتمي إلى ذلك الجيل من الرجال الأقوياء المتوحدين المعطائين، فكثيراً ما رأى باصاً أو سيارة صغيرة قد انقطع بها الطريق، فينزل، ويعرض خدماته، ويصلح كلَّ عطب يمكن إصلاحه، فإن كان العطب أكبر من قدراته تبرع بقطر السيارة

الأخرى إلى الواحة، أو المدينة الأقرب حيث يوجد من هو أكثر تخصصاً.

كان سعيد وأبناء الحارة ينظرون إليه في خوف، وفي إكبار فهذا الرجل المخالف لرجال الحارة بيض الوجوه مستديري اللحى المتمتمين بالدعاء والصلوات بين كل صفقة وصفقة، وثرثرة وثرثرة، والراضين أبداً، المبتسمين أبداً، السعداء أبداً، المطمئنين إلى غدهم الذي اشتروه مسبقاً بدعوات شيخ الجامع، وبالصدقات يعطونها للمتسولين وعابري السبيل، ثم يلتفتون إلى السماء وكأنهم يُشهدون على ما قدَّموا في سبيل الغد الجميل.

كان أبو حسين مختلفاً عنهم في لباس سفره، الأوفرول الخاكي المزيّت في بعض جوانبه، ولكنه المغسول دائماً حتى ولو لم يستطع الغسيل إزالة البقع الشحمية عنه، وكانوا يرون فروته السوداء السابغة مرمية على ظهر مقعد السائق في إهمال رجولي يلبسها في الشتاء، وفي ليل الصحراء البارد.

كانوا يتبادلون عنه القصص التي كان سعيد يأتي بها من حيث لا يعرفون، فمرة يحدثهم أنه كان قد عرف طريق بغداد للمرة الأولى حين شارك المتطوعين الذين مضوا للحرب مع رشيد عالي الكيلاني ضد الاحتلال الإنكليزي، ومرة يحدثهم عن الصناديق والجيوب السرية في الباص يهرب فيها السلاح، و.. .. الحشيش أحياناً، وهذا ما عوَّضه عن نفقاته الكبيرة هناك في بلاد السندباد.

وكانوا يضحكون حين يحدثهم سعيد أنه السندباد الباصاتي وأن السندباد البحري لم يكن أشجع منه، ولا اقدر على المغامرة ولكن الوحيد لم يحبه، ولم يصدق الحكايات التي كان سعيد يلصقها به كان راضي، ولم يستطيعوا أن يخمنوا أبداً سبب هذه الكراهية. .. ..

وضع الكتاب على ركبتيه. إذن فقد كانوا يعرفون بكراهيته له!!

أعوذ بالله. كأن أبو حسين مذكرات الجنرال سعيد أبو حسين آخر مخالف لأبو حسين أمية، أبو حسين الذي داس جروه دون شفقة، ابتسم في سخرية حزينة. الآن يا راضي وفي هذه السن تريد أن تحاسب رجلاً على دهسه لجرو. الآن وأنت من يجب أن تحاسب. أنت من تقرَّب من زوجته الشرعية، ولكن.. .. من تقرَّب. ممَّن؟.. .. القوانين تقول إن الراشد إن قارب قاصراً. فالمسؤول هو الراشد، ولكن.. .. أنت مؤمن بهذا الكلام؟ .. أهذا دفاعك؟.. .. ألست من حاصرها، وطاردها واستغل هجرها وعزلتها وحرمانها؟.. من تحرَّش بمن في هذه العلاقة؟ القاصر بالراشد؟ أم الراشد بالقاصر؟ أم.. ..

هزَّ رأسه كمن يهرب من المحاكمة غير السوية، وغير المتوقعة.. .. ولكن.. .. وضع الكتاب على الطاولة. انتصب.. شغَّل الكومبيوتر يريد الهرب إلى الانترنيت، وصحف اليوم، ولكن الرسالة كانت تنتظره، فضحك في تهكم: ما أشد إلحاح هذا الرجل وبهدوء تسلل السؤال ثانية: من هو؟ من هو؟

فكر: سأخاطبه. سأسأله: من أنت؟ ثم تردد: وماذا إن لم يستجب.. هه؟ وما الخسارة إن لم يستجب؟.. بل ماذا إن استجاب؟ ما الحوار الذي ستديره معه؟

كانت الرسالة صورة الصبي في الكنزة المخططة وإلى كتفه علق حزام.. .. أحدَّ النظر، وشهق: يا إلهي. إنه حزام ترمس البوظة، وما كاد يقولها حتى انطلق الصوت: وهي الأصلية.. .. أمية.

نسخ العنوان أرسل الصورة، ولم يكن ليهتم به من قبل، ثم وجَّه إليه السؤال: من أنت.. وماذا تريد؟

لم يكن يتوقع جواباً سريعاً، فهو يعرف أن المهاذرين أمثال ملاحقه هذا لا يرغبون في الحوار.. .. ولكن.. .. قال: أجرب، وأرسل السؤال. ولكنَّ جواباً لم يأتِ، وكان هذا ما يتوقعه، وكان عليه أن ينتظر حتى الصباح التالي ليجد مع البريد القادم الجواب يقول..

اعرف نفسك. الصورة أمامك. اعرف نفسك، وسأسهل الأمر عليك.

وقفزت الصورة الجماعية، ولكن مع وجه جديد. أزيل به امّحاء وجه جديد في الصورة. كان الولد يحمل ترموس البوظة وقد علّقه إلى الأمام.. .. طبع الصورة. جاء بالمكبر. حدّق بالولد. لا. لا يعرفه.. حدّق بالترموس، وفوجئ باسم الشركة صاحبة الترموس، أمية. وأغمض عينيه كمن يتفادى صفعة.

14

في الصباح الباكر تسلّل إلى البيت راجعاً، من كرم داريا، تسلّل آملاً أن يلقاها فيعتذر عن جبنه وهربه بالأمس، أمل أن يلقى أمه، فيبكي أمامها، ويهدد بالموت و.. .. كان يحس أنه يتمنى لو يموت فعلاً، فما فعله كان خارجاً عن كل قصص الفروسية التي قرأها، والتي أعاد صياغتها في حكاياته مع رفاق الحارة، وفي التنهد معهم يتمنون أن يعيشوا واحدة من تلك الحكايات الرائعة، الموت في سبيل الحب، السم، المرض، التشرد في الآفاق، ولكنه الحب العظيم.. .. حب الفرسان الثلاثة، وغادة الكاميليا، وآلام فرتر.

أما ما حصل، فهو أنه هرب، وتركها لبهدلة أمه، وفضيحتها أمام الجيران.. .. لم ينم.. .. في ليله الطويل.. .. لم ينم يفكر في إيجاد حل ينقذ ماء وجهه أمام رفاق الحارة، وأما.. مها، وأمام نفسه، وقبل أذان الفجر عرف ما سيصنع، سيأخذها ويهرب إلى اللاذقية، إلى حلب، إلى دير الزور.. إلى آخر الدنيا. سيعيشان معاً، سيصحبان النول معهما، وسيعيشان من الشغل عليه.. تنهد.. ستكون حياة كاملة الرومانسية.

تسلّل إلى البيت، وكانت الأم نائمة، فتسلل إلى غرفة أمية يوقظها بقبلاته كما عاهد نفسه، ولكن الأسى كان في اكتشافه أنها لم تكن في غرفتها.. بحث ليكتشف أنها قد تركت البيت، ومضت، لم يجرؤ على سؤال الأم، فتسلل خارجاً. قال: لقد مضت إلى بيت أبو حسين تحتمي فيه، ولكن المفاجأة كانت في أنها لم تكن في بيت أبو حسين. عرف ذلك من أوراق الشجر اليابسة في شق ما بين الباب والعتبة، والغبار العالق بكل شيء.

مضى إلى بيت أهلها، ولكن لا جواب، ولا أمية.. .. مضى إلى باب الجابية يتلفت باحثاً عنها بين النساء.

تجاوز السكة والتراموای. تجاوز صياح الباعة، ودخل في عتمة سوق السكرية، مر إلى جانب زقاق البرغل. عمَّ تبحث يا راضي.. عمَّ تبحث؟. لا يعرف عمَّ يبحث وإن كان في جزء صغير خفي فيه يعرف أنه يريد أن يراها، ولكنك لن تراها في هذه الحارات. فأين إذن، وأنا لا أعرف إلا هذه الحارات، ولا أعتقد أنها تعرف غيرها.. .. حسن، فهل تتوقع أن تراها فجأة، تقفز من هذه الحارة، أو هذا الدكان، ولماذا.

أمعن في سوق الصوف، وسمعه ينادي: وهي الأصلية، أمية الأصلية، ألياسكا. أعوذ بالله – تمتم – أمية. أمية ثانية. مضى إليه، وقد أحس بظمأ هائل يتنامى في حلقه، ولن يبلّه إلا حبة بوظة يبيعها هذا الذي ينادي من قلب محروق: وهي الأصلية، أمية الأصلية الياسكا. مضى يتابع الصوت، ولكن الصوت كان

يبتعد. وصل إلى مفترق حارات، في أي الحارات؟ أصاخ، ولكن الصوت كان يبتعد، ويبتعد دون أن يعلن في أي الحارات يختفي. توقف، لا بد أن حارة ما ستعلن عن وجوده.. لا بد أن الصوت سيتجلى بطريقة أكثر صراحة في واحدة من هذه الحارات، ولكن الصوت أخذ يخفت، ويخفت حتى قارب التلاشي. كان الصوت يصل إليه.. .. أمية.. أمية.. وأدرك أنها ستعتصر روحه قبل أن يلقاها، فاندفع في واحدة من الحارات كان يعرف أنها ستودي به إلى حارة البدوي، أو إلى الشاغور. لم يعد مهماً، اركض يا راضي، اركض، فلا بد أن تجدها عند مفترق آخر، أو طريق أخرى.

ركض، ولكن الصوت حافظ على موقعه عند حافة التلاشي. لم يتلاش.. ولم يعل، بل ظلّ يموج ويلوّح وهي تموج معه.

مضى يلوب والأسى ينغل فيه، والبائع الملعون ينادي: وهي الأصلية.. وها هو يبحث عنه دون أن يستطيع الوصول إليه، أو إليها.

ترى أين اختفت هذه المرأة المصنوعة من قرصات على ظاهر الكف، ورائحة آسٍ وريحان.

كان الصوت يلوّح، ويلوّح: وهي الأصلية. أمية. الأصلية. وكان يتابعه كمن يتابع السراب، وسيظل يتابعه إلى أن يقرّر أن يلعب لعبته، فلعله يلقاها.

عاد إلى الصورة الجماعية الجديدة، تأمل صورة بائع

البوظة.. تأمل الترموس المعلق إلى صدره، وقد كتب عليه بوظة أمية.. .. ثم خطر له أن يسأل: ترى ما الذي يذكره الجنرال سعيد عن حكاية بوظة أمية.

فتح كتاب المذكرات، قلّب فيه.. قلّب. كان يقرأ السطر الأول، والسطر الأخير في الصفحة، فيعرف السياق، لم يكن يريد قراءة المذكرات كاملة.. كان يبحث عن كلمة أمية إنها المفتاح. و.. .. وجدها.. .. ..

كان أمراً مضحكاً تماماً أن ترى راضي ابن الخاروف في رجل البنايات والدكاكين والأموال لا يعرف أين يحفظها وهو يحمل ترمس البوظة يدور في الحارات ينشد:

أمية. وهي الأصلية أمية

كل حبة وقية أمية

بتاكلها العجوز بترجع صبية أمية

بياكلها الختيار بيرجع غندار أمية

بتاكلها الصبية بترجع حورية أمية

بياكلها الجوعان بيرجع شبعان أمية

بياكلها العطشان بيرجع ريّان أمية

أنت الدوا لكل الأوجاع أمية

كان نشيداً غريباً ينادي مروّجاً لبوظة أمية.. لم نسمعه من

قبل، وحين سيسأل الرفاق راضي من أين جاء بهذا النداء. قال إنه قضى الليلة السابقة كلها يضعه.

كنا نلاحقه عن قرب، وهو ينادي يتنقل ما بين باب الجابية إلى باب سريجة إلى زقاق الحطب، إلى قبر عاتكة، إلى السويقة في نداء واحد لا يتوقف. وأخذ الرفاق يتخلفون، يبتعدون، وأخيراً لم يبق سواه يمشي في نشاط، وما يزال صوته يدوي دون تعب.

وضع راضي الكتاب من يده وبسمة سخرية لم تفارق شفتيه وهو يذكر الصبي يقطع الحارات ينادي بأعلى صوته أمية التي تشفي المريض، وتعيد الشيخ صبياً. كيف كيف كتب هذا النشيد. أكان نشيداً حقاً، أم.. ..

عند سؤاله هذا ذكره.. أعوذ بالله. إنه أمجد بائع البوظة الذي طارده لنهار كامل ينادي أمية، وهي الأصلية، ولكنَّه أبداً لم يلقه.. .. ما الذي جاء به إلى هذه الصورة.

وبهدوء شعر أنه يجب أن يعلن لصاحب هذه المهاذرات أنَّه عرف أنه أمجد.. شغَّل الكومبيوتر. كتب رسالة: إنه أمجد بائع البوظة. هه.. وماذا بعد.

ضغط زر الإرسال، فابتعثت الرسالة، انتظر الرد. ولكن لا رد.

تنهد، كانت الذكريات والأفكار الجديدة أكبر من قدرته على الاحتمال والهضم. استند إلى ظهر مقعده، وقبل أن يغمض عينيه رأى رفَّ المذكرات في مواجهته، فأطلق نفثة تهكم:

ترى ما سيقولون عن: وهي الأصلية أمية.

جاء بكتاب المذكرات. قلّب، وقلّب على عادته، لا يريد التوقف إلا عند حادثة البوظة هذه، و.. .. وجدها.

كان ذلك موسم البوظة، والآيس كريم، والدندرمة والمثلجات. كانوا يخترعون لها أسماء جميلة.. أمية.. بغداد.. الرشيد.. صقر قريش، الأندلس.. اشبيلية. ولا بد للمرء أن يتساءل: ما الذي كان يغريهم باسترجاع هذه الأسماء، ولم كانوا يتعلقون بها أسماء للمثلجات والمرطبات والمنعشات، والمقاصف والفنادق، والاستراحات.

أكان إيقاع الأسماء ما يغريهم تعلقاً بماض أجمل، أم أنهم اختاروا هذه الأسماء ليجعلوها مصّاصات لهم. .. ..

وضع الكتاب من يده: أعوذ بالله.. .. كيف استطاع محرر سيرة الجنرال سعيد استرجاع حكاية راضي الخاروفي الذي سيصبح رجل الدولة المرموق يحمل ترموس بوظة، يجول في الحارات والأسواق ينادي: وهي الأصلية.. أمية.

ابتسم في سخرية وقور، وربما خفّف عنه الإحساس بالخجل أو الارتباك أن قصة كهذه لم تثر حين كان متسنماً كرسيه الكبير، أما الآن، وبعد الهجر والعزلة، واستيقاظ الذكريات التي هيّجتها كتابة السيرة، فلم تثر فيه إلا بعض شفقة وتعاطف

مع مغامرات ذلك الصبي يجول في الحارات ينادي على بوظة أمية.

انتصب.. من هي هذه المؤسسة؟ ما هي هذه المؤسسة؟ من صاحبها؟ من منشئها؟ ومتى أنشئت؟ وما الغرض منها، وكل منشوراتها مذكرات للكبراء بعد انهيار كراسيهم، وغيابهم عن دائرة الفعل؟ ولكن من هي هذه المؤسسة؟ أتعرف أجهزة الأمن بوجودها، أم أنها خفيَّة حتى عنهم؟ ولكن كيف تكون خفيَّة عنهم، وحقل عملها كله هو هؤلاء الكبراء وصناعة أساطيرهم، واصطناع آباء عظام لهم، وأجداد خارقي البطولة والفتنة؟

انتصب. قال: أغيِّر ملابسي وأتمشى، وأهرب من هذا الكهف حشرت فيه نفسي، مع الرسائل الإلكترونية، والذكريات التي تهيِّجها.

اتجه إلى الباب، ولكن الكومبيوتر الذي نسي إطفاءه أزّ. أراد تجاهله، ولكنه لسبب ما عاد إليه، أهو الفضول، أهو إبداء عدم الاكتراث، وألا شيء يزعج؟ ضغط الزر وظهرت الصورة الجماعية وفوقها فقاعة: هاي.

نسخ الصورة فحصها بالمكبِّر، فاكتشف أن وجهاً جديداً قد أضيف إلى الوجوه الممسوحة مع جملة: اعرف نفسك.. .. قرِّبه.. بالمكبِّر.. كبّره.. كبِّره.. هذا الوجه.. هذا الوجه ذو العين مكسورة الجفن الأيسر.. إنه.. إنه.. إنه فايز، ابن صاحب المكتبة.. وأطلق ضحكة انتصار.. ها أنت تستعيد الذاكرة. ها أنت تستعيدهم جميعاً. سعيد، أمجد. فايز.. فايز المكتبة

الصغيرة المحفورة في جدار البيت. جدار مهدوم من غرفة صغيرة وراء الباب وقد حوّلت إلى دكان، ثم إلى مكتبة.. مجلات السندباد، المضحك المبكي. حط بالخرج.. وروايات الجيب، روايات الهلال، و.. .. أووف.. .. روبنسون كروزو.

كان قد وصل إلى الباب الخارجي، فانزلق منه شبه هارب. لا.. يجب أن أتمشى.. لا..

15

ركب سيارته. روبنسون. لا.. وصل قريباً من النادي.. ..
روبنسون كروزو.. سأدخل إلى النادي.. الجزيرة المعزولة.. سلّم على أصدقاء. وكان الاسم يلح.. توقف فجأة.. متشاجعاً وهتف.. روبنسون كروزو.. هه ما الغريب في هذا ، ورنَّ الموبايل. تفحّص الرقم. رقم مجهول. لن أردَّ. لا بدَّ أنه المهاذر المطارد.. رنّ ثانية. أطفأ الجهاز، ولكن رنيناً آخر كان يلح: روبنسون كروزو. رونسون كروزو.

استسلم إلى مقعد حجري منزو.. استرخى. .. .. ..

وقالت أمية وهي تضمه إليها في استلقاءتهما في باحة الدار:

-أنت مجنون.

وهتف راضي شبه باكٍ.: لا والله. لست مجنوناً.. لم لا نفعل كروبنسون كروزو.

-ماذا؟ روبنسون كروزو.

وانطلق لسانه.. إنه يذكر ذلك جيداً. انطلق لسانه في فصاحة لا متناهية. أكان يغريها ، أم يغري نفسه. أكان يجذبها إليه ، أم كان يوقظ حلماً سيطر عليه. يذكر أنه تحدث عن

البحر الهائج المحيط يعزل الجزيرة عن العالم، وحتى عن السفن العابرة، جزيرة لا تستقطب أحداً. فكأنها ما صنعت إلا لعاشقين مثلهما، جزيرة لا مرفأ فيها، فشواطئها من صخر مسنَّن، سيبني لها فيها بيتاً بين أغصان الشجر لا تصل إليه الوحوش، ولا تنسل إليه العقارب، منه سيطلان على البحر متعانقين فيريان العالم وكأنه قد صنع لتوه، بكر، جديد، لا بشر، ولا أعداء، ولا آباء، ولا أزواج، ولا جيران، بل أنا وأنت والبحر، والغابات الكريمة. آه صحيح. حين نجوع يكفي أن نجول جولة في الغابة لنعود محملين بالمانغو، وبالموز، وجوز الهند.

ضحك راضي: كان الصبي واعياً بالجزر المدارية، فاختار فواكه مدارية.

كانت تستسلم إلى كتفه تسايره في الحلم، وفي السعادة.

قال: وقبل الغروب نتمشى على الشاطئ الرملي. لا أحذية ولا أشواك. قالت: والسمك؟ قال صحيح: ونصطاد السمك. أتعرفين كيفية إعداده؟ قالت: أنا سيدة من يعدُّ السمك، فأطلق صيحة انتصار: حسن، إذن سنكثر من صيد السمك، والبيض؟ آه البيض.

رنّ الموبايل، فأخرجه من الخدر اللذيذ.. نظر إلى الرقم أووف إنه الرقم الغريب ثانية، لن أجيب. لن أدخلهم إلى عالمي. انقطع رنين الموبايل. .. ..

وقالت أمية: اسمع. السفر إلى الجزيرة صعب، وبعيد، فمن

يضمن أنَّا إن سافرنا أن تغرق سفينتنا، ومن يضمن أنَّا إن غرقت سفينتنا أن ننجو من غرقها، ومن يضمن أنَّا إن نجونا من غرقها أن نجد جزيرتنا.

قال: ولكنَّ قانون الأحلام.

قالت: دعك من قانون الأحلام. تعال.

أخذته من يده، ارتديا ثيابهما، خرجا من البيت. قالت: الحقني عن بعد، وإياك أن أضيع عن بصرك لأني حالما أمضي فلن ألتفت إلى الوراء.

مضت. تركها تبتعد قليلاً، ثم لحق بها. كانت تمشي أمامه في معطفها البني وإشاربها البيج اللذين تحولا إلى رمادي ورصاصي كحلم ليلي تتشهى الإمساك به. فأنت تعرف أنه حلم، وتخاف أن يضيع، فما أسهل فقدان الأحلام. كانت تنسلُّ، وينسلُّ من ورائها، تموج، ويموج من وراءها وأخيراً انحدرت عدة درجات. كانت أرض الحارة أعلى من البيت. ثم توقفت أمام باب، فوقف بعيداً يتملاّها، ويخاف أن تضيع.. فتحت الباب ولم تلتفت. انسلّت عبره، ولم تلتفت، فانسلَّ وراءها، وما إن عبر الباب حتى انغلق من ورائه، فاكتشف أنها كانت تقف وراء الباب مباشرة، وانطلقت في ضحكة طويلة، نحيلة، هشة، كانت ضحكة تموج بين الفرح، وبين الرعب، وبين الأمل.

استسلم لعناقتها، وضحكتها، ومداعباتها، وجرَّته إلى باحة البيت. كان يستطيع حملها لو شاء، فقد كانت خفيفة،

ولكنه لم يكن يعرف الطريق، وكان الخوف من الطريق، ومن جيران محتملين، ومن شيء غير مقدر لا يعرف متى يكون فيكون قد شلّه عن محاولة حملها، فاستجاب لجرّها معانقاً، وحين صارا في الباحة أضاءت لمبة صغيرة عرف فيما بعد أنها كانت تُترك الليل كله للإضاءة الخفيفة. قالت: اجلس. وقدمت له طراحة، فجلس وانطلقت موجة من غبار خفيف حالما جلس، ولم يكن في مزاج المتأنق ليحتج.

مضت، ففتحت للبحرة ماءها، فاندفق، وانطلقت رائحة الطحالب المحبوسة تنتعش، وصوت الماء يئن في خروجه من محبسه. جاءت ببساط ملون، ففرشته على الطراحة، وجذبته إليها: ها هي جزيرتنا. تعال نرسمها على طريقتنا. أين تريد لرمل البحر أن يكون؟.

استجاب بسرعة، فأشار إلى الجانب المظلم من الباحة لم ينره القمر. قال: هناك يكون الرمل. قالت، وضمته إليها: وأين تريد للغابة أن تكون، فأشار إلى الجانب المضاء من الباحة غمرته شجرة النارنج الكبيرة بظلالها: هناك تبدأ الغابة. تبدأ؟ قال: صحيح. لأنّا حالما ندخل في غابة النارنج، فلن نتوقف. قالت: لماذا؟ قال: لأن ظلال النارنج وروائح النارنج ستحملنا إلى عالم الجان. همهمت وقد دفعت بذقنها تحت إبطه: أكمل. قال: هناك سنجد ملك الجان وملكة الجان. وأمراء الجان، وسيسألوننا عما حملنا إلى عالمهم، فنقول: أردنا أن نهرب من عالم الآباء والشيوخ. أردنا أن نهرب من عالم الأزواج والمال. أردنا أن ندخل غابة النارنج

والجان حيث الحب هو القانون بالمجان.. .. فضحكت في خفة رجعت بها إلى عمر الطفولة، وهل الطفولة السنوات، أم الطفولة الإشعاع. قالت: وأنا أمة القانون!.. .. ..

رنّ الموبايل، فانتزعه من ذراعي أمية عائداً إلى النادي، فالمقعد المنعزل، وانتظار المكالمة - الأمل التي طال انتظارها، والضوء الجارح للشمس المحيطة، نظر إلى الرقم وكانت مروة التي هاجمته مباشرة: كيف يترك البيت في هذا الوقت، وكيف يخرج من البيت، دون تناول الفطور، وكيف يترك الكومبيوتر مفتوحاً، وعليه هذه الصورة السخيفة لأطفال ممسوحي الوجوه. ماذا يريد من هذه الصورة، وما معناها، ومن هو الثقيل الذي يرسل إليهم بصورة كهذه، وكيف يطبعها، ويضعها على المكتب؟.

كانت تتكلم رشاً، تحاول إبداء الاهتمام، وهو يعرف أن اهتمامها ليس إلا آخر ما تبقّى لها من مظاهر السيطرة، والإمساك بالمقاليد وإدارة الحياة كما تشاء.

أعتذر منها، وأطفأ جهاز الموبايل، وحين كرَّر الجهاز رنينه لم يردّ. ودمدم في غيظ: لقد استطاعت أن تنتزعه من عالم حلم أمية. أغمض عينيه يريد العودة إلى ذلك الحلم، فلم يستطع.. كان.. قد خرج، ولا فائدة في افتعال العودة.

صمَّم. استعاد البيت، صبيحة اليوم التالي. إنه يتذكر الآن. كان البيت المهجور ما يزال المهجور حتى بعد بياتهما فيه، فقد كان ورق الشجر يغطي أركان المكان، وكانت أغصان

كسرتها الريح تتدلى عن جذوعها تؤذي العابر، وكانت البحرة قد امتلأت وطافت، ولكنها لم تكن بحرة الحلم، بل كانت بحرة تطفي على سطحها جزراً من الطحالب والأشنات وأعشاب الماء، مما كان يسدُّ المجرى غير المستخدم لزمن طويل، فدفعته أمامها، وكانت رائحة أسن وزنخ ينشرها الماء الراكد يتحرك بعد طول ركود.

كان الهجر هو العزلة، وكان البيت غير المسكون هو الجزيرة، وكان روبنسون كروزو.. صحيح، من كان فيهما روبنسون كروزو؟ ومن كان الجزيرة؟

كانت أمية المرهقة ما تزال نائمة على الطراحة المكسوة بالبساط الملون. جال في البيت، ولم يرد إيقاظها. كان بيتاً كأنما فارقه ساكنوه منذ أيام. الطراحات والتوطايات في أماكنها مجللة بالبسط، والسجاد ما يزال ممدوداً كأنما تركه أصحابه منذ قليل. كان هناك رائحة عطن معلق تموج في الجوِّ دليلاً على طول الهجر، ولا شيء آخر.

دخل المطبخ، الطناجر والقدور والصواني والصحون. كلٌّ في مكانه ينتظر من يحركه عن مكانه، أو ينفخ فيه الحياة. أحسَّ بالجوع. بحث في المطبخ عما يؤكل، فلم يجد خبزاً، ولا سكراً، ولا شاياً. أراد الرجوع إليها يوقظها ويسألها، ولكنه ما كاد يستدير حتى وجدها تكاد تلتصق به من الخلف ولا تلتصق. أرعبه قربها، ولكنها عانقته في شهوة.

قالت: هذه جزيرتنا، قال: ولكن الغابة، لا مانغو، ولا موز فيها.

- ارتح هناك على الشاطئ الرملي. وسآتيك بكل شيء.

كان أسبوعاً لم يعش مثله بعد، رغم كل تقلبات الحياة. وضعا الخطط، صنعا المشاريع، حدثته أنَّ بيت أهلها المهجور هذا قد آل إليها منذ وفاة أمها وهجرة أخيها، ولكنها لا تجرؤ حتى على زيارته، فزيارته ستغضب أبو حسين، وغضب أبو حسين ضرب وتعنيف وإهانة وتهديد بالقتل وهي التي فقدت الأم والأب، ولم يتبق لها من قريب في الدنيا إلا أبو راضي الذي لا يأبه ولا يهتم فهو غارق في بناياته ومشاريعه.

قال: يجب أن أعود إلى البيت. لا بد أنهم قد قلقوا لغيابي.

قالت في أسف حقيقي: والجزيرة؟ أنت تعرف.. الجزيرة التي حدثتني عنها هي جزيرة اللاعودة؟ صمت. ولكنه في الصباح التالي قال: أمي. قالت وعرفت أن جزيرتها غير جزيرته، وعرفت أنَّ جزيرتها حين قررت كانت جزيرة اللاعودة؛ وأن جزيرته كانت على طريق الباصات.

قالت: امض، فطمئنهم.

مضى، ولكنها قبل حلول العصر كانت قد لحقت به إلى بيت أبو راضي لتجد أن الأم لم ترجع من داريا، وأن أحداً لم يفتقده، فعانقها في جنون.. كان قد خاف فقدها بعد أن كشفت ضعفه، ولكنها لم تستطع هجره. ولما جاء الليل على العاشقين

المتعانقين كانت النهاية. فقد رجعت الأم وتجمّد العاشقان مذعورين حتى ابتعدت عنهما حين أضاءت الباحة فكشفت عريهما، وأكلهما التفاحة.

16

أوقف السيارة أمام البناية المجاورة، فلم يترك له الساكنون مكاناً لإيقاف سيارته، ولم يكن لديه حارس يضع سلسلة حديدية يمنع السكان من صف سياراتهم في المكان الذي اختاره لسياراته، ولم يكن الناطور ليتعاطف معه في هذا الأمر، فلطالما أهانه حراسه وكان أول من تنفس الصعداء حين حمل كوخ الحراسة بعيداً، وأبعد الحراس عن البناية. تمنى لو كان لديه بيت آخر لانتقل إليه حتى لا يشهد الجيران على فضيحة تنحيته، ولكنه لم يكن يملك بيتاً آخر، فقد كان حريصاً على ألاّ يعطيهم فرصة مرئية لاتهامه بنزاهته أو شرفه، وقد فكر عدة مرات في بيع البيت، وشراء بيت جديد في حي آخر بدلاً منه، ولكن.. .. الكسل كان يغلبه في كل مرة يفكر في الدوران على المكاتب العقارية، والسؤال، وتفحص البيوت الجديدة، و.. .. استقبال أناس لا يعرفهم يتفحصون بيته للشراء، ثم سؤال الدلال عند الخروج من البيت. أليس هذا راضي الخاروفي. نفسه.؟.. سبحان مغيِّر الأحوال.

فكّر في كل هذا، وأخيراً قرَّر أن يتأقلم مع الوضع في

انتظار الهاتف يحمل الأمل، فما يدريك.. كان الزمن الذي عاشه زمن المعجزات. غياب نجوم من السماء، وحلول نجوم أخرى.. أفستبخل عليه السماء بمعجزة صغيرة تنقذه من سأم الوحدة والهجر.

رنَّ الهاتف الجوال.. تجاهله.. مشى خطوات باتجاه البيت، ولكن الهاتف رنَّ ثانية. إنها مروة. يعرفها.. تجاهلها، ولكن الهاتف كرَّر النداء في إلحاح.. وضع النظارة الطبية، لا. ليس رقم مروة، فرقم من إذن؟ لا، وليس رقم: وهي الأصلية أمية.. وقف إلى جوار الجدار. ضغط زر الهاتف: ألو. نعم.

وجاء الجواب رشاً: استاذ راضي. هناك اتفاق بيننا. لماذا تتجاهل بريدنا. لم لا ترسل إلينا بملاحظاتك. أنت تعرف أن العقد المبرم بيننا ينص على أن مرور ثلاثة أيام على استلامك للنص المرسل دون إبداء اعتراض يجعلنا نحوِّله إلى لجنة الصياغة العامة. أهذا ما تريد. رجاء الرد السريع.

ثم جاءت صفرة طويلة: أعوذ بالله. لم تكن مكالمة. إنها رسالة صوتية، ولكن لم يرسلونها صوتية؟ لم لم يرسلوها رسالة خطية؟ لم لا يرسلونها عبر الكومبيوتر. لم لم يخاطبوني مباشرة؟

ضغط زرَّ الرسائل القصيرة ليجد أن الرسالة مكتوبة خطياً وقد كتب فوقها بحرف صغير مكرر، مكرر.

تنهد وهو يمشي بهدوء. بعد أن أنقص صوت الرنين إلى الحد الأدنى: يكفي لهذا اليوم، وما كاد يمضي خطوتين حتى أحسَّ

بالارتجاج يهز خاصرته. لقد نسي إطفاء رجيج الجهاز، رفعه إليه ليرى الرقم. إنها مروة. أعوذ بالله. هل سيعيش هذه الحالة إلى الأبد.. انتظار الهاتف المأمول، وما يكلفه من استقبال هواتف في أوقات لا يختارها ولا يريدها. كان يخاف أن يطفئ الجهاز فيأتي الهاتف المأمول، ولا يستقبله، فحافظ على الجهاز مفتوحاً طيلة الوقت. أطفأ الجهاز. ركب المصعد. استقبلته في البيت. لم لا تردُّ على مكالماتي؟ لم تطفئ الجهاز؟ ما معنى هذا؟ أتريد أن تميتني قلقاً عليك؟ كدت أتصل بالشرطة، وبالمستشفيات بحثاً عنك.

نظر إليها في سخرية، ومضى إلى الحمام. لم تعد هذه المظاهرات تهمه. إنه يعرف أنها تصريف طاقة. مظهر متأخر لأمومة متبدِّلة في موضوع يرفض هذه الأمومة.

دخل إلى الحمام. أغلقه وراءه بإحكام. جلس على المرحاض يتنهد مرتاحاً، ولكنه ما كاد يحكم جلسته حتى رن الهاتف: أعوذ بالله. ما معنى هذا. هل ستلاحقونني حتى إلى الحمام. ألحَّ الهاتف، ولم يستجب، ولكن الهاتف الأرضي في الصالون رنَّ. صمت.. ينتظر و.. .. طرقت مروة الباب: إنه الجنرال سعيد يسأل: لم لا تردُّ على الموبايل.

رفع الجهاز بعد أن شغَّله إلى أذنه: نعم.

وجاءه الجواب معاتباً على عادته: يا أخي. يا أخي.

بدأ يثرثر ويثرثر، وفهم منه أخيراً أن المؤسسة تستغرب عدم تلقيها ملاحظاته، وعدم استقباله بريدها. لماذا.

أقفل الجهاز.. اتكأ على ظهر المرحاض، وقد فقد كل رغبة في استعماله. وفجأة هاجمته الفكرة: كان آباؤنا يعيشون رعب أنهم محاصرون بالملائكة والجان، ومخلوقات المجهول. كانوا يعرفون أن كلاً منهم يحمل ملاكين على كتفيه يراقبان حركاته وسكناته، ويعدّان عليه صواباته وأخطاءه. ويعرفون أن الجان موجودون في كل مكان. صحيح أنهم لا يرونهم، ولكنهم موجودون تعرفهم من آثارهم، من سرقة طعامك، وإضاعة أشيائك الصغيرة وإمراض أطفالك. وإجنان من تحب، وإعشاق هذا بتلك، وتلك بهذا، وإكراه هذا بتلك، وتلك بهذا.. كان لهم كل العالم غير المرئي والمحسوس، وليس لنا إلا العالم المرئي المحدود المسكين.. .. ثم جاءت الحضارة المادية، فكان أول هدف لها محاربة الغامض والمعتم وغير المرئي. وكل ما لا يخضع للفحص المخبري وكل ما لا يمكن تكراره معملياً، حاربت الحضارة عبر المدارس والتعليم كل غامض وغير مرئي، وسخرت من فكرة الجان والملائكة الحارسة والمراقبة والمطاردة، ولكن. ها هي الحضارة نفسها توقعنا في المطب نفسه. الحصار المطلق لا يمكنك الهرب منه؛ الهاتف، الهاتف النقال، الكومبيوتر، البريد الإلكتروني، الرسائل القصيرة، أجهزة التنصت السمعية، أجهزة التصوير التلفزيونية الخفية. أنت مراقب ومحاصر الآن من قبل الحضارة المادية بأكثر مما كنته قبل هذه الحضارة، فأولئك الجان والملائكة. صحيح أنهم كانوا يحاصرون الإنسان المسكين، ولكنّهم كانوا لا يخرجون بحصارهم إلى العلن إلا في الحالات القصوى. الجنون، أما الآن ومع الحضارة الحديثة، فأنت

محاصر أضعف من الأجداد لا تستطيع الهرب من حصارهم إلا إن مضيت إلى البرية أو الغابات، وعندئذ ما يدريك. ربما كنت مراقباً من قمر صناعي ما.. ما يدريك.. أعوذ بالله.. أهو قدر الإنسان إذن. الحصار. ألا خيار آخر؟ الحصار من مجهول لا يراه، والفارق هو أنك مع الحضارة تستطيع أحياناً معرفة محاصرك عبر أرقامه وعناوينه. ولكنك في أحيان كثيرة أنت أعجز من معرفة مهاجمك ومتحديك والمتسلل إلى قدس أقداسك، وسر أسرارك، لسبب بسيط أنك لا تعرف من يدخلك إلى قدس أقداس المتتبعين والمتسمعين الخالدين.

انتصب من قعدته. قال: ولكني أنا من استدعيتهم إلى حياتي.. أنا من تحرشت بهم في المؤسسة. وجاءه الجواب: صحيح. تماماً كمن كان يقرأ التعزيمات يريد أن يستخدم الجان لتنفيذ طلباته غير عارف بأنه ما إن يستدعيهم حتى لن يستطيع صدّهم. لقد عرفوا طريقه. لقد قمت بالفعل نفسه. استدعيتهم، وعليك أن تكمل المشوار معهم.

تنهد مستسلماً، لقد أعجبته المقارنة. ماذا لو جعلها موضوعاً لمقارنة بين الحضارتين. أنت تريد أن تفيد من مُنافعها، ولكنك تتشكى من دفع الثمن، أما البائع فلن يأبه لتذمرك وتشكّيك وسيكمل إنجاز العقد رضيت أم أبيت.. تماماً كمشاركة الجان في عملية لا تريد إكمالها. إنهم لن يترددوا، ولن يتراجعوا، بل سيكملون عمليتهم وعقدهم غير آبهين بما.. بدا لك.

وصل إلى المكتب مقرراً كتابة رؤوس أقلام عن الفكرة التي خطرت له في الحمام، ولكن الكمبيوتر أعلن عن وصول بريد. تنهّد مستسلماً، وضغط مفاتيح استلام البريد، ثم حوّله إلى الطابعة مباشرة.

دخلت مروة وسألته مهدئة نفسها إن كان يريد السلطة خضراء، أم سلطة اللبن بالخيار. أراد أن يشيح بيده غير مبال بالاختيار، ولكنه خشي من ردّة فعلها المتأهبة للشجار، فقال في استسلام مختصر: اللبن بالخيار.

مضت.. رفع الملف الذي قذفت به الطابعة أمامه.

لم يكن تصالحهما مفاجأة لأبو فاروق، فلقد كان هذا ما يريد بالضبط.. لم يكن يريد لهدية أم أولاده أن تفارقه، ولكنه وقد فجر التنّين فيه عن بيضته. لم يكن على استعداد لأي تنازل أمامها.

وحين رآهما تتغديان معاً في اليوم التالي بعد إنهاء تسليم الخبز من الفرن لم يبد كبير دهشة. بل تقبل الأمر فعل من اعتاده منذ الأزل. جلس إلى جانب البحرة، فسارعت هدية إلى خلع حذاءيه عن قدميه، وسارعت نادرة إلى خلع ميتانه عنه.. أكان يستعيد عهداً كانت ذاكرة بعيدة تختزنه عن زمن سعيد للرجل حين كانت النساء يسعين من حوله أم كان يؤسس لهذا الزمن.. أتراه حلم الرجل الأبدي أن يكون الذكر الوحيد، الفحل الوحيد، وعلى الإناث ان يسعين متحككات به، وله حق

الاختيار، وليس لها إلا الرضوخ والطاعة والفرح بأنَّ الذكر الوحيد قد اختارها.

كانت هدية التي عاشت سعادة اكتشاف أنها زوجة الرجل - الجمال، وكانت قد اعتادت التغني بجماله، وشوقها إليه، وهي تهدهد طفليها، وهي تكنس باحة الدار، وهي تستجرُّ الماء من البئر، وهي تستلقي في باحة الدار تحت صقالة الدالية. كانت تراه يبتعد عنها، ولكنها كانت سعيدة سعادة من يعرف أن لديه وردة لا يملك آخر في العالم مثلها، سعادة من اقتنص طائراً لم يسمع طلاوة صوته إنسان آخر في العالم. هو يعرف أن للوردة حياتها الخاصة، ولكني سعيد بوجودي إلى جوارها، هو يعرف أن الطائر لا يغرد له ولا يراه، بل يغرد لأنثى من جنسه يستدعيها إليه. هو يعرف ذلك، ولكنه سعيد بشمِّ شذى الوردة إلى جواره، وسماع العصفور يغرد في قفصه.

كانت هدية تراه يعتزل عنها يوماً إثر يوم في فرنه، وفي الجلوس على قارعة الطريق يحدِّق في الجدار المواجه ينتظر أحداً ما.. هذا الأحد لقيته هدية حين رأت نادرة مستلقية في استرخاء على وسادة قشها، فكادت تُجنُّ، ولكنَّ رعب هرب العصفور من القفص، وذبول الوردة في أصيصها أخرسها، فمضت لتقضي ليلاً دون نوم.

في الصباح الباكر التالي تسللت إلى حيث العجوز التركية التي أعادت لزوجها جماله، ولصدره راحة التنفس. بكت أمامها، لامتها، شكت أرقها وضياعها. حدثتها عن رغبات الانتقام، عن

شهوات القتل، ولكن العجوز هدّأتها، وأمرتها بالصبر.

قالت: ما هو كائن كائن يا ابنتي، والمقدّر لا مهرب منه.

-والعمل..؟ أنا أحترق.

فحدثتها عن النسر يخرج من بيضته، ولا سبيل إلى إعادته..

-والعمل..؟ أنا أحترق.

-ليس هناك إلا عمل واحد. الصبر. البيت بيتك، والزوج زوجك، والأولاد بينكما رباط لا ينقطع. اصبري وانتظري يوماً يدب إليه فيه السأم والضعف، ويتلفت من حوله ليجدك في انتظاره. لا تضيّعي هذه الفرصة بحمق النساء.. اغضبي، وستفقدين كل شيء. ستحملين طفليك وتتركين لها البيت.. وإلى أين؟.. من يحتويك في هذه الأيام السود ولا أهل ولا مال .. .. إلى أين؟!

ورنّ سؤال إلى أين طويلاً في مخيلة هدية، وعرفت الجواب المعروض عليها ولا خيار.

كان أبو فاروق قد نجا من الحرب بسبب التشوهات والحروق غطّت وجهه، وأحرقت شعره، وجعلت تنفسه صفيراً يسمع عن بعد ذراعين فأعفي من الخدمة في الجيش.. وكانت الحرب هي ما أعادت إليه صباه وجماله المختفيين وراء الندوب وتجاعيد الحريق، وكانت الحرب هي ما جعلته الذكر الوحيد، والمُطعِم الوحيد في زمن ضاع فيه الذكور والطعام. كان محظوظاً ولا شك. قال لنفسه وهما تبذلان جهدهما في إسعاده.

تغذّى. تمدّد على الطراحة في باحة الدار تحت الدالية، ودون أن يطلب إليهما تناوبنا التهوية وطرد الذباب عنه. فكر: أنا سعيد كسلطان.. ونام.

حين استيقظ بعد العصر مضى إلى غرفة النوم، ونظر إلى الوراء، وانتظرت هدية في لهفة أن يشير إليها، ولكنه نظر إلى نادرة. فسارعت إلى اللحاق به، أما هدية، فقد انكفأت على نفسها، وللحظة شديدة السرعة تمنت لو تحولت إلى سكين ففرت قلبها، ومزقت رحمها ونتفت شعرها، ولكنها قمعت كل هذا. قالت – انتظري.. وما نهاية الانتظار إلا الفرج.

ثم ذكرت بيت المونة، ذكرت وكراً لفأر شقته إلى غرفة النوم، وكانت قد سدته بخرقة ملفوفة على عود.. مضت إلى بيت المونة فانتزعت العود والخرقة فاندفق النور من غرفة النوم، ورأتهما، وشهقت في ذلٍّ، وأغمضت عينيها، ولكن الفضول الذليل ما لبث أن غلب عليها، ففتحت عينيها، ورأت تقلبهما، وسمعت فحيحهما، فقرصت فخذها حتى ازرقّت وأنّت حتى ظنّت أنهما قد سمعا أنينها، ولكنهما كانا مشغولين عنها، وعن أنينها، ثم نظرت ثالثة، فأعجبها ما رأت حتى اختلطت بهما، وأخذت تتأمل المرأة في متعة، ودون إرادة منها كانت قد صارت أبو فاروق، فأخذت تستمتع بمفاتن نادرة، ثم تقلّب المشهد، فصارت نادرة، وصارت تستمتع بمفاتن رجل كان ملثماً وكان لها، فلما أسفر صار لأخرى. كانت تتقلب بينهما، وتستمتع بهما، وتتنقل منه إليها ومنها إليه، وكان يمكن لها أن تظل واقفة في موقفها حتى تتحول إلى عمود من ملح لولا أن الظلام تسلل إلى

غرفة النوم وصار المرأى صعباً، واستيقظ الولدان، وأخذا يجعران بحثاً عنها.

مضت إليهما، أطعمتهما. دلّلتهما. اعتصرتهما حتى بكيا خوفاً وألماً، فلم يكن لهما بهذا الاعتصار الموجع عادة، ولكن. أكانت تعرف من تعتصر، ولماذا. أم أنها كانت تعتصر لتؤلم نفسها أم تؤلمهما، أم تؤلمه فيهما. وأخيراً.. حط الليل.. والولدان ناما، والقنديل أضيء في غرفة النوم، وعرفت أن ليلاً طويلاً من سهاد وتقلب في انتظارها، فمضت إلى البحرة تغتسل وتبترد.

في اليوم التالي تغيرت هدية، وصارت تتأمل نادرة بعين جديدة، لم تعد الضرَّة فقط، بل صارت الشريكة. كانت تثرثر معها في مكر طويل النفس تحاول معرفة ما المدهش في هذه المرأة، الذي جعل أبو فاروق يتخلى عن عشرة السنين ويلحق بها، صحيح أنها جميلة، ولكني أيضاً جميلة، فلم نسيني؟ لو جعلها قسمة عادلة كما يفعل الرجال الأغنياء في قريتها لما غضبت كثيراً. ولكن.. وصرخت تخرس غيرتها: لكل غربال جديد شدَّة، ثم يرتخي.. دعي العاصفة تمر.. وتلت على نفسها حكمة العجوز التركية المهم أن يبقى سقف البيت قائماً، والأطفال مرعيين، و.. صادقت هدية نادرة. شربتا القهوة النادرة جداً في تلك الأيام، ولكن بيت مونة أبو فاروق كان حافلاً بكل ما تفتقده المدينة، فهو الموئل والمآل.. هو من يسرق متواطئاً مع ضابط الثكنة بعض الأرغفة - الكنز المشتهى، وهو من كان يستبدلها بكل ثمين، وعزيز.

شربتا القهوة، وأكلتا الفستق، ومرّتا على غرف البيت تتفرجان على السجاد القديم في بيت أبو فاروق، والمشترى بأرغفة وبعض دقيق، على فرش الصوف التي استغني عنها، فالنوم على البساط أرحم من النوم على بطن خاوية. تفرجتا على الزبادي، والصحون الصيني والشيني والمالقي. على أطقم الفناجين التي لا تستعمل، على الأرفف المفكوكة من مكامنها والمبيعة إلى أبو فاروق بزخارفها الصدفية وخيوط الفضة المعشقة فيها. على خزائن الموزاييك الخالية، فليس لديها من الثياب ما يملأ أكثر من خزانة. أما هذه الخزائن فقد اشتريت بأرغفة وبعض دقيق مهرب.

كانت تريها.. .. تعتقد أنها تفاخرها، فأنا سيدة البيت، وأنت – أرادت أن تقول الطارئة – ولكنها خافت، فهي لم تعد على ثقة من المقيم، ومن الطارئ، فالزمن حرب، والموت جار، والجوع الذي لم يزرها حتى الآن لا تعرف متى يدير وجهه إليها ليصبح الضيف الثقيل، فاكتفت بحمد الله، لكن نادرة التي لم تفهم المفاخرة، ولم تأبه للمفاخرة فقد كانت شبعى حتى من الحياة. كانت تتأمل هدية خائفة في البدء، فهي تعرف ما يمكن لامرأة غيرى أن تفعل، ولكنها رأت لطفها، فأنست لها مشفقة، ثم تحولت الشفقة إلى تفهم، فلقد عرفت ما قادها إلى هذا، أشفقت شفقة المتفضلة، فقد كانت الأثيرة والمنتظرة أن يعود من فرنه لتسوقه إلى.. .. إليها.

في الصباح التالي لسماعها كلمة - تعالي – ذكرت الولدين، وتساءلت:

-ماذا يفعلان الآن.

أرادت أن تسأله بعض الخبز والطعام تحمله إليهما، ولكنها غارقة في تلك السعادة السماوية التي لم تعرفها في حياتها خجلت أن تصبح المتسولة بعد أن جعلها المعشوقة، خافت أن ترى نظرة الشفقة بعد أن عاشت جنة الوله، فقالت: أنتظر عودته، فلعله يعطي دون سؤال، وقررت أن تتدلّل قليلاً، فهذا أليق بالمرأة، ثم جاءت هدية، وشربتا القهوة، وأكلتا الفستق، وأخفت بعض الفستق في جيبها، تمنت لو عرفت هدية قبل أن تصبح منافستها لسألتها أن تقرضها، أو تعيرها بعض طعام، فالطفلان ينتظران، ولكن الكلمة خنقت حلقها، ولم تخرج وحين جاء العصر، ودعاها إليه.. هبَّ جسدها قبل عقلها، وقبل أمومتها، وقبل حزنها، فمضت إليه وقد نسيت هدية، والطفلين، والعالم خارج تلك الغرفة المسقوفة بعمد من خشب مدهون بالسماوي المرقوش بورود حمر لم تستطع أبداً أن تعدَّها، فقد كان العالم أعجل من قدرتها على العدّ.

انقضى اسبوع لم يؤنبها فيه ضميرها، فقد كانت الحياة الجديدة أمتع، وكانت أشدَّ خوفاً من أنها لو ابتعدت عن المكان لساعة لرأت آخرين، أو أخريات يملأن المكان.

فجأة استيقظ الطفلان في عقلها وقلبها، وهي لا تدري ما الذي أيقظهما، أهو امتلاؤها بعد طول خلوّ، أهو شبعها بعد طول جوع، فاستيقظت العواطف التالية، أم بعض انصراف منه عنها. أحسَّته، ولم تدركه، ولم تمسكه ولم تستطع وصفه، ولكنها

أحسَّت أنه امتلأ أيضاً بعد خلوٍّ، وشبع بعد جوع، فأطال نومة بعد العصر، وطلب لعب البرسيس معها، ومع هدية بدل المضي إلى غرفة النوم والإشارة إليها أن تلحق به، صحيح أنه حين أعتمت الدنيا دعاها إلى غرفة النوم، ولم يدعُ هدية. ولكن الإشارة كانت واضحة لها لقد امتلأ.. .. فاستيقظ الطفلان.

قبل الصبح، وحين افاق ليمضي إلى الفرن على عادته تحككت به و.. كسرت على أنفها بصلة، وذكّرته بالطفلين المنسيين الجائعين فارتعب: طفلان متروكان وحيدين؟

نادى هدية وطلب إليها أن تدلّها إلى بيت المونة تحمل ما تشاء إلى طفليها، ومضى.

حملت ما شاءت. حملت فوق طاقتها، ومضت مع أول ضوء إلى طفليها، ولكن المفاجأة أنهما لم يكونا هناك.

انثنت ساقاها تحتها في ضعف، لم تصدق أن يمضيا. نادت وهي تظن أنها صرخت، ولكنها لم تزد على أن أنّت. نادت عليهما، صرخت، رجتهما أن يظهرا، ولكن صوتاً لم يستجب، وردّاً لم تتلق. وضعت البقج من يديها.. تحاملت على نفسها. لابت في الغرف تفتش عنهما، تتشمَّم آثارهما، ولكن لا أثر لهما.. عادت إلى الباحة، ارتمت إلى جانب البقج.. كانت كنزها التي هي خير من يعرف قيمته، ولكن.. .. الولدين.. صرخت هذه المرة بصوت حقيقي استعادته من عالم الرعب. نادتهما دلّلتهما، ولا.. ردَّ..

اتجهت إلى الباب، ثم.. تذكرت.. الكنز، فعادت إلى بقج

الطعام، فحملتها، وأخفتها في المربع الكبير، فما يدريك ما يمكن للّصوص أن يصنعوا. أحكمت إغلاق الباب، ومضت.. طرقت أبواب الجيران، ولا جواب، فأكثر البيوت خاوية من سكانها واللصوص ممن يمكن أن يساقوا إلى الحرب مختبئون في ذلك الكهف، أو في مجاري الآبار التي صارت قلعتهم.

وقفت في الحارة تصرخ طالبة عوناً، نجدة، رحمة.. ولكنها كانت وحيدة في مدينة أخواها الجوع والطاعون، والحرب، ورجال السلطان صيادو الرؤوس.. ولا .. جواب.

خرجت عن الحارة الضيقة الملتوية إلى الجادة تطرق الباب، تسأل الجيران، لقيت المختار، لقيت عجوزين عائدين من الجامع سألتهما عن طفلين في الثالثة، والرابعة يلبسان قمبازين مقلمين بالزيتوني والسكري. نظرا إليها في تعاطف، وهزّا رأسيهما: مسكينة، مجنونة أخرى تبحث عمن مضى ولا عودة.

تركاها ومضيا. لم يستطع المختار أن يدلها عليهما، ولم يستطع واحد من رجال السلطان يركب بغلاً يتبختر عليه في جادة خالية من السكان أن يفهم ما تقول، أو يجيب عن سؤالها عن صبيين أسمرين يلبسان قمبازين مقلمين بالزيتوني والسكري.

تركته. أسقطت بابوجها الذي استعارته من أبو فاروق. رجعت إلى البابوج، حملته وأخفته تحت إبطها، وعدت تتقلب بين الحارات حتى وصلت إلى الأسواق، فرأت عجائز التجار، وعجائز العتالين، ونساء متشحات، مؤتزرات بالسواد يخترقن الأسواق

يلبن، ولا يصرِّحن عما يلُبن عنه، أما هي فكانت تصرِّح وتسأل. ولا من مجيب، فالضائعون كثيرون، والهاربون كثيرون، والمختفون كثيرون، والطاعون والحرب، ورعب صيادي السلطان لم يترك في القلوب متنفساً لرحمة.

وضع الملف من يده متأثراً: أعوذ بالله. أيعقل أن عالماً كهذا وجد؟ قبلنا بقصة الجوع إلى الحب عند نادرة، وقبلنا بقصة الجمال المختفي وراء الحروق والندوب واللثام، ثم تسقط اللثامات، ويتبدى رب الجمال المخفي وراءها، فتقع المرأتان في حبه إلى درجة أن زوجته تتخلى عن كل ما عرف عن المرأة من غيرة وشهوة تملك، وتقبل أن تصبح الشاهدة على خياناته لها، الشاهدة الموافقة شريطة ألا تخرج من حياته. قبلنا كل هذا رغم أنه لا ينطبق مع كتابة السيرة، الكتابة التي تحاول دائماً اعتبار الوسطي مرجعاً، والواقعي أساساً، فالسيرة لا تجنح عادة إلى الخيال، بل تحاول أن تقتدي بصرامة التاريخ الواقعية، قبلنا بكل هذا، ولكن.. أن يجعل مدينة تخوي من رجالها، وأن يضيع طفلان لا يعرف لهما مصير، وأن.. لا.. لا.. أعتقد أني مختلف مع كاتب هذا الفصل، ويجب أن أنقل إليه خلافي.

مضى إلى الكومبيوتر، وأرسل باحتجاجه كاملاً، لكن في تهذيب هذه المرة. لم يثر، ولم يتحد، ولم يستفزّ. وحين أنهى إرسال احتجاجه تساءل: ما الذي عقلنه هذه المرة. أهو طغيان الحزن والأسى والرعب من العالم الذي قرأ عنه، أم..

وأزّ الكومبيوتر يعلن وصول بريد. فضغط زر استلام البريد

وكانت الرسالة كالعادة، الصورة الجماعية ممسوحة الوجوه ما عدا وجهي بائع البوظة أمجد، وفائز ابن صاحب مكتبة تأجير الكتب، وفوق الصورة فقاعة تتراقص وفيها جملة: اعرف نفسك.

نسخ الصورة. تأملها.. لم جرّ على نفسه هذه الورطة. اعرف نفسك. ومن يعرف نفسه، ولماذا. ومن يريد حقاً أن يعرف نفسه؟ هو يعرف أن المقصود بنفسك ها هنا ليست النفس المعروضة للعامة، للجميع، ليست النفس المملوءة بالطموحات المجهضة، وبالأفراح المكبوتة، وبالأحقاد الدنيئة، وبالمخازي، والخيانات.. وبكل أشكال الضعف البشري. من هو على استعداد لتعرية نفسه وإظهار وجهه القبيح الحيواني؟ لا.. ليس الحيواني، بل الإنساني جداً، الوجه الذي بإخفائه تتقدم في الحياة، وفي إضماره حافزك الكبير على الصراع والبقاء.

اعرف نفسك. ومن يرغب في هذه المعرفة. هناك اثنان فقط قادران على هذه المعرفة الحقيقية المجردة، أنت. إن كنت شجاعاً وواجهت نفسك، .. .. .. والله، عارف كل شيء، و.. ربما الملاكان القابعان على كتفيك يسجلان حركاتك وسكناتك.

لا.. لا أريد معرفة نفسي، فالمعرفة تقتضي المواجهة، والرغبة، أو القدرة على الغفران، فمن يغفر لو عرفت.. من يغفر؟.

رمى الصورة من يده. حاول الرجوع إلى الملف، ولكن الكومبيوتر أزّ ثانية، فارتعد. أعوذ بالله. هل تحولت التكنولوجيا إلى رعب. حاول تجاهل أزيز الكومبيوتر، والعودة إلى الملف،

ولكن الكومبيوتر استمرَّ في أزيزه. فكر: لعلهم في المؤسسة يجيبون على تساؤلاته. قام إلى الكومبيوتر الذي كان يحمل إشارة لديك بريد. ضغط الزر، فاندفعت الصورة الجماعية. كاد يلغيها حين لاحظ وجه فتى جديد على واحد من فراغات الوجوه. أحدَّ البصر. لم يستطع التعرف إليه. طبع الصورة.. حملها إليه.. تأمل الوجه.. لا يعرفه. من هو.. فوق الصورة كالعادة.. كانت فقاعة: اعرف نفسك. من هذا الفتى. من هذا الفتى....؟

حمل المكبر. كبّر الصورة يتأملها. لا فائدة. إنه لا يعرفه. الملامح مألوفة إنها لفتى مراهق قد بدأ شارباه بالخطّ. على شيء مقبول من وسامة. لا يعرف كيف يمشط شعره، أو ربما كان إهماله التمشيط مظهراً من مظاهر تمرد المراهقين، ولكن. من هو.. من هو؟

قام إلى كتب المذكّرات المهداة إليه. أنزلها جميعاً، قلّبها في ملحق الصور. تأمل الصور جميعاً. حاول المطابقة بينها وبين الصورة.. لا.. لا تطابق. لا.. لا تقارب.. الصورة مختلفة عن كل صور المراهقة والمراهقين في ملحقات الكتب الموضوعة لتبيان التاريخ الناصع والجميل لكل منهم.

أعاد الكتب إلى مكانها. ولكن الصورة كانت تلح: من هو هذا الفتى. ولم كانت هذه الفقاعة تعلو الصورة الجماعية تعلن: اعرف نفسك.

أزّ الكومبيوتر، فارتعد ثانية: راضي. ما قصتك.. ما هذه

الأعصاب المتوفزة، إنها مجرد رسالة.. من المؤسسة، أو صورة أخرى ليس من ضرر، فلم هذا التوفز.

ضغط مفاتيح استلام البريد ليجد أن المؤسسة قد أرسلت إليه الرد على استفساراته. طبع الرد. حمله جانباً على عادته، وقرأ. كان الجواب هادئاً قدر هدوئه في السؤال. تجاوز المقدمات المهذبة، وانتقل إلى صلب الجواب.

ذلك الزمان الذي كان الأدب الواقعي يهذب الواقع، بل يزوّره عبر الاختيار غير المنصف ليخدم هدفاً غير الواقع قد انقضى. وما يتبدّى لك غير واقعي ليس إلا عدم الاطلاع الكافي على الوجه الآخر للإنسان، وحين تحدثتم عن صرامة الواقعية في كتابة التاريخ كان ذلك هو ما جرّني إلى الدخول إلى هذا الرد.

سيدي الكريم. أرجو أن تقرأوا لو تفضلتم كتاب «ابن عرب شاه عجائب المقدور في أخبار تيمور»، وتروا أي عالم قاس وحشي مجرم، عاشه الإنسان الذي تراه اليوم يلبس ربطة العنق، والياقة المنشّاة. أرجو أن تقرأوا تاريخ ابن إياس (بدائع الزهور) لتعرفوا عن الجوع والمجاعات والطواعين وما فعلت. أرجو أن تقرأوا تاريخ ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) لتروا الإنسان في وضاعاته غير المعقولة. أرجو أن تقرأوا مذكرات البديري الحلاق. أرجو أن تقرأوا تاريخ ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق وأخبارها) ولن أطيل عليكم في سرد المراجع التي استقينا منها فعل الإنسان في الإنسان زمن الجوع والطاعون والحرب مُحِلّة كل حرام.

سيدي الكريم. الإنسان مخلوق ما يزال ناقصاً، وعلينا أن نتعامل مع هذا النقص. أنت حين بدأت حوارك معنا أعلنت أنك لست شبيهاً بأولئك الجنرالات من أنصاف الأميين، وأنك تحمل الدكتوراه في علم الاجتماع والدكتوراه في الاقتصاد السياسي. وهذا صحيح، ولهذا فنحن نقدم لك ما نعتقد أنك خير من يعرفه. هؤلاء الناس الذين تقرأ وستقرأ عنهم هم آباؤك. ربما لم يكونوا العضويين، ولكنهم آباؤك، ومظاهر انحطاطهم، أو ضعفهم، أو حيوانيتهم هي مظاهر للإنسان الجميل وُهب كلّ جمال، ولكنه.. أرجو أن نتعاون في كتابة هذه السيرة بما يرضيك ونحن نشكر لكم تساؤلاتكم التي ستنير لنا طريقنا بقوة..

مؤسسة الإنشاء والترميم

كان الجواب أكاديمياً، مقنعاً، بليغاً لم يستطع أن يحتجَّ على فقرة واحدة منه، وقد نبهه إلى ما يعرف عن كتب التاريخ التي أرَّخت للمنطقة، وربما للعالم حين قتل الطاعون سبعين بالمئة من سكان المعمورة المعروفة في إحدى هجماته، وهو يعرف عن الجوع الذي جعل الناس في القاهرة، ودمشق، وحلب، وبغداد تأكل الجرذان والقطط والكلاب، وتسرق أبناء الآخرين، وتأكلهم. هو يعرف ما ذكرت كتب التاريخ عن أكل جثث بني الإنسان. وإلا فلم اخترعوا هذا المثل: الجوع كافر.. صحيح. إنه الجوع الذي يخرج بالإنسان عن إنسانيته، ويعود به إلى أحطّ صور الحيوان.

تنهد، كيف فاته هذا. ولكن.. .. لقد نشأ على القراءات

الواقعية. هـه.. أصدر نفثة تهكم. إنـه خير من يعرف ما تعني الواقعية في مجتمع مراقب كتابياً. إنه إبداء كل الصور المخادعة الكاذبة عن انتصار الضعيف على القوي، والمستغلّ على المستغَل. والتاريخ لم يقل أبداً شيئاً كهذا. كتابة الواقعية المراقبة.. هه..

استند بظهره إلى كرسيه الموريس.. وهرب من متابعة الفكرة. شدّته الصورة إليها.. شدّه الفتى المراهق الجديد زرع على الصورة ممسوحة الوجوه. من هو هذا الفتى.. من هو هذا الفتى؟ إنه ليس واحداً ممن تقدمت بهم الأيام حتى كتبوا مذكراتهم المراجعة، والمصححة، والمحسّنة لتعطي انطباعاً عن رجال شبه قديسين، بلا خطايا.. لا. ليس واحداً منهم، فلقد قلّب الملاحق كلها، وانتقى الصور المزروعة فيها لأصحاب المذكرات في تلك السنين، ولكن لا شَبَه.. فكر. سأمسح صور الملاحق جميعها وأدخلها في الكومبيوتر، ثم أعطيه الصورة الجديدة لهذا الفتى يبحث عن مشترك بينها، فلعله أقدر مني على هذا.

انشغل في مسح الصور، ونقلها إلى الكومبيوتر الظهر كله.. تغدّى على عجل، وعاد إلى الجهاز يلقمه الصور، وجاء المساء، وكان قد مسح الصور جميعها.

مضى إلى المحل الذي يتعامل معه في خدمات الكومبيوتر، وطلب منه برنامج ملاحقة الوجوه والأشباه ومقارناتها. ضحك البائع، وقال: ولكن هذا البرنامج مخصص للشرطة والأعمال الشرطية. فقال في صرامة هادئة: أعمل على بحث أشبه بالعمل الشرطي.

اشترى البرنامج. مضى إلى البيت. أنزل البرنامج، ثم أعطاه صورة الجنرال سعيد الطفل، ثم طلب إليه اصطياد صورته كهلاً متقاعداً بين مخزون الصور.

اهتزت الصور أمام عينيه تختصر السنين، ورآه وهو يكبر سنة، فسنة، شاباً، فشاباً، غضناً فغضناً، وأخيراً أعلن الكومبيوتر انتصاره حين أصدر رنة خاصة، وقدم إليه صورة الجنرال سعيد المتقاعد.

أعجبه ما رأى، فقال: أما وقد استطعنا اكتشاف نجاعة البرنامج فنحن نستطيع إحالته إلى الاختبار الأساسي. ألقمه صورة الفتى الجديدة، وأحاله إلى مخزون صوره، وقام. فأعدَّ لنفسه فنجان قهوة غاب في المطبخ طويلاً ينتظر سماع الرنَّة، ولا رنين.

عاد مع قهوته، مرّ عبر الصالون، الساعة الواحدة ليلاً. ليس لك بالسهر عادة يا راضي، فما الذي جدَّ؟ قال مبتسماً، ثم تابع: ربما كان الجنرال سعيد على حق، فهذا الانشغال ألهاك عن توتر انتظار الهاتف..

وصل إلى المكتب. نظر إلى الشاشة. كان الكومبيوتر ما يزال يحاول. يقارن صورة الفتى بالفتى، ثم الشاب، ثم الرجل، يضع الافتراضات عن التحولات الممكنة، الغضون، الشيب، الصلع، العور، الجراح في الوجه، تشوهات الحروق، اللحى مختلفة الأشكال والقصات، ولكن لا استجابة.

تركه، ومضى إلى مجلسه حيث الملف، وقال: أقرأ في

انتظار رنة الانتصار، العثور على الجواب.

عادت إلى البيت. قالت: لعلهما رجعا. خرجا يبحثان عني، أو عن لقمة، ثم حين اقترب العصر عادا.. فتحت الباب، دخلت، وهتفت باسميهما وكل مسامها متفتحة لسماع مأمأة من واحد منهما، أو أنّة، أو صوت جوع، ولكن لا استجابة. دخلت الباحة، فتحت أبواب الغرف. كانت تناديهما بغير لغة. فبطريقة ما تخلت عن اللغة، كانت في جزء من روحها تعرف أنهما حيوانان صغيران ضالان، وأن خير ما يخرجهما عن صمتهما هو البغام والثغاء، فكانت تصدر أصواتاً لا عهد لها بها. من طلب إليها ذلك؟ لا تعرف، ولكنها الاستجابة الحيوانية لظرف أقل ما يوصف به أنه حيواني. طرقت الغرف، القبو، المربع الكبير، صعدت إلى السطح، بحثت في الأركان، وأخذت قوى البحث لديها تضعف، وتتحول إلى بحث آلي، فقد أدركت في ركن لا تعرفه منها أنهما ضاعا، كما ضاع الكثيرون من الأطفال والطفلات، ضاعا كما ضاع أبوهما، وأبوها، ورجال كثيرون أكلتهم سنوات الحرب، والقحط، والجوع، والريح الصفراء.. ..

ارتخت على الأرض مقتعدة درجة خشبية من الدرجات الصاعدة إلى السطح، وأخذت تبكي، وتضرب فخذيها في آلية، كانت تندب.. هما، ها.؟ حظها؟ لا تعرف، ولكنها كانت تبكي في زمن لا ينفع فيه حتى البكاء.

جاء الليل، ولم تدرك أنه الليل، فقد كان التعب والإرهاق والجوع والخوف يتلبسها. كانت تتمنى لو تمضي إلى أبو فاروق،

فما تزال متع البيت هناك أشهى إلى قلبها من بيت لم تعرف فيه سوى الحرمان، ولكن. كيف تمضي إلى بيت أبو فاروق، وتترك بيتها؟ فما يدريك. ربما عادا! ربما كانا عند بعض الجيران.. ربما كانا عند باب جامع ما، ربما أشفق على وحدتهما بعض المسنين، فضمهما إليه في غياب أمهما، وها هو يعيدهما إليها.

اتكأت إلى سور الدرج تاركة الدرجة الخشبية تخزها في خصرها، كانت تستدعي الألم، فهي تريد للألم أن يعاقبها على ذنب التخلي عن ولديها، ، واللحاق بمتعها، كانت تعرف أنها مذنبة، وكان هذا عذاباً بحدٍّ ذاته. معرفة أنها مذنبة في استجابتها لشهوتها ولكنها حين كانت تستحضر ذنبها أمامها تنتعش كل مسامِّها، وتتحرك روحها داعية تلك الذنوب إليها من جديد، فتبعدها في قسوة: أيتها الحمقاء. أيتها الحمقاء. ضاع الولدان، وتذكرين لقمة أكلتها، وأحمق أشفق عليك، ثم تلطم نفسها بقسوة محاولة جعل الألم حاجزاً بينها، وبين الذكرى، ولكن الذكرى التي لم تصبح ذكرى، فهي ما تزال في الحارة التالية. ما تزال هناك وراء الفرن.. ما تزال هناك في ذلك الشاب خارق الجمال، خارق الكرم، خارق اللطف، خارق الإنسانية.. خارق.. أعوذ بالله نادرة. نادرة. أيتها الحمقاء انضجي وافهمي. لديك ولدان ضائعان. ما الذي ستقولينه لأبيهما حين يعود.. يعود؟.. يعود؟.. وهل عاد رجل ابتلعه جيش السلطان يوماً، هل عاد رجل دعته الغول المسماة بالحرب يوماً.. اسألي الجدات. سليهن هل يذكرن يوماً رجع فيه رجل من حرب.. إنه إن نجا من الموت

فسيعود مشوهاً أقطع، أو أبتر، أو أعور.. أو محطم الروح.. لا يطلب شيئاً في الحياة إلا ألا يموت على قارعة الطريق ككلب. سلي الجدات يخبرنك أنه ما من عائد من الحرب عاد رجلاً. فالحرب تأكله، وتخراه لتعيده مزقة، حطاماً، وهشيماً.

حسن، ولكن ماذا إن عاد، فكيف ستقولين له: لقد أضعت الولدين. وتتمرت فجأة: كيف أقول. سأقول له: مضيت وتركتني للجوع. تركتني للحرمان، تركتني للهيضة والإسهال، والموت الكثيف، تركتني مع ولديك للتسول، ولا معطي. تركتني للخوف من النوم في بيت بمساحة ميدان وحيدة تخاف من الفأرة، وتخاف من أبو بريص، وتخاف من الخنافس والعناكب.. تركتني السنين، فماذا تريد مني أن أفعل، أضع خدي على يدي وأنتظر.

طال الصراع بين رغبتها في العودة إلى بيت فيه كل الملذات افتقدتها في عمرها القصير، وبين بيت انتظار طفلين تعرف في جزء كبير من قلبها لا تجرؤ على مواجهته أنهما مضيا إلى حيث لا يرجع من مضى.

لا بد أنها نامت في مجلسها أسفل الدرج الخشبي ذاك، ولكنها لا تعرف أنها نامت، بل هي تعتقد أنها لم تنم، ولكنها حين سمعت الأذان القريب بصوت مؤذن الحي العجوز الأجش أدركت أنها نامت، فتحاملت على نفسها لتنتصب، ولكنها كانت متصلبة العضلات والمفاصل، فتقاوت وتحاملت حتى انتصبت، ليَّنت جسمها ببعض التمايلات والتمططات، وكان

الأذان يدعوها، ولكنها كانت تعرف أنها لا تستحق هذه الدعوة، ولكن مواء قطة بعيد ذكّرها بالضائعين، فاستيقظت مرة واحدة وتهيجت مرة واحدة، ونادتهما، لعلهما يكونان مختبئين في هذا الركن، أو ذاك، وحين تكرّر مواء القطة اندفعت إلى الباب الخارجي تفتحه، فلعلهما من يموءان، ولكن الحارة العتمة، العطنة، المخنوقة بروائح البيوت المهجورة النائمة، والمغطاة بسيباطات تمنع عنها النجوم والريح أفهمتها أنهما لا يقفان عند الباب.

أقفلت الباب جيداً استجابة لعادة عوّدتها لها أيام الحرب منذ غياب الزوج، وعادت إلى الباحة. كان الأذان الأجش ما يزال يتردد، فانتابها حس أنها لو اغتسلت، وصلت، فلعل الله يسمع دعاءها، ويعيد إليها طفليها، طفلاً واحداً يكفي يا رب.. لا حاجة إلى خسارة الاثنين.

نزلت في البحرة. اغتسلت، غسلت كل عضو منها بالماء سبع مرات كمن يتطهر من كل ذنب، وماض، خرجت من البحرة. كان نسيم الفجر بارداً بعض الشيء، ولكنها احتملته، وجرت إلى غرفتها، فانتزعت المنشفة التي لم تهيئها قبل الاغتسال، فتنشّفت، وغيّرت ثيابها، ثم صلّت مرات كثيرة ليس صلاة الفجر فقط، بل كلّ صلاة عرفتها، وقرأت ليس سورة التوحيد والفلق والناس فقط، بل كل سورة حفظتها، أو حفظت بعضها، كانت تتجه بجسدها وروحها إلى خالق الحرب والسلم، والأطفال والأزواج، والشهوات.. والتنسكات. كانت تصلي

وترتعش، غير مبالية بالارتعاش، وربما ظنت أن ارتعاشها هذا من مظاهر الوله والتوبة، ولكن الارتعاش زاد حتى لم تعد تستطيع السيطرة عليه، فسلّمت، وركضت إلى حيث الفراش تتدفأ في لحافه، ولكن الارتعاش والتعرق قاداها إلى ما يشبه النوم، ولا نوم.

كانت حمى، شديدة قد أصابتها إثر النوم على الدرجة الأخيرة والاستحمام بماء البحرة دون تنشف سريع. هي لا تعرف كم دامت هذه الحمى. يوماً، يومين، أياماً.. وهي لا تعرف كيف انقضت هذه الحمى، وهي لا تعرف ما الذي تغير في هذا العالم أثناء هذه الحمى. ولكنها استيقظت حين كان العالم ليلاً كانت جائعة، تعبة. متعرقة، قذرة الرائحة، فتحاملت على نفسها، ولم تستطع الانتصاب، فحبت منهكة حتى الباحة، وكان للهواء البارد فضل إنعاشها، فانتعشت، ثم كان للانتعاش الفضل في استقراء سريع لكل ما عاشت قبل الحمى.

شربت من البحرة مباشرة، شربت حتى انتفخت بطنها لكثرة ما شربت ولم تكن تدري أنها تبرد بشربها ناراً تلتهب في جوفها، ولكنها ما كادت تجلس على الطراحة القريبة حتى انتفض جسمها يطلب القيء، قاومت قليلاً، ولكن القيء غلبها، فعدت إلى البالوعة جانب البحرة، فقذفت كل ما في بطنها، ولم يكن الكثير، كان سوائل صفراً وخضراً، وليس غير. قاءت وقاءت حتى أقعدها الإنهاك، فنامت على الطراحة ثانية، وحين استيقظت كانت الشمس تنير الباحة، وكان الجوع يعتصرها،

فذكرت ما حمّلت به البقج عند عودتها من بيت مونة أبو فاروق. فمضت إلى المربع الكبير، وفكّت عقد البقج، فاستخرجت خبزاً يبس، وجبناً يبس، وتيناً يابساً، فأكلت، وأكلت وبدل الشبع كانت تحس عينيها تلوبان في البقج المفرودة والطعام المنشور. كانت تريد أكل كل شيء، ولكن المعدة لم تعد تتقبل مزيداً من طعام، ومع ذلك فقد ظلت على لوبانها تريد الأكل.. ما الذي تريد أكله، ولم تأكله؟ وبهدوء تجسد طلبها للطعام في رمانة حامضة. كانت تريد رمانة حامضة بأي ثمن.

مضت إلى بيت مونتها تأمل في العثور على رمانة حامضة منسية، ولكن كيف يوجد الرمان في بيت عانى من الجوع لسنين. قلّبت في البقج لعل فيها رمانة، أو ما يشبه الرمان، ولا رمان.. عادت إلى الباحة، فشربت ثانية، كانت في حركتها أشبه بحيوان يستجيب لغرائز بدائية. وفجأة رأت ثمرة نارنج خضراء، ما تزال في منتصف الشجرة. جاءت بكرسي، تسلقته، وأنزلت ثمرة النارنج، فأكلتها مع قشرتها الخضراء.. وفجأة وهي تمضغ آخر قطعة مرة حامضة من ثمرة النارنج، هتفت مذعورة: نادرة ماذا تفعلين؟ أأنت تتوحمين؟

وضع الملف من يده حائراً ثم مصدوماً، وما لبثت الحيرة أن تطورت لتصبح شعوراً بالانتصار: هاه. ها هو كاتب هذا الفصل يقع في الخطأ. بالمغالطة الزمنية إذ كيف يمكن لامرأة لم تعاشر الرجال منذ زمن طويل هو زمن الحرب، وأول رجل يدخل حياتها كان منذ - في أسوأ الحالات - عشرة أيام. كيف يمكن لامرأة

كهذه أن تتوحم، والوحام لن تشعر به المرأة قبل أكثر من شهر على الحمل.. هاه.

أراد أن يرسل احتجاجه مباشرة إلى المؤسسة، ولكنه نظر إلى الساعة الجدارية: لا.. هذا غير معقول.. ثم جاءه الاحتجاج: ولكنهم يزعجونك في أي وقت، فلم تحترم راحتهم، ولا يحترمون راحتك..

-لا.. لن أتعامل معهم كما يتعامل معي المهاذر المطارد.. تأخر الوقت، الأفضل أن أنام.. ومضى لينام.

17

كان أول ما اتجه إليه في الصباح الكومبيوتر. كان يريد معرفة إن كان البرنامج استطاع معرفة صاحب الصورة الجديدة في الأرشيف الذي زوَّده به، ولكن الجواب كان سلبياً. نظر إلى الجواب السلبي في لا مبالاة، وكأنه كان يتوقع هذا الجواب، أو كانه كان يتمناه. أطفأ الكومبيوتر، وانصرف عنه راغباً في مراسلة المؤسسة يحتج على الخطأ التزميني الذي وقعوا فيه، ولكنه بهدوء شعر بسخافة الأمر.

جاءته الخادم بفنجان قهوته الصباحي، فهزَّ رأسه شاكراً، واسترخى يستمع إلى الموسيقى الخفيفة يصدرها الراديو القريب. لم يكن ينظر إلى الهاتف ينتظر المكالمة المأمولة، ولم يكن ينظر إلى الكومبيوتر يتوقع أزيزه حاملاً صورة وفقاعة اعرف نفسك، بعد أن كانت هاي. إنه أنا.

شرب من فنجانه يحاول أن يكون هادئاً محللاً ما يجري بعيداً عن توتر مطاردة الهاتف النقال والبريد الالكتروني. قال: سأجرِّد من نفسي واحداً يقرأ ما يجري بعيداً عن الانفعالات. هناك دكتور خبير في الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع.

هذا الرجل عمل لفترة طويلة مديراً عاماً لأكثر من مؤسسة، ومعاوناً لأكثر من وزير، ومستشاراً سرياً للقصر

لأكثر من مرة، والأستاذ الجامعي في أكثر من جامعة، والمحلل السياسي في عدد كبير من الجرائد يجد نفسه محالاً على التقاعد فيخسر كل مواقعه دفعة واحدة، وكأنه لم يكن النجم الواعد برئاسة وزارة، أو بمنظر سياسي أول للبلد، و.. .. بدور هام ومؤثر.. ولكن.. جاءه الجواب: فيما تقول شيء غير منطقي، فدكتور في الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع لا يفقد مواقعه دفعة واحدة. إنه يستطيع أن يرسل بتحليلاته وقراءاته إلى الصحف المحلية والعربية، بل والأجنبية وبذا يحصل على دور يعيد إليه احترامه لذاته، وجاء الرد. ولكنَّ في هذا مخاطرة كبيرة، الرجل.. وضحك ليس أنا.. كان مسؤولاً لسنوات طويلة، وسوف تقرأ تحليلاته على أنها مواقف سياسية للبلد يحاولون تسريبها عبر هذه الطريقة المتظاهرة بالبراءة.. هذا مألوف كثيراً. بالونات اختبار، وسيورط البلد والحكومة، ويورط نفسه فيما لا تحمد عقباه، ولذا فهو ممنوع من الكتابة في الصحف الخارجية حتى لو أعلن أنه يكتب باسمه الشخصي.

حسن. يستطيع التعاقد مع واحدة من الجامعات العربية، أو الأجنبية يدرس فيها، وبذا يستطيع استعادة قيمته واحترامه لنفسه، وجاءه الجواب ثانية: ولكنه يملك معلومات سرية، وتحليلات خاصة، طالما زود بها الحكومة، وسيكون في سفره خارج البلد مخاطرة في إفشائها، ولذا فمن المستحب عدم السفر.. وصرخ في يأس: والعمل؟.. لا عمل إلا انتظار الهاتف المأمول. لعلك تسترجع الرضا.. .. ولكن.. .. لا حلَّ.. .. لقد ربطت نفسك بهذا

القدر، ونعمت بخيراته طويلاً، وحان الآن أن تردَّ بعض الدين.

أنهى شرب قهوته، ودخلت مروة نشيطة مزدهية، وكأنها قد استيقظت منذ زمن طويل، فدعته لتناول الفطور، وقام معها يفطران، ويثرثران.. يحاول الخروج من دوامة الهاي.. إنه أنا، ومؤسسة الترميم، والعودة إلى حياته العادية، بل فكّر وهو يقشر بيضة مسلوقة في أن يهتف للجنرال سعيد وبقية الشلة ليخرجوا إلى مقصف ريفي يتغدون ويثرثرون، فلعل استعادة العالم القديم تخرجه من حالة الحصار التي يعيشها.

كانت مروة تثرثر وتثرثر، وأخيراً سألت: هه ما رأيك؟ واضطر إلى أجوبة المجاملة الموافقة التي لا تلزم بشيء، ولكنه اكتشف أخيراً أنها تعيش حالة السأم نفسها، وأنها تخبره بأنها ماضية مع شلتها من الصديقات إلى البحر. لن تغيب كثيراً، بضعة أيام. والخادم ستقوم بواجباتك كلها. ووافق بسرعة، وكأنه كان يملك ألا يوافق.

انسحب إلى مكتبه، وقرر أن ينفّذ فكرته، فاتصلَ بالجنرال سعيد ولكنه لم يجب، لا عبر الهاتف الأرضي، ولا الهاتف النقال، وبعد عدة محاولات أصابه الضجر.. فكّر أن يتصل ببقية الشلة، ولكنه وقد اعتاد أن يقوم الآخرون بإعداد الترتيبات لم يشأ أن يتنازل، فيبدأهم بالاقتراح وإعداد الترتيبات فتخلى عن الموضوع.

شغَّل الكومبيوتر لقراءة الصحف، ولكن صورة الفتى

المكبَّرة المنتزعة من الصورة الجماعية برزت على الشاشة، وإلى جانبها جواب البرنامج: سلبي.. لا شبيه.

أراد أن يمحو الصورة، وينتزع البرنامج، ويصرف النظر عن الموضوع بمجمله، ولكن شعار المهاذر يقول؛ اعرف نفسك. ألح: ما معنى هذه الجملة، ولم التصقت بهذه الصورة لا معنى لها.

فجأة ومن قلب الإحساس بالعطالة واللاجدوى وجد أمامه تحدياً جديداً. يجب أن أعرف لمن هذه الصورة. فكّر. الصورة مأخوذة حسب صورتي وصورة الجنرال سعيد في أواخر الخمسينيات، أو أوائل الستينيات، حسن.. كانت الستوديوهات التي تصوِّر الطلاب للشهادة الإعدادية قليلة.. فلم لا نسعى إلى البحث في أرشيفاتها ومستودعاتها، فلعلنا نعرف صاحب الصورة.. ولكن.. أتمضي أنت راضي الخاروفي تبحث في الأرشيفات والستوديوهات وإذن؟ كلف واحداً من جماعتك، سائق، سكرتير، حاجب.. أنسيت..؟

وهز رأسه في استسلامٍ يفكّر.

18

كان رشيد واحداً ممن اعتمد عليهم الدكتور راضي في حياته العملية والوظيفية كثيراً. بحث في دفتر هواتفه طويلاً، وأخيراً عثر على رقمه، فهتف له، وكانت المكالمة مفاجأة حقيقية لرشيد الذي بدت له المكالمة فرصة لاستعادة قيمته أمام عائلته، وأمام أصدقاء المقهى.

كان التقاعد أمراً مهيناً تماماً لرشيد، فهذا الرجل الوسيم الذي احتفظ بكثير من وسامته المهيبة في شعره الطويل الرمادي، ووجهه المحمرُّ دائماً، وربطة عنقه التي لا تفارق بدلته تحت أي ظرف كان.

كان له مشهد رجل مهم جداً، وقد كان مهماً حين كان مدير مكتب السيد المدير العام، وحين كان سائقه وسكرتيره الخاص وكاتم أسراره. كان يتنقل معه في المناصب حاملاً أهميته، وقدرته على أداء المهمات المطلوبة منه بشكل رائع، وكان يزيد عليها قدرته العجيبة على المجيء بالسباك لإصلاح عطب ما في بيت المدير العام، وفي إصلاح أعطال الكهرباء والنجارة الصغيرة في بيت السيد معاون الوزير، وكان في الآن نفسه كاتم أسراره المتنقل معه في المناصب حاملاً أهميته الضرورية دائماً.

كان رجلاً مهماً في الدولة، وفي الحارة، وبين جيرانه، وأصدقاء قهوته وفجأة تبخر كل شيء. أحيل على التقاعد القسري ليصبح عاطلاً عن الأهمية، وعن السيارة الحكومية، وعن تعويض المهمات، وصار عليه الاكتفاء بمظهره الجليل، وراتبه التقاعدي المزري.

كانت المكالمة مفاجأة حقيقية لرشيد الذي سرعان ما قدم إلى البيت وبدت له فرصة القيام بدور، ومساعدة الدكتور، وشرب القهوة معه فرصة لاستعادة الزمن الجميل، ويمكن له فيما بعد أن يتحدث عنها إلى زوجه، وإلى أصدقاء المقهى لساعات.

استمع إلى طلبات السيد المدير العام بهدوء، وأخيراً عرض عليه فكرة بدت أشد بريقاً من البحث في أرشيفات ستوديوهات التصوير. كيف؟ أرشيف وزارة التربية، مديرية التربية. إنه المخزن الحقيقي لصور ومعاملات كهذه.

وافق راضي على الفكرة، وإن لم يلغ أمر الستوديوهات، وطبعاً غلّف اهتمامه بالصورة بدوافع إنسانية، فالدكتور كان يقلّب في ألبومات صوره فذكر رفاق الحارة والمدرسة.. .. وهو يحاول الاتصال بهم، والاطمئنان عليهم، ومساعدة من هو بحاجة إلى المساعدة منهم.

كانت الحجة مقبولة، وورقتا الألفي ليرة معينة لرشيد على التنقلات، ودفع بعض الرشوات لموظفي الأرشيف إن لزم الأمر.

مضى رشيد، ومضت مروة، وجرب راضي الهتاف لسعيد

دون فائدة فاستدار إلى الكومبيوتر الذي كان يعلن عن وصول بريد.

ضغط راضي أزرار استقبال البريد، ثم حوله إلى الطابعة، وطلب من الخادم إعداد إبريق شاي يستعين به على قراءة ما سيحمله إليه البريد.

صبت له فنجان شاي كبير، وأعلنت الطابعة عن انتهاء مهمتها، فأشار للخادم كي تحمل إليه الأوراق المطبوعة. رصفها أمامه. جرع من فنجانه جرعتين، وأمسك بالورقة الأولى.

نفد الطعام، وكان لا بد أن ينفد، فمهما كان ما حملته من بيت أبو فاروق كبيراً، فلا بد له أن ينفد خاصة مع شهية كشهيتها بعد الحمى. لابت في البيت الخالي من الولدين، ومن أبو فاروق، ومن الطعام.. كانت تنتظر سماع الأذان في حماسة، فصدور الأذان كان إيذاناً بوضوء سابغ، وصلاة طويلة، وتهجد عميق، وطلب لغفران كانت تؤمن إيماناً راسخاً أنها تستحقه. ولكن الصلاة كانت تنتهي، والبيت الكبير ما يزال الخالي يحاصر الصبيّة الوحيدة في البيت الكبير، ولا زوج، ولا ولدين، ولا طعام ولا.. .. أبو فاروق.

صمدت يومها الأول بعد نفاد الطعام، وصمدت يومها الثاني، وفي اليوم الثالث قررت مع أول إشراقة للشمس مغادرة البيت، والبحث عن الولدين، رغم أنها تعرف في جزء كبير من قلبها أنها لن تجدهما و.. .. عن طعام، وهي تعرف ألاّ طعام في المدينة، وعن.. .. لا تدري عمَّ تبحث أيضاً. ولكنها خرجت، ولابت

في الحارات، وفي الجادات.. .. وتسكعت عند أبواب المساجد والزوايا والخانقاهات.. كانت تذكر أنهم كانوا يوزعون خبزاً، أو شوربة، أو شيئاً يؤكل في الأيام الغابرة، ولكن المساجد كانت منطوية على نفسها، والزوايا تشكو ندرة الطارقين، أما الخانقاهات، فقد كانت قد تحولت منذ بداية الحرب إلى مهاجع للجند في انتظار مضيِّهم إلى الحرب..

لابت، وحامت، ودارت، وأخيراً وجدت نفسها في حارة الفرن.. لم تكن هي من اختارت، وربما لم تكن هي من ساقت القدمين، بل كانت القدمان من ساقتاها لتجد نفسها على مقربة من الفرن.. توقفت حائرة تتردد بين الالتفاف وطرق الباب لتفتح هدية لها الباب. أو مفاجأة أبو فاروق المشتاق ولا شك إلى قدومها في الفرن.

كانت قد نسيت التوبة والغفران والصلوات الطويلة منذ شمّت رائحة الدقيق، والقنّب المحروق، ورائحة الخبز المعلقة قرب الفرن وفي الحارة، فهاجت أحشاؤها الجائعة. اقتربت من الفرن قليلاً وذكرت تقرياً قامت به منذ زمن ليس بالطويل، و.. .. رؤية أبو فاروق وقد أسفر عن حسنه الرباني، فشهقت، وتساءلت: أيمكن للقدر أن يكرر نفسه.

تقدمت ورائحة الخبز اللافحة المعلقة تشدُّها، فتنشدُّ. وفي تقدمها هذا كانت تعيش تمزق الإنسان بين شهوتين، شهوة البطن الجائعة لثلاثة أيام، ولا مورد للطعام إلا عند هذا الرجل، وشهوة الجمال المتجسد في رجل اختزن جماله تحت أقنعته كما تختزن

النحلة عسلها تحت قناع بطنها.. تقدمت خائفة فقد أحست فجأة أنها وقد تخلت، فلم تعد صاحبة الحق كما كانت يوم قال (تعالي). ثم ذكرت لهفته وحنانه وعطفه، فقالت: رجل بهذه اللهفة والحنان لا يمكن أن يكون إلا هو.

تقدمت ورائحة الخبز تلح، ولكن.. .. لا.. .. أبو فاروق. لم لم يخرج من الفرن كما حصل في المرة الأولى.. لم لا يريد القَدَرْ أن يكرِّر نفسه.. لم لم يهلّ من الباب حاسراً عن ذلك الحسن الإلهي الذي حدثتها عنه هدية في حرقة، وأنه كان بين يديها لسنوات، ولكنها أبداً لم تعرف قيمته، فقد كان مستتراً عنها، وما إن رأته وقد حسر حتى صار لغيرها، قالت جملتها الأخيرة في حرقة حاولت أن تجعلها خالية من الحسد، ولكنها كانت تنز بالحسد والقهر والـ.. ..

تقدمت حتى صارت في باب الفرن، أطلّت، ولكن أبو فاروق لم يكن هناك، بل كان هنالك صبي يكنس آخر ما تركه الخباز والجند على أرض الفرن.. نظر إليها الصبي بجانب عينه، وعرفها، فقال في جفاء: راح.

واضطرت إلى أن تسأل في انكسار: إلى أين؟

وأجاب الصبي وهو يتابع عمله مشيراً إلى الباب الصغير الفاصل بين الفرن، وبين البيت: هناك. وأدار مؤخرته الصغيرة لها منهمكاً في كنس أرض الفرن. أرادت التقدم من الباب الصغير، ولكنه انتصب، وأشار في اختصار بأن الدخول من هذا الباب ممنوع.

-ولكنه ينتظرني!

فاكتفى بإدارة ظهره لها واستكمال كنسه. عرفت ألا فائدة من الجدال.. فخرجت من الفرن، ودارت إلى الحارة الأخرى، وطرقت الباب على استحياء، ففتحت هدية الباب، وما إن رأتها حتى شهقت، ثم اصفرَّت، ثم ارتبكت، ثم ارتمت في حضنها واستقبلت نادرة كل هذه التقلبات غير فاهمة، ولكنها حين جرَّتها هدية إلى الباحة، وأجلستها على الطرَّاحة، فالتفتت إلى غرفة النوم لتجد الباب مقفلاً فيدبّ الجنون في جسدها. رأت هدية ذلك في عينيها، فهدأتها، فنظرت نادرة إليها في إعجاب خجول، هدية الزوجة الشرعية تهدئني!! وهزت هدية رأسها في إيجاب. ثم عرضت عليها الطعام، فوافقت، وقامتا تعدَّان الطعام، ومن الغريب أن منظر الطعام والخبز الطازج أنسياها الباب المغلق، ولكنها ما كادت تملأ بطنها، وتتجه إلى الطرَّاحة حتى دبَّ الجنون ثانية فيها، فالتفتت إلى هدية متسائلة، وهزَّت هدية رأسها إيجاباً: الرجل مجنون بالإعجاب بنفسه ما كدت تمضين حتى دعا أخرى إلى فراشه.

-وأنت؟

أنّت هدية ثم هزَّت رأسها في حكمة: أنا في بيتي، وعند أولادي والرجل يجن، ويطير، ثم يعود إلى عشه، وأنا.. تنهدت.. أنتظر عودته.

هذا الرجل الغريب المسمى أبو فاروق، الذي قضى سنوات شبابه الأولى ملثماً محجوباً عن الأنظار يعيش على المجدرة،

والزيت والزعتر كما حدَّث هدية عند عودته إليها ملثماً محجوباً مرة أخرى ما كاد يشمُّ ريح إبطه ويرى تأثير فرنه، وتأثير جماله على النساء المحرومات من كل شيء حتى انفجر وحش عجيب فيه، وحش جائع إلى كل شيء، إلى جمع الثروات وقد جمع كل ما استطاع أهل المدينة بيعه لشراء الخبز، إلى جمع النساء وقد تحوَّل إلى ديك لا يرضى لامرأة أن تقيم في فراشه لأكثر من ليلة، فإذا ما جاء اليوم التالي وجدت نفسها تحمل ما تستطيع من طعام ولباس، وتمضي ظانَّة أنها ستعود، ولكنها حين تعود كانت تجد الأبواب مقفلة والفراش مشغولاً، فتحوم آملة قليلاً ثم تستسلم لهزيمتها وتمضي.

هذا الوحش، أو التيس الأسطوري الذي سيتكرر كثيراً في الذاكرة السورية منذ الزمن الكلاسيكي كان يمكن له أن يستمرَّ في هذه المهمة إلى الأبد - أبده الخاص طبعاً لو لم تتوقف الحرب فجأة. من أوقفها؟ لا يعرفون. لماذا وقفت لا يعرفون، ولكنها ببساطة.. توقفت، وبدأ كسيرو الرجال بالعودة.

كانوا يتقاطرون منحني الظهور، وأيديهم خلف ظهورهم لم يكونوا منتصرين، ولم يكونوا غانمين، فغنيمتهم الوحيدة كانت عودة أجسادهم الناقصة ذراعاً أو عيناً أو.. روحاً..

عادوا ليجدوا مدينة جائعة وبيوتاً مهجورة ونساء متوفَّيات أو مهاجرات إلى مدن أخرى بحثاً عن طعام، وكساء وزوج.. عادوا ليجدوا عالمهم القديم الذي حلموا به الليل الطويل يتقلبون تحت نجوم شاحبة وقد تدمَّر تماماً، وحين عادوا فوجئوا بأبو فاروق

الذي عاش جنته وفردوسه، واستعاد التيس القديم في غيابهم. وكان من أكثرهم وجعاً زوج نادرة الذي خسر ولديه، وأضاع زوجه التي عرف بحملها دليلاً لا يدحض عما تمَّ في غيابه، فقرَّر الانتقام.

مضى إلى الفرن، رآه، وعرف أن النساء كنَّ معذورات. فمن تستطيع أن تقاوم مثل هذا البهاء، ولكنه في الآن نفسه أحسَّ الحسد الجارح.. نحن كنا نموت ونخسر أذرعنا وسيقاننا، وأرواحنا، وهو مقيم يستمتع بكل ما تركناه من خلفنا.

بحث عن نادرة فلم يلقها. قال: يجب أن تدفع الثمن، ولكنها وقد عرفت برجوعه حملت ما خفَّ حمله من مجوهرات أهداها لها أبو فاروق، وهربت.. فرَّت إلى مدينة مجاورة أخرى، واختفت هناك، تنتظر ولادتها، ولم يطل بها الانتظار حتى ولدت. وكان الولد مفاجأة لنادرة، وللداية، وللنساء المتحلقات من حولهما، كان الجمال الخالص. كان الوارث الحقيقي لأبو فاروق التيس.

أما أبو فاروق. فقد عرف بولادة ابنه الحقيقي في اليوم الذي ولد فيه حين هاجمه زوج نادرة ساكباً عليه حمضاً حارقاً غيّب وجهه الجميل مرة ثانية وراء لثام من تجاعيد وحروق ولثام من صوف يخفي القبح الجديد - القناع الذي أخفى وراءه الجمال الذي تيَّم وخرَّب نساء المدينة. لم يكتف الحمض بإحراق وجهه، بل امتدَّ إلى جسده فأحرق بطنه، وأسفل بطنه، وعاد.. .. أبو فاروق إلى هدية التي استقبلته وكأنما تستقبل عائداً من الحرب. كان

نصيبها من الحرب مشابهاً لنصيب النساء الأخريات اللواتي انتظرن، ولن رجالاً شوهتهم الحرب، ومزّقتهم الحرب، وكسرتهم الحرب، ولكنهم كما قالت عنهم إحدى النساء أخيراً. زوج من خيطان، أغيظ به الجيران. وكان هذا كل ما حصلن عليه وحصلت عليه هدية من الحرب التي شهدت ويلاتها من ثقب حفرته فأر وكانت تسدُّه بعود ملفوف بخرقة. وها هي حين استقبلت زوجها الملثم تعيد العود الملفوف بخرقة إلى الجدار، وتتنهد، فقد عاد إليها الزوج أخيراً، ولو من خيطان.

تنهد راضي وهو يرفع رأسه عن الملف أمامه: هه.. محاولة جيدة لإعادة صياغة أسطورة إيروس وبسيشه. أبو فاروق وهدية..

عجيب أمر الذاكرة البشرية كيف تعيد صياغة أساطيرها..

وفجأة توقف لماذا شبَّه كاتب النص أبو فاروق بالتيس تحديداً، لم لم يشبِّهه بالديك، أو بالعصفور، أو لم لم يشبّهه بالقرد وهو الأكثر شهرة في كثرة الممارسات الجنسية، لم سمّاه التيس، وشبَّهه بالتيس: أكان يشير عن غير وعي، أو عن وعي إلى الإله الكلاسيكي القديم آتيس، أو ديونيز الذي رمزوا له بالتيس، فأشار له بصيغته العربية التيس. وبهدوء وكعادته في ملاحقة الفكرة الحالية شارداً عن السياق تساءل: أكلمة التيس أصلاً عربية ولا اشتقاق عربياً لها، أم أنها مستعارة من لغة قبل عربية، ثم خففت من آتيس إلى التيس. وعاد إلى الفكرة الأولى. أيحاول محرر الفصل الربط ما بين الجد الأسطوري الجميل ذي

الخمار، وبين أبو فاروق عبر الرجوع رمزياً إلى رب الخصب آتيس، أو التيس الطوطم..

قطع عليه تأملاته رنين الهاتف النقال، فلم يرتعد، ولم يستجب، بل تركه يرنُّ ويرنُّ غير مبال، كانت الفكرة تلحُّ عليه، وكان تقارض الثقافات كلٌّ عن الأخرى موضوعاً عزيزاً إلى قلبه. ايروس وبسيشه. و.. .. في ألف ليلة وليلة، والآن أبو فاروق وهدية.

تأمل التحولات في ايروس الإله الجميل، القادر على صنع المعجزات والذي أبهج الجميلة بسيشه بزواج غامض منها شريطة ألا ترى وجهه.

أليست القصة نفسها أبو فاروق الجميل جداً، والمختفي وراء لثامه الحامي لتشوهات وجهه، وكان يمكن لها أن تعيش العمر كله معه زوجين عاديين سعيدين لولا أنها رأت وجهه الجميل بعد سقوط لثامه مخفي تشوهات الحريق، فهجرها إلى أخريات، ثم استعادته حين فقد جماله ورجولته، وتلثَّم.

تنهد راضي: ما الخفي وما الرسالة وراء هذه الحكاية. ما الذي يريده محرر هذه السيرة بدأها بسيرة ذو الخمار، ثم تابعها بسيرة أبو فاروق الفران خفيُّ الجمال وراء الحروق والندوب، ثم تسقط الندوب، فينجلي بهاؤه المكتوم ويلحق بشهوات جمع المال والنساء ليعاقب بحرمانه الجمال وغيابه وراء الحروق والندوب..

ما الرسالة المراد إيصالها من هذه السيرة. فكّر. فكّر، ولا جواب.. وأخيراً قرر سؤال المؤسسة مباشرة عن المقصود بهذا

كله، و.. .. من هو ذو الخمار أصلاً.

قام إلى الكومبيوتر. كتب رسالة كاملة حمّلها بتساؤلاته وحيرته وركّز بقوة على معرفة أصل ذو الخمار، فلا بد أنه مركز الحكاية.

أرسل الرسالة. استرخى قليلاً، ولكنه ما كاد يرسلها حتى قرع الباب الخارجي وسمع خطوات الخادمة تمضي لفتح الباب، فتساءل: أهي مروة؟ ولكنه سمع صوتاً رجلياً يسأل عنه، فأدرك أنه رشيد، فصرخ يطلب من الخادمة إدخاله.

قام لتحيته، فرأى رشيد في قيام الدكتور راضي لاستقباله فضلاً كبيراً، فكاد ينحني على يده مقبّلاً يرجوه الا يقوم.. .. يا أستاذ.. .. يا دكتور. الدنيا مقامات. وأخيراً تخلّصا من المجاملات، وجلسا، وقبل أن يطلب راضي القهوة قال رشيد: عدنان حب الرمان.

لم يفهم راضي، فكرر الاسم متسائلاً: ماذا؟ عدنان حب الرمان ما معنى هذا؟

أخرج رشيد من جيب صدره ورقة ومعها صورة الفتى الغامض الذي ألصقوه إلى الصورة الجماعية ممسوحة الوجوه: ولد وحيد جاء بعد خمس بنات. علّق الأب الحلاق صاحب محل الحلاقة الشعبي الآمال بأن يرث الولد الدكان والصنعة، ويريحه في شيخوخته، وقال راضي ما يزال المندهش لا يفهم تماماً ما الذي يقوله رشيد:

-ولكن.. ..

وأشار رشيد بثقة ودالة، فهو يستطيع هذه المرة ملاعبة معلمه ورئيسه السابق. الدكتور راضي: حلمك علي يا دكتور، حلمك!

-تفضل - ثم رأى تخفيف حماسة رشيد - فسأله: كيف يحب قهوته؟

ولكن جواب رشيد كان مفاجئاً: لم أذق شيئاً منذ الصباح.

-آه بسيطة، قالها راضي مندهشاً، سأجعلها تأتيك بسندويش. ماذا تحبها. جبنة. بيض؟

ولكن رشيد قال: ليتكم تطلبون إليها أن تجعلها اثنتين، فأنا منتش بنجاح مهمتي، و.. .. جائع.

-طيب يا سيدي. قالها في تسامح.

نادى الخادم، وطلب إليها إعداد ساندويشتين، وقال رشيد في تدلُّل: وإبريق شاي بدل القهوة.

مضت الخادم، واختلى الرجلان ثانية، وقال راضي: هه. أسمعنا جواهرك.

فكرر رشيد: عدنان حب الرمان.

-هذه عرفناها.. ما حكايته؟

وانطلق رشيد يحدثه عن الأسرة اعتادت منذ بضعة أجيال

ألا تنجب إلا ذكراً واحداً، وكان حظ الأب الحلاق أن التقليد استمر في الفتى عدنان، والذي دفعه إلى المدرسة آملاً أن يصبح متعلماً ويحيل الصنعة من حلاق في حارة إلى حلاق فنان يقتتل عليه النساء والأكابر، فيكثر المال بين يديه ويعيد إلى الصنعة احترامها، ولم يكن الولد شديد النباهة في التعلم، ولكنه كان يستجيب إلى إلحاح أبيه، فلم ينقطع عن المدرسة حتى وصل إلى الشهادة الإعدادية، فبرك فيها ثلاث سنوات، ولم يستطع اجتيازها.

-والصنعة؟ سأل راضي.

-أتقن منها ما أتقن أبوه، أي حلاقة الفقراء، وبعد محاولات كثيرة اقتنع الأب أن هذا حظه ونصيبه، فاستسلم. ولكنه في اليوم الذي استسلم فيه وقع الانقلاب في البلد وامتلأت الشوارع بالدبابات والسيارات العسكرية، وكان فضول عدنان هو ما ساقه إلى الفرجة على ما يجري، وكان هذا آخر ما يعرفه عنه أهله، وأصدقاؤه إذ اختفى بعد ذلك نهائياً.

-ماذا؟ اختفى؟

-نعم. هذا كل ما استطعت جمعه عنه من معلومات، من مديرية التربية، ومن مدرسته الإعدادية التي ما يزال أرشيفها يذكر الصبي الذي رسب ثلاث سنوات في الإعدادية، ثم.. .. اختفى يوم الانقلاب العسكري.

جاءت الخادم بالسندويشات والشاي، فانقضَّ رشيد عليها

بعد جوع يوم كامل، صبٌّ لنفسه الشاي، ثم في كرم صبٌّ الشاي لراضي الذي كان مستغرقاً في السؤال: ولماذا يرسل لي مهاذر البريد الإلكتروني صورة هذا الفتى وفوقه هالة: اعرف نفسك. ما معنى هذا. ما المراد منه. ولكن رشيد دفع إليه فنجان الشاي.. اشرب يا دكتور.. اشرب.. وأخذ يتغنى بمتعة الشبع بعد الجوع، والراحة بعد التعب و.. .. فجأة سأل راضي: ولكن، ما أهمية فتى كهذا لك؟.. ومتى تعرفت عليه، فهو لم يكن طالباً في مدرستك ولم ينشأ في حارتك. فأين تعرفت عليه حتى تريد مساعدته الآن؟

صمت راضي، فلم يكن يملك جواباً، ولم يكن يملك مزاج الثرثرة، ولم يكن يستطيع زحلقة رشيد ليخلو بنفسه، وأخيراً عرض عليه اصطحابه إلى المقهى يلعبان الطاولة ويثرثران، ووافق رشيد جذلاً، ففي المقهى سيراه رفاق المقهى مجالساً المدير العام الدكتور راضي.

19

في الصباح الباكر سعى إلى الكومبيوتر مسوقاً بعادة جديدة أدمنها منذ أحيل على التقاعد، فتوقّف ورود الصحف العربية والأجنبية حصته من المعرفة المخصصة للموثوق بهم، ولكن ها هو ذا المطارد المهاذر يجعله شريكاً دائماً في المعرفة عبر الكومبيوتر، وليس المهاذر فقط، بل ومؤسسة الإنشاء والترميم.

ابتسم في سخرية: يا لعبث من ابتكر هذا الاسم المراوغ. إن أول ما يوحي به أنها مؤسسة للبناء وترميم البيوت الرثّة، أو الآيلة للانهيار، وما اختاروا موقعها في الحي الشعبي الأثري إلا إيحاء شديد الوضوح إلى مخادعة التسمية، ولكن. كانت الفكرة تلحُّ عليه.. .. الإنشاء. ما الذي عنوه حقاً بالإنشاء. أهو الإنشاء بالمعنى المدرسي لغوياً، أم إنشاء سيرة من فراغ.. ..؟ أهي من الفراغ حقاً، أم أن هؤلاء الباحثين لا يعبثون.. صحيح.. ذو الخمار الجميل، و.. أبو فاروق الجميل.. اتجه إلى المرآة يتأمل وجهه.. هه.. ما تزال تحتفظ ببعض وسامة رغم التقدم في السن، ولكن هذا الجمود، هذا البرود الحالُّ على الوجه والملامح. هذا القناع الفولاذي.. صحيح. كثيراً ما سمع من نساء عبرن في حياته أنهن كن يحلمن

بإذابة القناع المتكبر.. المتكبر؟.. هه.. لو يعرفن.. تأمل ملامحه ملمحاً، ملمحاً بهدوء.. ملامح قياسية الجمال، ولكن.. لم لم ير نفسه جميلاً أبداً؟.. صحيح.. شيء ما غريب جعل هذه الملامح الجميلة تتصلب تحت هذا القناع الفولاذي.. هه إلام تريد أن تصل دكتور راضي؟ إلام تريد أن تصل؟.

ابتعد عن المرآة خائفاً من متابعة الفكرة. ضغط مفاتيح الكومبيوتر بسرعة كمن يهرب من مواجهة الفكرة. أزَّ الكومبيوتر حالما سخن معلناً وصول بريد إلكتروني، فضغط أزرار استلام البريد، بسرعة.. .. كانت الرسالة من مؤسسة الترميم والإنشاء، فضغط أزرار تحويل الرسالة إلى الطابعة، ومضى إلى المطبخ يعد قهوته.

كان اسمهم لَعقَةَ الدم، وكانوا الأقسى بين جيرانهم، فقد كانوا يُعِدُّون للطفل حال نزوله من رحم أمه طستاً مليئاً بالدم الغريض، فإن كان صبياً دُفع الصبي إلى الطست، فغُطِّس بالدم ليكون أول ما يشمُّ الصبي وقبل أن يصفع على قفاه الدم. ثم يعمد بعضهم، وهم من يراقبهم الكهنة والشيوخ بقوة إلى لعق شفاههم ملّحها الدم، هؤلاء اللعقة سيكونون القادة العسكريين، والسياسيين والدينيين، أما من لم يلعق شفاهه المالحة، فهم غمار الشعب، ولكن الضعفاء من الصبية ممن لا يحتملون هجمة الدم على جلودهم الطرية وأنوفهم لم يقسُّها الهواء بعد فسيموتون غير مأسوف عليهم، فهم من لا يستحقون الحياة، فالحياة قاسية ولا بد لها من رجال أقوياء.

كانت الفتيات معفيات من هذا العماد، فكن يغسلن مباشرة بالماء المعطّر، ويرذذن بمسحوق ورق الآس والريحان، وكان الفلاسفة يقولون: النساء للمتعة، ولذا يجب أن يكنَّ جميلات، ناعمات، معطرات. أما الرجال، فهم للقتل، والقتال، ويجب أن يكونوا مشتقين من صخر لذلك كنت تسمع أسماء مثل صخر، وحجر، وموت، وطاعون، للصبية والرجال، وكنت تسمع أسماء مثل زهرة، وعطرة، ووردة، وهفهافة، أسماء للنساء.

في رحلة غير مخطط لها مضى الملك الصغير مع قافلة للتجار إلى المدينة المجاورة، وكانت المفاجأة حين اكتشف كم كان رجال تلك المدينة جميلين، كانوا أشبه بالنساء في فتنتهم وسحرهم، وربما لم يكونوا جميلين في الواقع، ولكنه حين قارنهم برجال قافلته وتجارها رآهم ملائكة في الجمال. كان الملك ورجاله ضيقي العيون، قاسي النظرات بشفاه رقيقة حتى كأن الفم ليس فماً، بل شق شُقَّ في الوجه بسكين حادة، وكنت تراهم يمدون ألسنتهم الطويلة يلعقون بها الشفاه الرقيقة بين اللحظة والأخرى، فكانوا يشبهون في حركتهم هذه الثعابين تستكشف العالم بألسنتها.

رأى الملك الصغير قبحه حين رأى جمال سكان المدينة الأخرى، ورأى قبح رجاله المستقبلين الشديد، فتساءل: لم كنا على هذا القبح؟ صحيح أنّا سادة الإقليم والأقاليم المجاورة، سدناهم بسيفنا ولعقنا الدم، ولكن ذلك كان في الماضي. أما في أيامنا هذه، فقد طرأ شيء جديد على دمائنا فأرخاها، وعلى

عنفنا، فهدّأه، فلم تعد القبائل الأخرى تقيم لنا كبير اهتمام، ولكننا ما زلنا لعقة الدم، وما زلنا نطلق ألسنتنا تلعق شفاهنا في ظمأ من يتوقع لعق شيء مالح دافئ أحمر يسمونه الدم.

على العكس من لعقة الدم كان نساؤهم جميلات. طبعاً إذا ما قورنَّ بنساء المدن الأخرى، فربما لن يفقنهم جمالاً، ولكنهن حين يقارنَّ بإخوتهن ورجالهن، فهن الرياحين والورود حسب أسمائهن مقارنات مع الصخور والطواعين.

عاد الملك الصغير المتزوج منذ الرابعة عشرة والذي كان لديه ابنان توفي أحدهما لدى تغطيسه في طست الدم. صحا في اليوم التالي، ونظر إلى ابنه الصغير، ونظر في المرآة، وتساءل: لم لا يرزقنا الله بفتيان جميلين، فتيان لن نقول إنّا نريدهم آيات للجمال، ولكن على الأقل ألا يكونوا آيات للقسوة والدمامة.

فكّر. وأرق، وأطال التفكير، ولكنه لم يجرؤ على مفاتحة من حوله، لا الأب، ولا الوزراء، ولا القادة، فقد كان معروفاً بشكل غير مكتوب أن هذا تميُّزهم الذي يخيفون به الأعداء، ولكنه قال: سأسأل من يستطيع الإجابة. لا بد أنني مستطيع يوماً إنجاب صبي جميل.. حسن.. لم لا يستطيع من ينجب فتاة جميلة أن ينجب فتى جميلاً.

سأل سراً، وسأل فيما يشبه السر، وسأل مواربة، وسأل فيما يشبه العلن، وأخيراً دلّوه على الشيخ زين السماء، الناسك المقيم بالصحراء لا يقرب الناس، ولا يقاربهم، طعامه تمر ترميه

بضع نخلات محيطة بكهفه. وشرابه عين صغيرة لا يكفي ماؤها لصنع بركة مهما صغرت، فما يصدر عن العين يبتلعه الرمل في لحظته.

مضى إليه، سجد بين يديه قبل شروق الشمس، فوضع الشيخ يده على ظهره، ويحدّث الملك الصغير فيما بعد، فيقول: والله لقد أحسست السماء تنطبق على ظهري، ولو لم يرفع يده بسرعة، فلربما كان الموت.

قال الملك الصغير: مولاي، لم كان أبناؤنا على هذا القبح، ولا نستحقه.

نظر إليه الشيخ بعينين ضيقتين زاد في ضيقهما الغضون وطول شعر الحاجبين المتهدل عليهما. قال: الحمد لله أن مدّ في عمري لأسمع هذا السؤال.

فقال الملك الصغير شبهَ مصعوق: أو كنت تنتظره.

-كنت أنتظره، ولكن من واحد من المتمردين، من العامة، أما أن أسمعه من ابن الملك، وملك الغد، فهذا فضل كبير من الله.

شعر الملك الصغير ببعض نشوة أنّ سؤاله لم يكن صرخة في فراغ. فقال: رأيت أطفال الآخرين. كانوا جميلين، هناك فرح في عيونهم وعفرتة طفلية على وجوههم، أما أطفالنا، فيولدون مهمومين، حزانى، يتطاولون منذ نَفَسهم الأول بألسنتهم إلى الخارج يبحثون عما يلعقونه. أهذا هو قدرنا؟.

اختصر العجوز الحديث، فقال: ما الذي تريد بالضبط؟

قال الملك الفتى: أريد طفلاً عادياً بفم غليظ الشفتين، ولسان دفين في الحلق، وعينين كبيرتين صريحتين تتأملان العالم بما يستحق من تأمل.

قال العجوز: هيهات. أجيال وأجيال ولدت، وشعارها: الدم في طست العماد، والريح الأولى يشمها الصبي ريح الدم، والطعم الأول يذوقه طعم الدم، فكيف تريد تبديل هذا برغبة واحدة، حتى لو كانت رغبة ملك.

قال الملك الفتى: أنا مستعد لدفع كل ثمن مطلوب لتحقيق هذه الأمنية.

نظر الشيخ العجوز ذو العينين الكابيتين من خلال شعر حاجبيه المتهدلين ثم انصرف إلى صلاته تاركاً الفتى لحيرته وتأملاته، وما أقلّ الموجودات من حوله يتأملها، مسطح أبيض بلا نهاية، ودائرة سوداء مخضرة من بضع نخلات وأعشاب، وصخرة كبيرة تحمي نبعاً صغيراً يستند إليها الشيخ ويوكئ عليها بضع أغصان من جريد يتظلل بها. تأمل العالم المحيط على فقره، ثم أعاد تأمله، ثم أعاد تأمله، ثم لم يعد يوجد في الخارج ما يمكن تأمله، فانصرف إلى داخله يذكر طفولته ودماه الأولى من سيوف، ودمى من قش يطعنها، ذكر طسوت الدم المعلقة على الجدران، وعلى كل طست اسم من اغتسل بها بالدم حال نزوله من الرحم. الشفاه الرقيقة. الألسن الدقيقة تلعقها.. نظرات

الشوق والوله في عيون نسائهم حالما يمر بهم حوّاج، أو بائع يحمل على دابته أشياء النساء. الحقد والغيرة في عيون الرجال وطردهم الحوّاجين والباعة، ثم تحولهم بأنفسهم إلى حواجين يأتون نساءهم بما يشتهين من خرز وترتر ودندشة ومخامل حتى لا يمرَّ بهم الحواجون.

طالت صلاة الشيخ، وطال تأمل الفتى الذي لم يكن له عهد بالتأمل، وأخيراً أنهى صلاته، والتفت إلى الملك الشاب.. .. قال: امرأتك حامل؟

قال: نعم.

-وتريد لابنك منها أن يكون جميلاً.

-أريد ألا يشبه لعقة الدم.

-حسن.

قام. مضى إلى كهفه - حفرة في الصخرة تكاد لا تتسع لرجلين معاً - غاب، وغاب حتى كاد الملك الشاب يسأم، ثم خرج، فقدم له تميمة من جلد مشدودة جيداً وقد شدّت إلى أنشوطتين من حبل. قال: عند الولادة، وحين تتأكد تماماً من الولادة تربط هاتين الأنشوطتين إلى فخذيها، فإذا ما انزلق الصبي انزلق عبر الحبلين والتصقت التميمة بجسده.

-والدم؟

-إياك. إياك وطست الدم.

-ولكن. بم نغسله؟

-بالحليب البكر، باللبن لم يَضِره ماء، وفي إناء لم يدنسه الدم. تغسله سبعاً، ثم تقمطه بثوب من قطن لم يغسل من قبل، لم يدنس ولم يطهر، ولم يمسَّ الدم.

حمل الملك الصغير التميمة المربوطة إلى ما سيكون أنشوطتي الفخذين، ولكن الشيخ استوقفه: لم تسلني عن مكان الولادة.

-في القصر، وأين يولد سليل الملوك إن لم يكن في القصر.

-قصر بني على الدم، وأسِّس على الدم، ولوِّنت جدرانه بالدم، وتريد لابنك الذي لن يكون من لعقة الدم أن يولد فيه.

-فما المطلوب؟

-تحمل الأم مع وصيفاتها العذارى لم يدركن النساء، ولم يعرفن الدم إلى الصحراء، إلى مكان لم يقصده لعقة الدم من قبل، فتقيم لها خيمة من شعر لم يدنسه، ولم يلوثه الدم، ثم تستولده فيها، وأرجو أن ينجو من لعنة لعق الدم.

حمل الملك الصغير التميمة، ومضى بها، وعلى الطريق خطر له أن يفتحها، فلم تكن محكمة الشدّ. فتحها، فلم ير إلا كلمة واحدة مكتوبة على شكل سبع دوائر متداخلة، كانت الكلمة: لا تخن العهد.

توقف مشدوهاً، ثم أخذ الشك يلاعبه: الشيخ يسخر منه؟.. ما هذه التميمة، هو يعرف التمائم أدعيات، واسترضاءات لله وملائكته، ورجاءات بالحفظ والصون.. أخذت الدهشة تتحول إلى انزعاج ثم إلى غضب، ثم استدار عائداً ملاحقاً بحرسه عن بعد.

وصل إلى حيث الشيخ، ورمى إليه التميمة المنشورة. قال:

-أتسخر مني يا مولاي.

فنظر إليه في هدوء وقور: ولم أسخر منك؟

-فما معنى هذه التميمة تقول: لا تخن العهد. ما معناها، ما المقصود منها؟.

نظر الشيخ ذو العينين الضيقتين إلى الأفق البعيد وقال:

-وهل أهبط آدم من الجنة إلا الخيانة.

-أية خيانة.

-خيانة العهد.. وأشار إلى التميمة.. هذه التميمة هي العهد بين الشيخ، - وأشار إلى البعيد، ففهم أنه يعني شيخ الشيوخ، أو القطب -، وبين المريد. الولد القادم. إنها تقول: لا تخن العهد.. فتتكبر على بني جنسك. لا تخن العهد، فتستغل ضعف الآخر.. لا تخن العهد، فترى في خلقتك الموهوبة لك من الله جمالاً مزيَّة، وعلى الآخرين دفع ثمن هذه المزية. لا تخن العهد، فتقتل أخاك لتنقذ نفسك.

وتمتم الملك الصغير: ولكن متى تم أخذ العهد.

فقال الشيخ في وقار: حالما تربط الأنشوطتين إلى الفخذين، وتجعل الطفل يمرُّ من بينهما، فقد أخذ الصبي العهد، وصار ملزماً به حتى الحفيد الأخير.. هذا هو العهد وأنت حر في القبول.. والرفض.

أحنى الملك الصغير رأسه شاعراً أنه أخطأ حين فتح التميمة وشكَّ في الشيخ. جمع التميمة بأنشوطتيها. قبَّل يد الشيخ، ومضى.

بعد شهرين ولد الفتى الذي سيحمل رسالة الجمال إلى العالم.. ولد من قبيلة لعقة الدم ذلك الفتى الذي ستعرفه السيرة باسم ذو الخمار.

❖ ❖ ❖

وضع راضي الملف الصغير أمامه يفكر.. الحكاية تتعقد. هناك رجلان آذيا النساء بجمالهن، واحد بتكبره عليهن حتى انتقمن منه بجبِّه، وواحد استغل الزمن القاسي، الحرب والجوع، وندرة الرجال، ولكن.. التميمة الوصية: .. لا تخن.. لا تخن.. .. ترى إلى من وجهت هذه الوصية - التميمة. إلى من: لا تخن العهد بالكبرياء، ولا تخن العهد باستغلال الآخر، تنهد، ثم: لا تخن العهد، فتقتل أخاك لتنقذ نفسك.

تنهد ثانية.. ما لي ولهذا الفضول، ولم أصررت على معرفة أصول ذو الخمار هذا.. لم يستطع إكمال قهوته، فلبس، ومضى ليتمشى.. ولكنه عند الباب ذكر، فعاد بسرعة إلى

جهاز الكومبيوتر.. كتب عنوان المهاذر الإلكتروني. طبع الرسالة - الصورة الجماعية تحوي صورة الفتى الغامض، صنع فوقها فقاعة، وضحك من نفسه. أين رزانتك. لم لا تضع جوابك بطريقة عادية، ولكن المعابثة غلبت عليه، فوضع في الفقاعة اسم عدنان حب الرمان وقبل أن يرسل الرسالة الجديدة ذكر، فوضع فوق الفقاعة كلمة هاي.. .. ضحك وهو يضغط زر الإرسال.. .. سنرى الآن ما المقصود من كل هذه المعابثة.. ..

20

كان الأمر مرعباً، فأن تحطم بيدك ما كنت تعتاش العمر على التغني بفضائله: انظروا.. ما تزال حية، نضرة.. الشهداء لا يموتون، ولا يفنون، بل يظلون نضرين محتفظين بوردة دمهم تزكيهم إلى يوم القيامة.

انظروا، ويرفع الستارة الخضراء عن الضريح، فتطل القدم الشريفة من مرقدها آخر القبر نضرة، لحيمة، وكأنما دفنت بالأمس، ويستمع إلى شهقاتهم، ويتأمل نظرات رعبهم، ولكنه كان يصر كما كان أبوه يفعل من قبل على منعهم من لمسها للتأكد من نضارتها، وكان هو نفسه يعجب لعجعجتها وطراوتها. ولكنه لم يحاول لمسها. كان يسمي صاحب الضريح بالسلطان عمر، وكانوا يغطون الضريح بقماش أخضر، فإذا ما كشفته رأيت الشاهدة ملثمة بلثام أخضر، وربما لهذا سموه بسيدي ذو الخمار.

كان أبوه قبل أن يصاب بالفالج يسميه بالسلطان عمر، وكانت أمه تسميه بالسلطان عمر. ولكن أي عمر هذا. إنه قطعاً

ليس عمر بن الخطاب، ولا عمر بن عبد العزيز، فأي عمر هو. كان السؤال يلح، وكانت الصدقات والزكوات، والنذور تطفئ الأسئلة.

الزوار لم يكونوا يدعونه بالسلطان عمر رغم اللافتة الصغيرة المكتوبة بخط اليد على لوحة من حجر محفور امَّحت حروفها، فلونوها من جديد بطريقة بدائية تقول إن الضريح للسلطان عمر، ولكن الزوار لم يدعوه أبداً بالسلطان عمر، بل كانوا يكتفون بتسميته بالشيخ الشامي، أو بسيدي ذو الخمار ثم سيدي خمار، وحين توفيت أمه، وقبل أن يصاب أبوه بالفالج بزمن قصير عرضت وزارة الأوقاف على الأب أن تبني في الجزء الخارجي من البيت مراحيض عمومية. وعرضت على الأب الذي لم يكن قد أصيب بالفالج بعد، حراسة وخدمة المراحيض مقابل راتب شهري، فرضي الأب، وبسرعة بنت وزارة الأوقاف المراحيض التي هيئت لخدمة الجامع المجاور الصغير جداً بحيث لم يكن بالإمكان تزويده بميضأة ومراحيض خاصين، فكان الاقتراح مفيداً للجميع، ووجد الأب العجوز جداً في ذلك أجرين. أجراً سماوياً، وآخر أرضياً.

وحين توفي الأب قبل أن يفرح طويلاً بالأجرين وجد ريحان أن عليه أن يعتني بأخويه الصغيرين، فاحتمل مهنة خدمة المراحيض للحفاظ على الراتب الشهري، ثم لم يعد الراتب يكفي؛ فالطفلان يكبران، ونفقات المدارس عالية، ولم تعد الصدقات والنذور تكفي. فالإلحاد والزندقة وتعليم المدارس الجديدة أخذ يبعد

الجيل الجديد عن احترام سيدي ذو الخمار، فقلّت الزيارات وندرت الشموع، وعزّت النذور، وصار على ريحان أن يبحث عن عمل يدر عليه بعض الرزق، وهكذا دلّوه على طريق الإذاعة الجديدة التي كانت تبحث عن مقرئين يقرأون القرآن ذوي صوت مقبول، فإن كان جميلاً كان خيراً.. .. وعرف طريق الإذاعة.

كان الأمر مرعباً. فأن تهشم بيدك قبر الجد صاحب المعجزة - القدم النضرة التي تأبى مغادرة العالم إلى عالم الفناء والتفسخ، مصرة على التشبث بعالمنا معلنة أنها باقية، مشاركة للأحياء في عالمهم.

كان يعلم أن أباه قبل أن يفلج كان يستشير السلطان عمر في كل معضلة تصادفه، وكان يحصل على الجواب دائماً إما بانشراح في الصدر لقرار يجب اتخاذه، أو في حلم يراه في ليلته تلك.

كان الأمر مرعباً، ولكن حين تكون قد رجعت لتوّك من زقاق رامي مع أبو عيدو بعد تعاطيه بطحتين من عرق بلدي لم يمزمز عليهما إلا بصحني ترمس، ،فإن كثيراً من الرعب يسقط ليحل محله حسٌ بالإنجاز، والقدرة على تغيير العالم.

كان أبو عيدو قد انحنى على الطاولة الصفيحية الصغيرة أمامه بعينيه الحمراوين وزاويتي فمه المزبدتين. قال: أنت حمار. رجل جدك ما هي المهمة. هي حاططها بس من شان يخيل اللي حواليه. المهم يا حمار الكنز، الكنز المخبأ تحت، بالقبر، واللي لا أبوك، ولا جدك الحمير أكثر منك قدروا يفهموا أنه الكنز.

وحين اعترض ريحان على شتم أبيه وجده، واتهامهما بأنهما حمير لم يكترث أبو عيدو لاعتراضه، بل ظل يلح: كنز، كنز يا حمار بيطالعك من حياة شطف وتنظيف وسخ الناس. ثم جرع كأساً كاملة من العرق دون مزمزة: لك أنت ابن السلطان عمر أنت؟ هه تطقك على هيك خلفة - ولوَّح بكفه مفتوحة الأصابع في تهريج أمام وجه ريحان - لك انت صدقت أنه معجزة السلطان رجله اللي طالعة من القبر؟ دخلك وشو فيها معجزة هه.؟.. هي رجلي هه.. وانتزع قدمه من الحذاء مثني القفا ليتحول إلى ما يشبه البابوج. هي رجلي ليكها أحلى من رجل السلطان عمر. ليش ما بتعملها مزار، وبتقبض عليها؟

وانطلقت ضحكته مسرسعة نحيلة لا تليق بوجهه المتجهم، وشاربي عتال كراج بغداد، ولما لم يكن كثير الإيمان بمعجزة الجد الكبير السلطان عمر الذي لا يعرف عنه إلا قدماً متدلية خارج الضريح، وكرة حجرية لم تترك الأيدي المتمسحة بها إلا كرة شبه ملساء، وحتى الحكايات التي كانوا يتداولونها عن البطل المجاهد السلطان عمر، طارد الأعداء، وناشر العدل بين الفقراء كانت قد نسيت مع الأب.. أخرسه الفالج.. فلم يتبق من السلطان عمر إلا قدم تأبى الموت، وتعلن في انبثاقها من الضريح أنها تشاركهم الحياة.

قال أبو عيدو: الليل ستّار، وإخواتك نايمين، لك قوّي قلبك وجرّب! ثم توقف مستجمعاً أنفاسه: أخي نحنا ما بدنا من الكنز شي.. بس يعني إذا الله فتحها بوشّك بتوصي لنا أبو مخول - وأشار إلى الخمّار - يفتح لنا كريدي عنده، كل يوم بطحة، بطحتين.

على حساب الكنز هه. مالك فضل ولا إله فضل. كريدي. شو..

وكانت الكلمة قد دخلت قاموسهما منذ أفلح ريحان في قراءة اللافتة المعلقة فوق بنك الكريدي ليونيه الفرنسي، ولما سألا عن معنى كلمة كريدي وعرفا أنها اعتماد مفتوح من البنك أعجبت الفكرة أبو عيدو، فصار لا يتمنى إلا أن يجد من يفتح له كريدي، أي كريدي ينهي شقاءه بالعتالة، وملاحقة باص بغداد، وركاب بغداد، وانقطاع الطريق، وانقطاع الرزق.

كان يقول: لك تصور يا أبو الرياحين، كريدي. لك دخيل الله كريدي. لا تشقى، ولا تتعب، بتروح عالسمان، وبتقول له عطيني.. هات مصاري.... عالكريدي. بتروح عاللحام: عطيني.. هات مصاري.. عالكريدي. وكانت أحلامه تنشط ليحلم ببيت وزوجة وعائلة على الكريدي.. وأخيراً أخيراً جداً حطت أحلامه في الكريدي على كريدي عند أبو مخول لا يتجاوز بطحتي عرق يومياً. وصحني حمص وصحن مخلل، وكان يصرخ في نفاد صبر: من شان الله كتير بطحتين باليوم كريدي؟

كان لقاء أبو عيدو وريحان غريباً لا يمكن أن يتكرر مع شخصين آخرين، فقد اندفع ريحان إلى الباب مستجيباً لضربات عنيفة قوية كادت تحطم الباب. اندفع يريد شجاراً، أو عتاباً، أو جواباً عن سؤال ما الذي يجعل شخصاً يطرق باب السلطان عمر، أو ضريح الشيخ الشامي، أو ذو الخمار بهذه القوة. وقبل أذان الفجر.

فتح الباب لا يريد للصبيين أن يذعرهما الطرق الهمجي،

ولكنه ما كاد يفتح الباب، ويرى أبو عيدو في الباب محوول العينين ملتوي الفم، وكأنما أصابته لقوة حتى هدّأه منظره. أراد أن يعاتب متجملاً، أو يشتم مغاضباً. ولكن أبو عيدو ارتمى بين ذراعيه في استسلام منهار:

-دخيلك خدني لعند الشيخ.

-خير؟ خير؟.

-أنو خير؟ خدني لعندو.

وأخذه.. بين المحمول والمشحوط إلى حيث الضريح ليرتمي أبو عيدو على القدم الناتئة من الضريح. متشبثاً بها، وحاول ريحان جذبه بعيداً عنها صارخاً ألا يلمسها: حرام.. ولكن أبو عيدو تشبث بها كالمجنون سائلاً: شو اللي ساوى الدهب قشر بصل. احكي لي. احكي من شان الله. احكي..

وأخيراً جره بعيداً عن الضريح، قدَّم له كأس شاي ساخن ما إن ابتلع نصفه في رشفتين حتى اندفع يحدثه عن التيس الذي اصطدم به في منطقة تحت القناطر ذلك النفق العتم النازّ بالماء. قال:

-الله وكيلك. ما كنت شربان إلا بطحتين. كتير؟

وهز ريحان رأسه يهدئه وهو يستغفر الله، قال: تيس كبير. واقف بنص الطريق. مسكته بإيدي. طبطبت عليه كم مرَّة صار يتلحمس فيَّ. سألته: وين صحابك؟ بس الدنيا كانت ليل وعتمة. سألته: تروح معي عالبيت؟ ما قال لأ. جريته ما رضي. وطّيت،

وحملته على كتفي، ومشيت. مشيت لوصلت قريب لبيتنا. قام صار تقيل. تقيل كتير. التفتت لشوف شو اللي تقّله. لقيت رجليه لساتهم تحت القناطر، وايديه على كتفي. قاموا البطحتين طاروا. عرفت أن التيس هدا أخي اللي تحت الأرض. ضحكت، وقلت: إه الحمد لله. الله أغنانا عن الكريدي، وهلق بفوته على البيت باربطه بآية الكرسي، وبسبع صمديات، وبقول له: بدي مصاري. بدي خبز. بدي الحارة كلها تشبع. وما بيقدر يقول لأ. جريته ما رضي، قلت له: شوف. والله لو ضلّوا رجليك مو تحت القناطر، لا. بالمرجة نفسها بدك تفوت. قام حكى. بتصدق؟ حكى. قال لي اطلقني، وأنا باغنيك، ضحكت، وشهقت. شو مجنون أنا؟ قال اطلقني قال!!. المهم أنا شدّ وهو يشدّ. قام ما لقيته إلا قال لي شايف هالسلة؟ تطلعت لقيت قدامي سلة. قال لي شوفها منيح. شفتها. لك مليانة ذهب قال لي: إذا ما بتكفيك إلك عليّ كل جمعة واحدة مثلها. منيح؟ الحقيقة ارتخيت. قلت منيح. وبقلبي قلت: عصفور باليد أحسن من عشرة على الشجرة. نزلته حملت السلة، وبوشي على البيت، بالبيت شعلت الضو اتطلع على السلة. تاري السلة مليانة قشر بصل. التيس ضحك عليّ. أخي اللي تحت الأرض ضحك عليّ. لك من شان الله شو اللي ساوى الذهب قشر بصل. احكي. من شان الله احكي.. .. ولكن ريحان لم يستطع الرد، والضريح الحجري المغطى بستائر خضر ناصلة لم يرد، والقدم النضرة الباردة لم تحر جواباً.

كان اللقاء الذي جرَّ تعارفاً بين أبو عيدو وريحان هو اللقاء الأكثر ندرة في الحياة، فليس من شيء مشترك بينهما على

الإطلاق، عتّال سكير لا يعرف القراءة ولا الكتابة، حياته كلها تدور ما بين كراج دُبُش وعكاش صاحبي الباصات الأولى التي تنقل الركاب ما بين دمشق وبغداد، وبين سينما غازي التي كانت تغذيه بأحلام عن نساء جميلات وعوالم غارقة في الخضرة والجداول والمغامرات، و.. .. بين خمارة أبو مخول المتواضعة حتى الرثاثة في زقاق رامي والتي كان يشرب فيها العرق صرفاً مع بضع حبات من الترمس بعد أن يكون قد ملأ بطنه برغيفين محشوين بلحم لا يعرف حتى طابخه هويته والذي يقضي نهاره يصفق ويدعو إلى أقراص لحمه المقلية: هلق كلينا. هلق كلينا. وكان العتالون وباعة الخضار على البسطة، ومنقطعو الريف يتهافتون على أرغفته المحشوة بما يشبه اللحم بفرنكين، أو بثلاثة فرنكات.

كانت حياته محكمة الترتيب، فليس فيها من ثغرة للتغيير، كراج بغداد، سينما غازي مرة في الأسبوع، و.. .. خمارة أبو مخول.. .. إلى أن التقى بريحان الذي لم يرتد في حياته خمارة، ولا سينما، ولا أكل رغيفاً محشواً بلحم اسمه: هلق كلينا. ولكن المكتوب ليس منه مهروب كما قال له أبو عيدو بعد تعرفهما وتصادقهما، ودخول كل منهما حياة الآخر صديقاً وحيداً.

كان ريحان قد خرج من مبنى الإذاعة سئماً، فلم يكونوا قد دفعوا له أجره رغم أنّه قد مضى أسبوعان على بداية الشهر، وأنّ له على محاسبة الإذاعة أجر خمس قراءات، وكان اليوم قد

جوَّد، وأجاد، وفرَّد حتى رأى الإعجاب على وجه المحيطين به من الفنيين وهم يرونه يفرِّد ويفرِّد، ولكنهم لم يدفعوا له. قال له المحاسب بوجهه المحايد: الكشوف لم تصل بعد.

ولما لم يكن صدامياً، ولم يكن لديه ميل للشجار، ولم يكن يريد لهم أن ينزعجوا منه، فيستبدلونه بمقرئ آخر، وهو يعرف أن الآخرين كثيرون. صحيح أن صوته كان متميزاً، ولكن. من يأبه للتميز، وليس من يحاسب، أو يهتم.

خرج من مبنى الإذاعة. كان قد وعد الصبيين بأن يشتري لهما بعض حلوى العوامة، فقد تشهَّوا عليها طويلاً، ولكن، كيف. أين.. والمحاسب لم يدفع.

تمنى لو يجد بعض الزوار، أو الناذرين لدى الضريح، فيحصل على بعض الفرنكات منهم، ولكنه كان يعرف أن وقت ما بعد العصر هو وقت قحط الزوار وباذلي النذور.

عبر شارع جمال باشا، تأمل الدكاكين، ووجد قدميه تنساقان إلى زقاق رامي. ما الذي قاده إلى زقاق رامي، ولم يكن له به عادة، فلم يكن من رواد السينما، ولم يكن من رواد الخمّارات، ولم يكن من المتسكعين يتأملون الرائحات والغاديات، فقد كان شعور من هيبة ووقار يربطانه: أفليس الحارس الأخير لضريح صاحب المعجزات الشيخ ذو الخمار.. أو السلطان عمر.. أفليس المتغني الأخير بفضائله حين شفى الكسيح، وأخصب العقيم، وفك أسر السجين. تنهد وهو ينزل

منحدر زقاق رامي إلى ساحة المرجة. صحيح أن الناس قد كفرت وفسقت، ولم تعد تأبه كثيراً لمعجزات السلطان عمر، و.. صحيح أن السلطان قد تقاعس عن القيام بمعجزاته منذ تولى حراسته بعد انفلاج أبيه، فلم يعرف في عهده أنه شفى كسيحاً، أو أحبل عقيماً، ولكن قدمه المتدلية خارج القبر نضرة، لحيمة، معجعجة، عفية دليل واضح على معجزات مولانا التي كمنت لفترة، من يدري ربما كان العيب فيه هو. في ريحان. ربما لم يكن تقياً بما يكفي. أو طاهراً بما يكفي لجعل مولانا يمطر زواره بالمعجزات.. .. ولكن الصبيين ينتظران عودته ومعه حلوى العوامة، فكيف يأتيهما بها، وهو مدين للفران بثمن الخبز، وللسمان بثمن البقالة التي يقترضها منه، وللخضري والاسكافي، أعوذ بالله. إنهم جميعاً ينتظرون أن يقبض اليوم أجره من الإذاعة، وقد وعدهم بذلك، ولكن. ها هم يخذلونه، وعليه أن يتدبَّر أمره.

كان الوقت خريفاً، وكان عليه أن يلبس جاكيتاً فوق القمباز، وكانت حجارة الطريق ما تزال مبتلة منذ مطر الليلة الفائتة، فكان عليه أن يكون حذراً في مشيته، وإلا انزلق، وهو يعرف أن الانزلاق والتوحل مثار للسخرية من هذا الطويل العريض، ثم ينزلق كطفل!

كان يمشي، ولا يعرف ماذا يريد من المضيِّ إلى ساحة المرجة.. ما الذي ستقدمه له المرجة وبردى، وفواكه سوق علي باشا النادرة والغالية خارج الموسم. ما الذي يريده؟ حسن فإن لم يرد هذا، فما الذي يريده؟ العودة إلى البيت ومواجهة الصبيين

منتظري الحلوى الموعودة بوجه آسف وكفين خاليتين.

لماذا لم تصل الكشوف، ولم كان عليه أن ينتظر شهراً ونصف شهر لقبض أجر قراءة عشر من القرآن في الإذاعة، لم لا يدفعون له أجره مباشرة كما يفعلون في ليالي العزاء التي طالما رفضها، فقد كان يشعر أنها مُحِطّة بكرامته. الإذاعة؟ .. هه.. مقرئ بالإذاعة. كانت التسمية بحد ذاتها معوضة عن قليل من الحس بالضعة، وكان يعرف أن الإسكافي قد أمهله بالدفع عارفاً أنه سيدفع، ولم لا يدفع، وهو ابن حكومة. أليس مقرئاً بالإذاعة. وكان السمان قد فتح له حساباً فهو يعرف أنه سيدفع. موظف يقبض أجره هانئاً، سعيداً، لا عذاب ولا وجع في آخر الشهر.

كانوا قد تناسوا أو تجاهلوا حكاية حارس المقام، وخادم المراحيض منذ أن صار موظفاً في الحكومة، مقرئاً في الإذاعة يقبض أجره آخر الشهر.

لم لم تصل الكشوف اليوم. لماذا؟ كان يمشي على الحجارة الزلقة بمطر الأمس حذراً حين وقع المقدّر وانزلق. حاول التماسك متواقراً، فأمعن في الانزلاق، وما زال يتواقر، وينزلق حتى وجد نفسه عند قدمي أبو عيدو الذي رحب به في ود.. يا أهلين.. تاخدلك كاس!.

21

تنهد راضي مستسلماً ليده ترتخي مع الملف حائراً. فرسالة المؤسسة هذه المرة أخذت أخيراً كما يبدو تتحول إلى السيرة الشخصية.. فريحان هذا الذي تذكره السيرة هو اسم لأبيه، فهل يعقل أن ريحان الخارويڤ الثري حتى لا يستطيع معرفة البيوت والعقارات التي يملكها، ولا أمواله المرصودة في المصارف دون فائدة، فالفائدة حرام. ريحان الخارويڤ، الرجل الأكول حتى ليأكل أكل خمسة رجال والـ.. تجاوزها مرتبكاً. أيعقل، أيعقل أنه كان حارس مقام، ومقرئاً بالقطعة في الإذاعة والتي لم تكن عرفت التسجيل بعد. لكن تنبه فجأة إنهم يذكرون أن المقام كان للسلطان عمر، ولكنهم في الآن نفسه يسربون أن اسمه العامي كان سيدي خمار، أو ذو الخمار.. أعوذ بالله أتراه الرجل الأول في السيرة ذو الخمار، الجميل الهارب من النساء، والمتخمر بقناع يبعد فيه أذاهن عنه حتى يقع بين براثن الجابية ونساء المدينة ثم ينتهي القتيل خنقاً.. أتراه الرجل نفسه، وما هذا المقام الذي أقاموه لسيدي خمار أو ذو الخمار إلا المزار نفسه الذي كان ريحان يحرسه.

والمعجزة.. هه.. معجزة أنَّ قدمه ما تزال نضرة حيّة ناتئة عن

القبر. تنهد ثانية يسكّن احتجاجه.. هؤلاء الناس في المؤسسة أنت من سعيت إليهم تريد أن يكتبوا سيرتك، ثم لم تكتف بهذا، فلم تتعامل مع الأمر بجدية، بل أجبت على استمارتهم عشوائياً تريد تضليلهم والسخرية منهم، وكنت تعتقد أنك قد أفلحت في السخرية منهم حين أحالوك إلى الزمن الأسطوري، فحدثوك عن ذو الخمار هذا، ثم عن أبو فاروق الخاروفي، التيس. سمه ما شئت. ومغامراته مع الجمال والنساء ونهايته التراجيدية. أليس.. أليس أنت من تحرّش بهم حين زرتهم مع الجنرال سعيد وتعاقدت معهم على كتابة سيرتك، ثم أليس أنت من تحرشت بهم حين وبّختهم بأنك ترفض أن تعامل معاملة الجنرالات من أنصاف الأميين، وها هم قد اختاروا لك محرراً يضارعك في الثقافة وفي الرجوع بالأمر إلى بداياته الأسطورية، وربما كان فضلاً منهم أن لم يعودوا بأصولك إلى آدم، أو شيث، ثم أدخلوك في أسطورة التيس الخصيب، ثم.. .. هيه.. هيه.. هيه توقف.. لا تسترسل أرجوك.. ما المقصود من القدم النضرة الناتئة من القبر، ولم لم يكن الناتئ نضراً الرأس الجميل، أو جزءاً آخر من الجسد.

ضحك.

وعاد إلى الملف.

كانت المفاجأة أن أبو عيدو هذا العتال الذي يتباهى دائماً بمراجله وجدعنته، ويصر على لبس الحذاء المكسور العقب إمعاناً في الرجولة، وعلى حمل خنجره المدسوس تحت الشال - الحزام. يتكشف عن ضعيف ما إن يرى القدم تتحرك تحت أول

ضربة فأس في القبر حتى يغمى عليه، وكان على ريحان أن يحمله بعيداً إلى جانب البحرة، ثم يرشه بالماء ليستيقظ، فيأبى الاستيقاظ، فيتركه ويعود إلى حيث الضريح. كان الطمع قد استولى عليه، وكان أبو عيدو قد استطاع إقناعه بوجود الكنز، وإلا فما معنى هذه المعجزة؛ القدم النضرة إن لم تكن الإشارة إلى الكنز.

عاد إلى الضريح. ضربه بالفأس ضربة ثانية، فإذا بحصاة تطير لتضربه في جبينه، وتوقعه أرضاً، وهو لن يذكر حتى بعد سنين إن كان قد أغمي عليه، أم أنه انسحر، أم أن الجدّ قد لمسه، فأعماه فكل ما يذكر أنه صحا، وكان الضريح مضاء بشمس ضاحية. وكان الضريح منقوضاً، ولكن لا قدم ولا جثة.. .. انتفض، بحث عن القدم فيما حوله، خرج إلى الباحة ليجد أبو عيدو ما يزال إلى جانب البحرة، والصبيان إلى جانبه يثرثر معهما.

سأله همساً إن كان قد رأى القدم، ولكن جواب أبو عيدو أفزعه إذ قال: أعوذ بالله.. لك من وين لك هالحلاوة هي؟

ثم نظر إلى صدره فرأى تميمة من جلد معلقة إلى صدره.

-وهالحجاب من وين جبته.

نظر ريحان إلى التميمة، واندهش فمن علّقها إلى رقبته..

مضى إلى المرآة المعلقة إلى الجدار، وصدم، فالشاب الذي رآه في المرآة كان جمالاً غير مألوف. كان جمالاً فتنه هو نفسه، فنظر إلى نفسه في المرآة، وقال: سبحان الخالق فيما خلق.

ركض أبو عيدو إلى الضريح ليكتشف ألاّ قدم هناك.. رفع الحجارة عن الضريح ليكتشف مع ريحان أن الضريح خال فلا ذهب، ولا كنز، ولا قدم نضرة معجعجة، ولا عظام، بل حجارة لا تخفي تحتها شيئاً.

فتمتم في انكسار: قشر بصل.. هذا حظك يا أبو عيدو.. وين ما بتحط ايدك ما بتلاقي إلا قشر بصل.

ثم يلتفت، فيرى ريحان عند باب الضريح، فلا يستطيع إلا أن يتمتم: لك من شان الله من وين جبت كل ها الحلاوة اللي ما حدا شافها بكل هالحارة.

انتفض راضي رامياً الملفّ الصغير من يده: أي عقل تآمري يقود هذا الخبيث المحرر الذي يكتب هذا الجزء، وها هو يقود السيرة إلى المصير المنطقي الجمال الخارق المختفي تحت الأقنعة، فإذا ما ظهر كان أذى للجميع لحامله، وللنساء من حوله.

ثم أطلق ضحكة ساخرة خفيفة: ولكنه في هذه المرة وقع في الخطأ الكبير، ففي فصول السيرة السابقة كان يمكن لهم أن يزعموا ويصنعوا السيرة التي يشاؤون. فهم يتحدثون عن ماض غير معروف، فلا شهود أحياء عليه، ولا شهادات ورقية، ولا صور فوتوغرافية، أو زيتية، أو حتى حجرية، فمن يستطيع أن يقول لهم: كذب، أنتم تسترخون على فرش الخيال. أما في هذه المرة، فلقد وصل الأمر إلى ريحان، وريحان أعرفه، إنه أبي. أو هذا ما يفترض أن يكون، فالزمن الذي يروي عنه زمن يطابق العمر الذي عاش

فيه ريحان أبي. ولكن.. أهو هو؟ فإن كان هو، فريحان الذي أعرف لم يكن على هذا الجمال ولا نصفه ولا ربعه، بل كان رجلاً سميناً شديد السمنة بحيث غارت عيناه تحت كتل الشحم، واستدار خدّاه فغرق أنفه في كتل الخدود، واستدار قدّه، فلم تعد تعرف طوله من عرضه، فأين هو هذا الجمال الذي سبى النساء يتحدث المحرر عنه.

رنَّ جهاز الهاتف النقال، فرفعه إلى أذنه بعد تشغيله ليأتيه الصوت الأول:

-وهي الأصلية أمية.

ضحك في برود، فلم تعد لهذه المهاذرة من معنى، ثم قطع الاتصال محاولاً العودة إلى الملف، ولكن الكومبيوتر، أزّ ثانية يعلن وصول رسالة الكترونية، فانتصب منتوياً أن يواجه المحرر باحتجاجه: إن كانت السيرة في وصولها إلى ريحان تعني أنها قد وصلت إلى أبي، فلقد أخطأت خطأين، وهما خطآن يمكن لي أن أدحضهما بسهولة، فهي من جهة تدعي أن ريحان كان فقيراً إلى درجة أنه كان حارس ضريح، والمكان الذي يشير إليه بضريح السلطان عمر ليس إلا الخرابة، صحيح أني أذكر أن أبواباً فيها كانت مقفلة على غرف لا نعرف ما فيها، ولكن لا باب خارجي ولا حتى مراحيض، ولا ضريح، ولا من يحزنون. وسكان الحارة كانوا متفقين على تسمية البيت بالخرابة. صحيح أنهم قد يزلقون أحياناً، فيتحدثون عن السلطان عمر، أو سيدي خمار، ولكن هذا كل شيء. أسماء. ألفاظ، ولا مدلول.

أما ريحان كما أعرفه، فكان واحداً من أغنى أغنياء المدينة، وكان واحداً من بناة المدينة الحديثة، العمارات، والبنايات الكثيرة، بل المدارس الابتدائية يهديها تطوعاً إلى وزارة المعارف، وهناك جناحان في المستشفيان الرئيسيان في المدينة مهديان باسمه. فكيف يمكن لرجل على هذا الثراء والذي فرَّ بثروته إلى مانشستر ليتحول إلى صناعة الأجواخ، ويصبح واحداً من أهم صانعي الأجواخ في بريطانيا، ثم يقطع علاقاته معي معلناً غضبه الوالدي، فلقد خنته، وخنت أهلي حين انضممت إليهم.

إذاً فكيف يمكن لحارس ضريح، ومقرئ في الإذاعة بالقطعة لا يجد ما يكفي لشراء كيلو حلوى العوامة أن يصبح على هذا الثراء، والخطأ الثاني ادعاء أنه تحول بين ساعة وأخرى إلى رجل الجمال الخارق، وريث ذو الخمار وأبو فاروق الخاروفي.

وقبل أن يرسل رسالته الاحتجاجية إلى المؤسسة أزَّ الكومبيوتر يعلن وصول بريد إلكتروني..

ضغط أزرار استلام الرسالة، ثم حوَّلها إلى الطابعة، وانتظر انتهاء الطباعة ليرسل رسالته الاحتجاجية، ولكن ما فاجأه أن الرسالة الالكترونية الجديدة لم تكن ملفاً جديداً من ملفات السيرة، بل الصورة الجماعية ثانية وقد زُيِّنت بوجه جديد أضيف إلى الوجوه الخمسة التي يعرفها.

كبَّر الوجه الجديد، كبَّره حتى غطى الشاشة كاملاً. لم يكن الوجه لفتى مراهق هذه المرة، بل كان وجه رجل في أواخر

الثلاثينيات بشاربين غير مشذبين، ولحية لم تحلق ليومين وكوفية منقطة تلف الرأس ومنتصف الجبين. حدق في العينين المهمومتين الحزينتين. من هذا الرجل. من هذا الرجل، ولم يضيفونه إلى وجوه الفتيان المراهقين الذين يعرفهم.. ولا يعرف عدنان حب الرمان فيهم.. من هذا الرجل؟

طبع الصورة. عاد بالصورة إلى الصورة الجماعية.. فقفزت أمامه فجأة فقاعة اعرف نفسك. أراد أن يمحو الصورة، ولكن فقاعة أخرى.. أضيفت فجأة تقول: هل تستطيع؟..

تأمل الجملة الجديدة. ما معنى هذا. ما معنى هذا.. ومن هو هذا المهاذر الذي يطور مهاذرته يوماً إثر يوم، فبعد هاي إنه أنا. انتقل إلى اعرف نفسك، ثم اعرف نفسك. هل تستطيع؟ ما معنى هذا.. قرأ العنوان.. نسخه على ورقة أمامه، وتساءل: أيمكن الوصول إلى صاحب هذا العنوان. أيمكن معرفة من هو، لماذا يهاذره بهذه الطريقة، وما الذي يبغيه حقاً.

طلب العنوان، ثم أخذ يكتب أسئلته كلها: ماذا تريد.. لماذا تلاحقني.. من هؤلاء الشخوص الجدد الذين تطالبني بمعرفتهم، ثم تتحداني بسؤال: هل أستطيع.. ثم في جرأة أضاف: طبعاً أستطيع، وإلا فكيف عرفت سيرة الفتى عدنان حب الرمان وحيد أهله والذي اختفى فجأة.

وفجأة شكّه ألم صغير.. اختفى يوم الانقلاب.. أتراه قتل.. .. في ذلك اليوم؟

انتصب محتداً: راضي. أنت مجنون. أنت حقاً مجنون. ها هو المهاذر يجرك إلى حيث لا تريد أن تنجرَّ. أأنت ساذج حتى تتركه يجرّك إلى هذا الميدان. ما لك ولهذا. الجنرال سعيد كان صريحاً حين حدثك عن مزايا كتابة السيرة التي حررته من الإمساك الذي بدأ يعاني منه منذ أن صار الجنرال، ولم يرفّع، ثم صار الخائف من أن يسرَّح فيخسر كل شيء. وتحرَّر أيضاً - أطلق نفثة سخرية - من استعمال الحبة الزرقاء.. هه.. تنهد.. أنت ما تزال تعاني من الإمساك، ولم تتحرَّر منه رغم العمل على كتابة السيرة، ولكنك تعرف أنه التقدم في السن وكسل الأمعاء. لا شيء خطير.. أما الحبة الزرقاء، فأنت لم تستخدمها يوماً لأنك لست في حاجة إليها، فمروة انصرفت عن الأمر منذ.. .. خلدون. وأنت لم تعتد مطاردة النساء لا الصغيرات، ولا الكبيرات، فلم يكنَّ يوماً من همومك.. .. ثم.. .. تردد قليلاً. ثم ضغط مفتاح الإرسال دفعة واحدة، فمضت الرسالة إلى المهاذر المطارد.

مضى باتجاه كرسيه الموريس يعيد قراءة الملف المتحدث عن ريحان مقرئ القرآن في الإذاعة، وعلاقته العجيبة بالسكير المفلس أبو عيدو ولكنه ما كاد يجلس في مكانه حتى أزَّ الكومبيوتر يعلن وصول بريد، فمضى إليه واستدعى الرسالة الإلكترونية ليفاجأ بالصورة الجماعية ثانية وعليها صورة الرجل الثلاثيني في الكوفية المنقطة بلا عقال والتي تغطي جبينه، ولا تغطي عينيه المتعبتين المهمومتين. صغُرت الصورة المرسلة، وعلَتها مرة ثانية فقاعة: اعرف نفسك. هل تستطيع؟.. ألغى الصورة، ولكن الكومبيوتر أزَّ يحمل رسالة جديدة. كاد يطفئ

الكومبيوتر ويصرف النظر عن الموضوع برمته.. ولكن الفضول غلبه ثانية، فضغط مفاتيح استقبال البريد ليرى الرسالة الجديدة..

كانت.. ..: كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.. وتكررت الجملة الأخيرة خير الخطائين التوابون، خير الخطائين التوابون. خير الخطائين كانت تتكرر وتتوالد، وتتوالد، وكأن لها حركتها وقانونها الخاصين خير الخطائين التوابون.

أطفأ الكومبيوتر، وقد أحس أنه محاصر بقسوة.. فما الخطيئة التي يطارده بها المهاذر، وعمَّ يريد له أن يتوب.

أعوذ بالله. كان الكومبيوتر شهوة وحلم بني الإنسان، فما الذي حوَّله إلى هذا العذاب. ها هو يتحول على غير رغبة، أو إرادة مني إلى قاض، ومتهَم، وشاهد، فلماذا.. لماذا سلّطته عليّ. ما الحماقة التي جعلتني أستسلم إلى هذا الوحش الإلكتروني يقدم لي سيرة آباء مزعومين، وأجداد مزعومين، ثم متّهمين مزعومين، ثم.. ..

اتجه إلى الشرفة المعتمة. تستطيع الهرب من هذا كله.. ارم جهاز هاتفك النقال. اقطع الكهرباء نهائياً عن الكومبيوتر. أو سافر إلى الخارج دون ترك عنوان، فترتاح من الأمر كله. وقفزت الجملة فجأة: خير الخطائين التوابون، خير الخطائين التوابون، فصرخ كمن يخاطب سامعين. أي خطائين، وأي توابين. ثم انزلقت منه: أأنا الخاطئ الوحيد.

رنَّ جرس الباب الخارجي فارتعد، وكاد يتجه إلى الباب، ولكنه ذكر أن الخادم ستفتح الباب، فانتظر. سمع الصوت

الرجلي، فتساءل إن كان رشيد هو الزائر. نظر إلى الساعة؛ العاشرة ليلاً، أحس بارتياح، فليكن رشيد، سيخرجني من حصار الوحوش الإلكترونية.

تطاولت الخادم برأسها، فقال بسرعة: دعيه يدخل. قالها دون أن يتأكد إن كان الزائر رشيد، مضت، ثم عادت ومعها رشيد الأنيق أناقة دائمة، وإن كانت من الدرجة الثانية. وكان يُكبر فيه الإصرار على الأناقة الوقور. قام للترحيب به، فانقضّ عليه يمنعه من القيام، ولكنه صافحه، وقاده إلى كنبته في مودة. قال راضي بسرعة: كنت في طريقي إلى العشاء. أتتعشى معي؟

تظاهر رشيد بالخجل والتمنع، ثم وافق، فنادى راضي الخادم، وطلب منها إعداد العشاء، وحين كان يلتفت عنها رأى نظرة الارتياح على وجه رشيد، ثم ابتعدت لتحل محلها نظرة الوقار المحايدة.

قال راضي: جئت في وقتك.

فأجاب في ملق: أتمنى أن أكون في وقتي.

استخرج راضي صورة الرجل الثلاثيني في الكوفية بلا عقال تغطي جبينه.

قال: هذه الصورة أريد أن تعرف لمن، وما حكايتها.

تأمل رشيد الصورة طويلاً، ثم قال في دالّة ورفع كلفة: دكتور راضي ما الحكاية؟

-أية حكاية.

-أنت تمتحن إخلاصي لك. أم تمتحن قدراتي على خدمتك.

-لا.. ليس الأمر أمر امتحان.. كل ما في الأمر....أن مؤسسة هامة (وأعطى بوجهه انطباعاً غامضاً خطيراً عن المؤسسة المكلّفة) كلفتني بإجراء دراسة اجتماعية عن تلك المرحلة، وقد وافقت على القيام بهذه الدراسة، ولكن.. (وجد أخيراً العذر يندفع على غير إرادة منه، أو كأنه كان قد أعده مسبقاً).. ولكن آخرين لا أعرف من هم، ربما يسمونهم في لعبة الكومبيوتر والحواسيب بالهاكرز، أو القراصنة الإلكترونيين تدخلوا.. لماذا لا أعرف.. وبدأوا بإمطاري بصور لأناس من تلك المرحلة، وقد عرفت بعضهم، ولكن بعضهم لم أستطع التعرف إليهم، وأنا أريد أن أعرف من هؤلاء الناس، ولماذا يريد الهاكر دسهم في دراستي.. تنهد: على أي حال سنسايرهم في اللعبة، وأنا أريد عونك في اكتشاف من و.. ستكون المكافأة جيدة..

-ولكنك حدثتني في مرة سابقة عن عدنان حب الرمان، وأنه كان من أصدقاء الطفولة.

-هذا ما كنت أظن حين استلمت الصورة الجماعية، وفيها صورتي في تلك السن.

تناول نسخة من الصورة الجماعية، وأراها له.. فهتف رشيد: ولكن الوجوه ممسوحة وما عدا صورتك.. حين رأى السهم المشير إليها، وصورة، - وتساءل مبهوراً حين قرأ كتابة راضي -: أهذا هو الجنرال سعيد؟ فأحنى راضي رأسه إيجاباً، ثم أكمل: وهذا هو التحدي الذي ستساعدني على حله، - ثم وكأنما

يسترضيه -: إن لم يكن في ذلك ما يزعجك.

-يزعجني؟ قال رشيد في أريحية: كانت حياتي فراغاً وخواء قبل أن تتصل بي، أنت لا تدرك مدى سعادتي بالنشاط الذي بعثته فيّ.

-عظيم. أعتقد أنك ستبذل جهدك لمعرفة الرجل.

دخلت الخادم تدفع العشاء الخفيف على طاولة مدولبة صغيرة نقلت ما عليها إلى طاولة القهوة المنخفضة، وانسحبت. فقال الدكتور: تفضل.

22

سمع أزيز الكومبيوتر، لم يكن أزيزاً عادياً. كان صوتاً أشبه بزمور سيارات الإسعاف كان الأزيز العالي يلحّ، ويلحّ، وهو مصمّم على ألا يستجيب، وفجأة رنّ الهاتف النقال رنته المعهودة كانت قطعة لشوبان، ولكنها لم تكن هامسة كما اعتاد ضبطها، بل كانت عويلاً وصفيراً، ثم أزّ الكومبيوتر، فشعر بأنه محاصر، من كل الجهات.

صرخ: أنا أكرهك أيتها التكنولوجيا. أكرهك.. ولكن الأزيز والرنين لم يتوقفا.

فجأة رأى نفسه في القنوات. في الحارة المبلّطة بالحجارة السود. كان يلبس قبقاباً، كان يتمنى دائماً أن يلبس القبقاب كرفاق الحارة، ولكن الست أم راضي كانت دائماً ترفض.. .. ابن الخاروفي لن يلبس القبقاب. ابن الخاروفي يلبس أفضل الأحذية المفصلة خصيصاً له، ولكنه كان يلبس القبقاب، ويعلّق ترموس البوظة في كتفه، ويهتف: وهي الأصلية كل حبة وقية.. أمية.. بتاكلها العجوز.. .. حين سمع الأزيز والرنين فالتفت إلى الوراء، ورأى باص أبو حسين يتجه إليه بسرعة لا تراعي ضيق الحارة. كان من الواضح أنه سيدهسه. ركض وركض.. انقطع رباط القبقاب، فتخلى عنه وركض حافياً، ولكن الباص كان يطارد

وهـو يـركـض.. التفـت. وكـان السـائق أيـوب.. فصـعق.. متـى تعلـم أيـوب السـواقة ولمـاذا. كيـف دخـل إلى البـاص، كـان الترمـوس يثقلـه، فالبـاص يقتـرب وسيدوسـه وهـو يـركـض. رمـى الترمـوس. وكـان أيوب في الباص يطارده بزموره وأزيزه، ورنينه، التفت ليرى الباص يدوس الترمس.. فينفجر الترموس ويطلق عشرات من أجهزة الهاتف النقال تطير في اتجاهه وهـي ترن، وتئز. طارت تطارده حتى كادت تحط على كتفـه، ففـتح عينيـه لاهثاً عرقـان عرقـاً بـارداً ليكتشف أنه في السرير. حاول تهدئة نفسه. ولكنـه كـان يلـهث ويسمع ضـربات قلبـه، وكـان الهـاتف النقـال يطلق نشـيد شـوبان. فمدّ ذراعه وأطفـأه دون أن يعبـأ بمعرفـة مـن يتحـدث إليـه في هـذه السـاعة.

أضـاء اللامباديرة وقرأ سـاعة معصـمه. إنهـا الثالثـة صـباحاً. مـن هـذا الظريـف يوقظـه في مثـل هـذا الوقـت. قـرَّب الهـاتف، قـرأ الرقم.. رقم جديد لم يسبق له أن اتصل به، فلم يندم على إغلاقه.. أطفأ النـور، وحـاول العـودة إلى النـوم، ولـكـن.. أي نـوم ومـا يـزال قلبه يضرب بقوة، والعرق يكسـو جسـمه.. هـه.. أنـت تشـكو مـن التكنولوجيـا، وهـا هـي تـدخل أحلامـك.. ثـم ذكـر الحلم فجـأة. أيوب يسوق الباص. يريد دهسك. لماذا؟

انتصـب في سـريره جالسـاً. لمـاذا أيـوب، ولمـاذا يريـد دهسـه. وأيوب كـان شـاعر الشلة.

أضـاء اللامبـاديرة ثانيـة.. قـام إلى المكتـب. أخـرج نسـخة جديدة للصـورة الجماعية من درجها، وأخذ يتأملها.. عرف نفسه،

وعـرف سـعيد، وعـرف فـايز، وعـرف أمجـد وأخيراً هـذا المسـمى بعـدنان حـب الرمـان.. وذلـك اللابـس كوفيـة دون عقـال الـذي لم يعـرف هويتـه بعـد.. تأمـل الوجـوه الممسـوحة: تـرى. أفـيهم أيـوب.. أيمكـن أن يكـون فـيهم.. مـا شـكله.. إنـه لم يعـد يـذكره الآن جيداً.. كيف كـان يبدو.. هـل صـار شـاعراً مهمـاً.. إنـه لم يسـمع باسمه بين شعراء الجيل.. سأسأل عنه العاملين في الشعر.. أعرفوا شاعراً باسم أيوب؟.. أتراه غادر البلـد كمـا غادرهـا الكـثيرون..؟ الكثيرون.. الكثيرون.. الكثيرون.. .. ..

تنهد.. أي حماقة يتورط فيها بنـو الإنسـان. كيـف تغاضـبا.. هه.. لقد غضب منه أن تخلـى عنهم، وانضـم إلى الانقلابيين. قـال له: أنا أعرف عن صراع الأجيال. أعـرف عـن محاولـة الأبنـاء صـنع قدرهم الخاص بعيداً عن الآباء، وهذا شـيء معقـول، ولكـن.. أن تكون على رأس لجنة المصادرة، فتصـادر مصـنع أبيـك.. وتصـادر بنايات أبيك ولماذا؟.. من تريد أن ترضي؟

بكت الأم تحـاول المصـالحة بـين الفتـى الـذي يطـرق أبـواب الرجولة وبـين الرجـل يطـرق أبـواب الكهولـة.. أضـاف: عرفنـا عـن حماقاتك الكثير.. أن تحمل ترموس البوظة وتدور بـه في الشـوارع مثل أبناء الفقراء.. وعرفنـا منـك نسـيج البسـط تسـاعد تلـك المرأة التي كانت تقيم لدينا.

-والتفـت إلى أم راضـي - مـا كـان اسمهـا؟ فأجابـت وهـي تبرم بوزهـا في قـرف: أمية.

-صحيح. أمية، عرفنا أنك ساعدتها في نسج البسط. هه. في الوقت الذي كنت أعطي العمال أجوراً تكفي لشراء سوق للبسط، ولو أنك ساعدتني في الإشراف عليهم فقط..

وقاطعه راضي متبرماً: إكراماً لله!!!

-طيب. طيب.. ثم أكمل في بطء متردد حائر بين أن يقول كل ما لديه أو يستبقي شيئاً يترك جسراً للصلح بين الرجلين: ولكن أن تكون أنت.. أنت ابن الخاروفي.. في.. لجان المصادرة في المدينة، فتصادر أصدقاءنا وأقرباءنا.. ثم انفجر فجأة، ولكن.. متى.. متى صرت منهم.. متى انضممت إليهم، وما الذي أعجبك فيهم.

وانتصب راضي محتجاً يريد المضي، ولكن الأم تمسكت به تكاد تقع: من شان الله. إكراماً لله.. توقفا.. توقفا وتحدثا كأب وابنه.

تمنى لو كان الوقت يسمح للخادم أن تصنع له قهوة، ولكنها نائمة.. ولياقته لم تسمح له أبداً بإيقاظها لتلبي نزوة كهذه من نزواته. مضى إلى المطبخ وأخذ في صنع قهوته حين سمع شوبان، فتساءل: من يطلبني في وقت كهذا؟ أضعف قوة الغاز حتى نهاياتها الدنيا، ومضى إلى المكتب ليرى إن كان الطالب هو من أيقظه من نومه.. وكان الرقم نفسه، فتساءل: أي أمر خطير يجعل أحداً يهتف في وقت كهذا.

رفع الجهاز إلى أذنه: نعم - قالها في غيظ كظيم، وكانت

المفاجأة أن من يطلبه كان رشيد: أعوذ بالله. لم يمض على غيابه يومان، فهتف في استياء يضغط على أسنانه: ما الخطير الذي يجعلك تهتف في وقت كهذا.

وكانت المفاجأة أن رشيد همس: من هو أيوب.

-ماذا تعني؟ سأل وما يزال على استيائه.

-أيوب عبد الغفور. أيوب عبد الغفور!.

-أيوب عبد الغفور؟!!

واتقدّ الاسم فجأة في ذهنه: أيوب عبد الغفور. صحيح اسمه أيوب عبد الغفور.

-شاعر الشلة.. ماذا تعرف عنه..

-إنه من يختبئ وراء الأمر كله.

-ما زلت لا أفهم. ماذا تعني.. أي أمر، وأي اختباء..

-أتعرف يا دكتور.. أنت أولاً ابن حلال.

-صحيح؟ قالها ساخراً ولم يهتم رشيد للسخرية، أو لم يدركها.

-ثانياً يبدو أن نقودك من مال حلال.

-اسمع يا رشيد - قالها في غضب -: توقظني الساعة الثالثة صباحاً لتقول لي إني ابن حلال، وأن نقودي من مال حلال.

-يا دكتور. يا دكتور. بعض الصبر.

-اسمع. إن كان لديك شيء هام تريد أن تقوله، فقله، وإلا فاتركني أنام، وتأتي إلي صباحاً فتطلعني على ما لديك.

فقال في سرعة مندفعة: إن الرجل وراء رسائل البريد الإلكترونية، ومن أسميتهم بالهاكرز أو القراصنة شخص واحد اسمه أيوب عبد الغفور. أيكفي هذا جواباً لتساؤلاتك.

صعق راضي، فلم يكن الجواب متوقّعاً أبداً، وهو لم يطلع رشيد على المهاذر المزعج والهاي إنه أنا، ولا على اسم أيوب.

وجاء صوت رشيد: هل أتركك لتنام.

وقال راضي مستسلماً: لا. بل تعال فوراً.

-ولكني لست في دمشق.

-فأين إذاً.

-أنا أتكلم من حمص.

-طيب.. تعال فوراً من حمص. وسأكون بانتظارك.

-طيب.. مع السلامة. وانقطعت المكالمة.

حاول أن ينام، ولكن اسم أيوب أخذ يلح عليه: ما حكاية أيوب هذا. ما حكايته؟ ولم يكون وراء هذه القصة، البريد الإلكتروني، والهواتف النقالة، وأمية أنت الأصلية. لماذا. ما الذي يريد من هذه التحرشات. لم لم يأت إليه مباشرة: دكتور راضي. كنا رفاقاً في الحارة. أتذكر؟ أعوذ بالله. كم كنت أسعد لو فعلها. لو أني استطعت استعادة تلك الأيام مع واحد من رفاق

الطفولة والمراهقة.. أووف.. الآن، وقد أحلت على التقاعد، وخلوت للعبة كتابة المذكرات. كم كان هذا الرجل سيسعدني بحضوره. لا بد أن لديه ذكريات كثيرة يمكننا تبادلها. ولكن.. لا.. لا أعتقد أنه تابع مسيرة الشعر. وإذاً، من هو.. ما هو.. ما عمله.. وكيف استطاع صنع هذه الشبكة من الاتصالات الملتوية التي جعلت حتى ضابط أمن الهواتف صديقنا يعجز عن اقتفاء أثره.

ولكن، لا.. الرجل ليس على هذه المناعة. فها هو رشيد يصل إليه.. ومن قال إنه وصل إليه: ها هو يذكره لك، ولم تذكره له.. وها هو يقول إنه وراء القصة كلها..

تنهد في حيرة، وقال: نترك الأمر حتى حضور رشيد، فلا فائدة من التخمين، والحقائق ستكون جاهزة لدى وصوله.

حاول أن ينام، ثم ذكر أن ركوة القهوة ما تزال على البوتوغاز، فاندفع إليها، وأكمل صنع القهوة، وعاد إلى غرفة المكتب، نظر إلى الساعة. إنها الثالثة والنصف، ورشيد لن يكون هنا قبل السادسة، أو السابعة إن توفرت السيارة.

قام إلى الكومبيوتر يريد قراءة الصحف ليفاجأ بأن هناك بريداً لم يستقبله منذ الأمس بسبب عدم تشغيل الكومبيوتر. وافق على استلام البريد ولم يفاجأ حين وجد أنه من مؤسسة الإنشاء والترميم. حوّله إلى الطابعة، وعاد إلى كرسيه المريح. رشف من قهوته: الجنرال سعيد تخلص من مشاكله العضوية حين جعلهم يكتبون له مذكراته. ولكن. أنت يا راضي. يا دكتور

راضي أخذت حياتك بالتعقد منذ قررت هذه المغامرة.. لماذا؟

سمع رنّة انتهاء الطابعة من عملها، فحمل الملف الجديد، وقال: أتسلى بقراءته في انتظار وصول رشيد.

كانت المفاجأة الكبرى حين رجع أبو عيدو مع صحن فول كبير، وعدّة أرغفة من الخبز الساخن، وحين سأله ريحان: من أين جاء بالمال ضحك، وقال: كريدي!

كان ريحان قد جهز الشاي، فمضوا إلى المربع الكبير للإفطار، فالجلسة هناك أدفأ وأكثر راحة، ولكن أبو عيدو ما إن دخل إلى المربع الكبير حتى شهق غير مصدق، ولو لم يسارع ريحان إلى اختطاف الصحن من يده لسقط، وضاع الإفطار. التفت إلى أبو عيدو، وسأله عما اصابه، ولكن أبو عيدو كان يحدق في المكتبة غير مصدق، وأخيراً تحرك في اتجاهها، وسأله ريحان ما الذي يدهشه، فتمتم أبو عيدو في انبهار: الكنز.

انفجر ريحان مقهقهاً، فقد كان ما أدهش وحيّر أبو عيدو هي مكتبة العائلة، كتب عتيقة مغلفة بجلود عتيقة لم يكن يرى فيها أي كنز، أما أبو عيدو من يراها للمرة الأولى، فقد بهرته. كانت مزخرفة بطريقة رائعة وبحروف مذهبة. لم تكن الكتب مجلدة بالجلد المراكشي الفاخر فقط، بل كانت محفوظة في قمطرات من جلد مزخرف باللونين الذهبي والنبيذي.

تقدم أبو عيدو من المكتبة. فتح الواجهة الزجاجية، وكان يمكن لريحان، بل كان يجب أن يمنعه من مسها كما اعتاد أن

يمنع أخويه الصغيرين لزمن طويل لو لم تكن يداه مشغولتين بالصحن الساخن المملوء بالفول والحمص، ولو لم يكن خجلاً من رفض لمسه لها بعد أن اكتشف الآن كنز في الضريح، فأحس بالذنب: أكان يخدع الناس طيلة الوقت في إعلان أن جدّه العظيم ذا القدم النضرة قادر على إحبال العقيم، وشفاء المريض، وفك أسر السجين. كان يفكر في تفسيرات وتبريرات، وتسويغات، ولكن.. .. أبو عيدو انكشف عن رجل لطيف، فلم يسأل، ولم يعلق، ولم يعتب، ولم يعتبر أن الاختفاء كله شيء عجيب.. .. فقد كان يؤمن في أعماقه بأن معظم ما نعيشه ليس لنا دور كبير فيه، فالدور الأكبر هو لإخوتنا تحت الأرضيين، أفلم يحوّلوا سلة الذهب إلى قشر بصل.. وكانت الكلمة الوحيدة التي قالها حين نقضا الضريح واكتشفا خلوه التام: قشر بصل كمان؟

أنزل أبو عيدو واحدا من الكتب المذهبة التجليد. قلبّه في احترام، ثم سأل ريحان: شو فيها، قريتها شي؟ واضطر ريحان إلى الاعتراف بأنه لم يقرأها، ولا يعرف شيئاً عن محتوياتها، فأكمل أبو عيدو: وليش ما بتبيعها، لتتنفع بحقها بدل ما قاعدين هيك؟ وأشار إلى البؤس من حوله.

ولكن ريحان هذه المرة كان من رفض بشدة: أبداً. هذا ليس لي.. هذا كله لبيت الخاروف. لا يمكن.. ولا يجوز، وغير مسموح.

وصمت أبو عيدو. وانضم إليهم في إفطارهم.

أغمض راضي عينيه في تعب. كان يتمنى لو ينام.. كان يتمنى لو أنه لم يعش كل هذه السلسلة من الأحداث، الخيانة غير المبررة في إحالته المبكرة على التقاعد، الفراغ الذي وجد نفسه يعيشه بعد كل الانشغال، والمؤتمرات والضجيج، والصحافة التي لم تكن تترك له لحظة خلوة مع النفس، الفراغ الذي لم يعدّ نفسه له أبداً. و.. .. فجأة تجد نفسك مفصولاً عن ماضيك الهائج في الصراع والمؤامرات، عفواً، المؤتمرات والقرارات، والاهتمام، وملاحقة ذوي الحاجات لك.. و.. .. فجأة.. ورقة صغيرة سخيفة غير منتظرة تعلن إحالتك على التقاعد و.. . الفراغ، و.. مراجعة النفس، و.. .. هذه النكتة التي ساقه إليها الجنرال سعيد. المذكرات - الاعترافات - الغفران.. إيه.. تنهد.. في الثقافة الإسلامية لا بد لكل ذنب من كفارة، فما الكفارة المطلوبة منه، عن.. عن.. .. عن ماذا.. عن وقوفه ضد أبيه؟ أم عن مصادرة مصنع أبيه؟.. .. ولكن.. .. إنها إعادة الحقوق إلى أصحابها.. .. راضي.. راضي. أنت لست الآن في مؤتمر صحفي، ولا في احتفال خطابي.. أنت أمام نفسك أنت.. ..

تنهد، وسمع صوت الخادم تتحرك في البيت، فانتظر قدومها ليطلب إليها إعداد بعض النسكافيه والحليب، ولم تكذّب ظنه، إذ جاءته بقهوته بالحليب الصباحية دون طلب، ثم سألت: أيريد الإفطار الآن.. ولكنه ذكر رشيد، فطلب تأجيل الإفطار.. لعله يأتي ويشاركه الإفطار.

رشف رشفة من فنجان قهوته.. وذكر المكتبة التي كان محرّر السيرة يتحدث عنها.. .. وبهدوء ذكر.. .. ذكر.. .. صحيح

في المكتبة الكبيرة، في البيت القديم، المكتبة التي لم تكن تحوي إلا الزبادي والصحون.. والفازات الصينية بنقوشها الزرق الفاتحة على أرضية بيضاء أمالتها الزرقة المحيطة إلى أزرق خفيف، في هذه المكتبة كان يوجد مصحف، و.. .. كتاب فخم التجليد المزخرف بالذهبي والنبيذي.. .. وشهق: أكان هذا الكتاب تلك المكتبة التي يتحدث عنها محرّر السيرة، أم كان جزءاً من المكتبة؟.. .. رشف رشفة أخرى من قهوته، وأخذ السؤال يلحّ: محرر هذا الجزء من السيرة. كيف عرف هذه التفاصيل؟ في الفصول الأولى افترضنا أنه كان مطلق اليدين، فهو يكتب تاريخاً خيالياً.. تاريخاً ليس هناك من نصوص مقارنة، أو شواهد يمكن الرجوع إليها. إلا.. .. وذكر ملاحظة محرر الأجزاء التي يتحدث عن المجاعات والحروب والكوارث التي عاشتها المنطقة، مستشهداً بكتب تاريخ الفترة، فتنهد وقال: لا بد أنه اعتبر الإطار العام الذي عاشه ذو الخمار، أو أبو فاروق هو الإطار الذي حدَّثت عنه كتب التاريخ عن القسوة والمحن التي عاشها أولئك الناس، ولكن.. محرر نص أبو عيدو وريحان يكتب عن أشخاص حقيقيين عاشوا في أربعينيات، أو ربما ثلاثينيات القرن الماضي فهو يحدث عن باصات دُبُش وعكاش، وهذه باصات حقيقية لأشخاص حقيقيين، كانت تصل ما بين دمشق وبغداد، ويحدّث عن سينما غازي، وخمارات زقاق رامي، و.. .. عن ريحان، وريحان اسم لشخص حقيقي هو أبي، وعن المكتبة.. .. المكتبة.. لو أني أستطيع الوصول إلى ذلك الكتاب المزخرف بالذهبي والنبيذي المحاط بصحون الصيني.. .. لو.. .. لا بد أن هناك طريقة

ما للوصول إليه، ولكن السؤال: كيف عرف محرر السيرة بهذه الكتب.. كيف استطاع الوصول إلى أبو عيدو العتال السكير هذا؟ أمن المسموح للخيال الروائي التلاعب بشخوص حقيقيين مغيِّراً من وقائعهم كأن يجعل ريحان الثري المدلل ريحان مقرئ القرآن بالإذاعة بالقطعة، وحارساً لضريح فارغ كان يظن أنه ضريح لسلطان اسمه عمر ويدللونه باسم ذي الخمار. أترى حكاية ذو الخمار هذه كلها لم تنبثق إلا من ذلك الاسم الغامض ذو الخمار، وشاهدة مجللة بخمار أخضر.. حسن.. كل الأضرحة كانت تجلَّل بالأخضر.. فلم لم يسموها ذات الخمار.

رشف آخر رشفة من فنجانه عارفاً بأن أسئلته تقوده إلى الطريق المسدودة، فها هو يقارع صرامة العلم بطراوة الشعر، وها هو يريد لفن السيرة الغاطس في البحر الروائي أن يكون بصرامة التاريخ الذي يقارع الوثيقة بالوثيقة، والنص بالنص، والأثر التاريخي بالأثر التاريخي.

أنت في الأصل لم تكن مَن لم يطالب بهذا فقط، بل أنت من عابثهم عند ملء الاستمارة عندما لم تتعامل معها بجدية، وأنا أعتقد أنهم حاولوا أن يستخرجوا من ركام التخبطات التي أردت قيادتهم إليها شيئاً متماسكاً، فإن نظرت إلى ما قرأت بهذا المنظور، فستكتشف أنهم قد قاموا بشيء معقول.

ولكن.. تنهد.. ريحان وأبو عيدو؟ والمكتبة التي أدهشت الأمي السكير، ولم تدهش المتعلم كما يبدو ريحان بدليل أنه كان يقرأ القرآن واستطاع أن يقرأ اسم بنك كريدي ليونيه

بالفرنسية. أين اختفت هذه المكتبة، و.. .. علام تحتوي. أهي مكتبة دينية كما يتوقع من عائلة كعائلة ريحان مقرئ القرآن بالقطعة، أم أنها مكتبة أرضية، فزخرفتها بهذه الطريقة المبالغ فيها، والتي يتحدث عنها راوي السيرة هذا ليست مألوفة في زخرفة الكتب الدينية، فإن لم تكن مكتبة دينية، فما هي إذن. أتراها تاريخ هذه العائلة والتي وصل إليها محرروا مؤسسة الإنشاء والترميم، فاستخرجوا هذه النصوص العجيبة عن ذو الخمار وأبو فاروق، و.. .. ريحان الذي لم يعرفه.

أحس فجأة بشهوة حادّة للوصول إلى هذه المكتبة.. لو.. لو أنه يضع يده عليها.. .. ولكن.. راضي. ها أنت تنساق إلى اللعبة رغم إصرارك على ادعاء الحياد. ها أنت تقرُّ بأن هناك مكتبة، وها أنت توافق على أن ريحان مقرئ القرآن بالقطعة شخص حقيقي رغم أنك تعرف أن ريحان الذي تعرفه شخص شديد الثراء، ذو مواقف سياسية واقتصادية معروفة، فأيهما الشخص الذي تريد له أن يكون ريحان الحقيقي.. .. وهرب من الجواب إلى المكتبة.. ماذا يمكن لمكتبة مجلدة، مزخرفة بهذه الأناقة في ثلاثينيات أو أربعينيات القرن أن تحتوي؟ أغاني الأصفهاني مثلاً؟ ولكن لماذا يحتفظ رجل كريحان، حارس لمقام معجزته قدم ناتئة من ضريح ما تزال مصرة على الاحتفاظ بنضارتها بكتاب كهذا.. أعمال الجاحظ؟.. مستحيل.. تاريخ ابن خلدون؟ لا يمكن.. تفسير الجلالين؟ ولكنها مكتبة متعددة الكتب، فما يمكن أن تكون؟.

أزّ الكومبيوتر يعلن وصول بريد جديد، فاستقبله وحوّله

إلى الطابعة بسرعة، كان يريد معرفة ماذا يمكن أن يتمَّ على البطلين الجديدين، ريحان الشاب الذي وقف عنده قطار جمال ذو الخمار فجأة، وأبو عيدو الذي صدمته المكتبة شديدة الزخرفة في البيت الرث لا يجد ثمناً لصحن فول. .. ..

حمل الملفّ الجديد، وقرأ

عرف ريحان أنه لن يستطيع استقبال زوار للضريح بعد اليوم فحتى لو رمَّم الضريح، فأين القدم المعجزة، وحتى لو استبدل القدم المعجزة بقدم مصطنعة كما خطر له في لحظة يأس، فهل سيستطيع رواية المعجزات، والحديث عن بطولات الرجل العظيم قاهر الفرنجة، ومحبل العواقر، وشافي الكسحان ومحرر الأسرى.

هل سيملك القدرة على سرد كل هذه المعجزات وهو لا يؤمن بها، فقد شهد بعينه خلو الضريح من كل شيء، حتى من القدم النضرة المعجعجة..

عرف أن صفحة انقضت ليس من حياته فقط، بل وحياة أسرته كلها، وفي تلك اللحظة حمد الله أن أمات أباه قبل أن يشهد الخواء الروحي الذي يعيشه ريحان، توضأ وصلّى قرب البحرة، لا يعرف لم يصلي، فهو لم يكن يصلي فرضاً، ولا سنة.. أكان يصلي اعتذاراً.. كفارة عن تدنيس الضريح؟

صلّى وصلّى، وترك الصبيين يعبثان في غرفة الضريح التي لم تعد ضريحاً، والتي كانت محرّمة تماماً عليهم، صلّى وفراغ في القلب جارح أحسه كمن فقد عزيزاً. وهو لا يعرف كيف يملأ

الفراغ الذي خلّفه من ورائه.. فكّر.. أعوذ بالله، فحتى قراءة أعشار القرآن في الإذاعة صارت صعبة، فكيف سيتلو وهو يعرف أن الضريح خال، وأنّ السلطان عمر ليس السلطان عمر، وأن ذو الخمار لم يترك وراءه إلا.. .. وفجأة ذكر القلادة الجلدية لا يعرف كيف انتقلت إلى عنقه.

أنهى صلاته بسرعة، وشكر الله أن أبو عيدو ليس موجوداً، فمضى إلى المربع - الغرفة الكبيرة، وانتزع القلادة عن عنقه جرّب فك اللفافة الجلدية، فاستسلمت بعد صعوبة صغيرة، رأى الرق الجلدي وقد كتب عليه بالحبر الصيني: لا تخن العهد.

صعقه ما قرأ.. قلّب الرق.. ليس في الرق إلا جملة لا تخن العهد وقد كتبت في سبع دوائرمتداخلة.

ترك يده تسترخي بالرق وفكر: ما معنى هذه التميمة. لا تخن العهد. وما العهد الذي طُلِب إليه ألا يخونه.

رفع راضي رأسه مصعوقاً: إذن فالتميمة صحيحة.. إذن فقد ظلّت العائلة تتوارثها حتى وصلت إلى ريحان، ولكن.. .. لِمَ لمْ يحدثني أحد عنها.. لم لم تحدثني أمي عنها.. لم لم أعرف عنها شيئاً حتى جاء كُتّاب هذه السيرة الملعونة المركبة من خيالات وخزعبلات وإجابات مشوشة على استمارة موحّدة كتبت لجميع الناس، فإذا بها تسير إلى هدف واحد هو حمل رسالة: لا تخن العهد.. .. أي عهد.. أي عهد؟ عهد الجمال والخروج عن عشيرة لعقة الدم؟..

فجأة انتصب راضي واقفاً: راضي.. أنت في طريقك إلى

الجنون.. أنت في طريقك إلى الجنون. بلا شك، فها أنت تصبح جزءاً من لعبة شاركتْ في بناء قواعدها.. استمارة مهلهلة كتبت بطريقة عشوائية.. لماذا.. أنت لم تعطهم معطى صحيحاً واحداً، وأنت تعرف أن معظم ما كتبوه حتى الآن خيال في خيال، خيال انتزع من حيوات تاريخية عامة تنطبق على معظم سكان هذا الشرق الذي كتب عنه في التاريخ، وعن المظالم التي حاقت به، والحروب المجانية التي سيق إليها، والطواعين التي سرقت معظم سكانه، والمجاعات التي استهلكت معظم من لم يستطع العوم في الطوفان.. ليس من شيء خاص بك.. .. تنفس متعباً.. .. وريحان؟ والسلطان عمر؟ والضريح؟ والخرابة؟.. ولكن هذا كله معروف لكل من سكن حارتك، وعرف عن خرائبها وأوليائها، وريحان؟ وريحان.. ولكن ريحان الذي يحدّث عنه محرر السيرة ريحان آخر.. إنه ليس الثري صاحب البنايات والمصانع، ليس السمين حتى لا ملامح لوجهه، ليس الأكول حتى ليأكل أكل خمسة رجال في وجبة واحدة عن أيام ثلاثة.. ليس.. .. وتمتم منهكاً، متعباً، مستنزف الروح: ولكن التميمة المكتوبة في دوائر سبع تقول: لا تخن العهد.

قُرع جرس الباب الخارجي، فارتعد، فلم يكن على استعداد لتوقع طارق في هذا الوقت، وبينما كان يسمع خطوات الخادم تتجه إلى الباب تذكر أنه رشيد. فجمع بسرعة أوراق الملفات، ووضعها بعيداً عن الأيدي ثم أضاف إليها الصور الجماعية والفردية، واستعدَّ لاستقبال رشيد.

23

كان رشيد يتحدث متحمساً وفمه نصف ملآن، أو ملآن. كان قد عرف أنه الآن ليس مدير المكتب، لا، ولا رجل المهام الخاصة، ولا حامل حقيبة المدير العام، وفاتح باب السيارة له في احترام..

كان منذ المهمة الثانية قد قرر أنه قد صار شريك السيد المدير العام، شريكه في البحث والدراسة المطلوبتين من تلك الهيئة الغامضة التي لم يصرح المدير العام باسمها، وإن أدرك رشيد بحدسه الخاص أنها هيئة خطيرة قادرة على النفع والضرر و.. دفع المال الكثير لقاء الجهد المطلوب.

كان راضي يأكل بأطراف شفاهه مسايراً، وإن كان شربه للشاي قد غلب على أكله، أما رشيد فكان يأكل بشهية، ويمتدح ما يأكل، أنواع الزيتون، الجبن، المربيات، المكدوس، ويثني – ظاناً أنه يثني على ربة البيت – صانعة هذه الأطايب، ولكن راضي كان يعيده في كل مرة إلى موضوع الحديث الأساسي: كيف عرفت أنه أيوب عبد الغفور. وتحدث رشيد عن عجز رؤساء الدوائر والأقسام بل حتى المديرين العامين أحياناً فهم مثقلون بالمسؤوليات والقوانين وخبث الموظفين الصغار المتظاهرين

بالجهل، وأن الحقائق كلها ، والتهرب من تشدُّد القوانين يكمن بين أيدي الموظفين الصغار، أُولئك الذين لا تكفيهم رواتبهم للأسبوع الأول من الشهر، فهم يتكتمون على الأسرار التي يسعى إليها الجميع، ويعرقلون آلة الدولة حتى تزيِّتها بالليرات التي تكفي لإدارة العجلات. وقاطعه راضي في جفاء: المهم. المهم أيوب عبد الغفور. من هو؟

- إنه اسم لصاحب مقهى للإنترنت في حمص.

وتنهد راضي في ارتياح..: آه.. صاحب مقهى للإنترنت في حمص؟

- صحيح.

- ولكن ما علاقته بهذه القصة كلها. البريد الإليكتروني والرسائل المزعجة. و... وتحدي: هل تستطيع؟ ما علاقته بهذا كله. وهذه الصور؟.. صحيح. أعرفت من هو الرجل الثلاثيني في الكوفية الحمراء المنقطَّة تغطي الجبين.

- عرفته.

- كيف.

- بطرائقي الخاصة. إنه أبو صلاح، أحمد اليوسف.. أخرج ورقة من جيبه أخذ يقرأ منها. نجار بيتون، عدَّته كلها مطرقة، وحزام جلدي يودع فيه المسامير. حياته كلها تسلق للهياكل الخشبية يصنعها قبل التسليح وقبل صبة البيتون..

وهمس راضي: وما علاقتي بنجار بيتون؟

وتابع رشيد: لا علاقة له بالسياسة، لم يعرف عنه أي اهتمام بالسياسة، وحتى الجامع كان لا يرتاده إلا نادراً، أو لأداء صلاة الجمعة إن لم يكن مدعواً إلى صبّة بيتون غير نظامية، أو غير مرخصة في الضواحي الهامشية، فرجال البلدية لا يعملون يوم الجمعة، فيسأله المضطرون، ويلبي، فيتضاعف أجره إن عمل يوم الجمعة، وكان معروفاً عنه القول: الله غفور رحيم.. يعرف أني أسعى وراء رزق أولادي..

وكرّر راضي: شخصية نمطية. ما علاقته بي، ولم يرسلون إليّ صورته مع فقاعة اعرف نفسك، ثم تحدي: هل تستطيع؟

ولكن رشيد لم يكترث لتساؤلات راضي، فتابع: كان قد ترك كل ما معه من نقود قليلة مع زوجته أم صلاح لشراء لوازم البيت، وحين حدثّت عن غيابه قالت: المسكين لم يحمل معه ولا حتى ثمن السكائر. كان معه سيكارتان فقط. قال: سنقبض اليوم، وسأحتال على رب العمل ليشتري لي علبة سكائر. سأقول له على الحساب، - وضحك - والرجل كريم، ولن يحاسبني بثمن السكائر. - كان هذا آخر ما تذكر منه، أما ربُّ العمل الذي مضت أم صلاح لسؤاله عنه حين لم يعد في تلك الليلة، فقال إن أبو صلاح لم يصل إلى موقع العمل في اليوم السابق، و.. اختفى أبو صلاح

وتمتم راضي في انكسار: في أي تاريخ كان هذا الاختفاء؟

فوضع رشيد الورقة من يده، وقال: في اليوم نفسه الذي جرى فيه الانقلاب.

فسد مزاج راضي، فابتعد بكرسيه عن طاولة القهوة التي نشر عليها طعام الإفطار، ورأى تَحرّج رشيد، فأشار إليه أن يكمل وجبته، ولم يستجب لأزيز الكومبيوتر، بل نظر إليه من مجلسه، وقرأ إشارة وصول بريد إليكتروني.

تكررت الإشارة، وتحرَّج رشيد، ثم لم يعد يحتمل، فقال:

- الصوت.. لابد أن هناك شيئاً مهماً

- دعك منه. سينتظر... المهم.. أيوب عبد الغفور كم سنه.. عمره يعني؟

- قال رشيد: شاب.. في حوالي الثامنة والعشرين، الثلاثين.

فتنهد راضي في ارتياح، وتمتم كمن يحدث نفسه: إذن فهو ليس الشاعر.

والتقطها رشيد: لا أعرف إن كان شاعراً، ولكنه من أبناء هذه الأيام.

- المعنى.

- شاطر. يعرف كيف يكسب جيداً.

ولما أمعن راضي في الاستفهام حدثه رشيد عن المهنة الجديدة في السوق، عن مقاهي الانترنت التي استفادت من تشدد السلطات والرقابة على الانترنت، وعلى البريد الالكتروني

فأقامت مواقع، ومواقع وهمية، وأقنية مفتوحة مع مواقع مسموح بها في استانبول، وباريس، وبيروت يمكن عبرها نقل البريد الاليكتروني الذي لا يراد مراقبته، ويمكن عبرها التواصل مع المواقع المحجوبة، أو المحرَّمة. ولما أبدى راضي احتجاجه بأنه بدأ يضيع، ولم يعد يفهم هتف رشيد في احتجاج حقيقي: ولكنك كنت من الأوائل ممن تعاملوا مع الكومبيوتر وتقنياته والانترنت وتقنياته. كانت لعبتك المفضلة. أنسيت؟

وصمت راضي فقد كان يظن أن اهتمامه السابق باللعبة الجديدة سر خاص به، فإن كان رشيد على علم به، فكم واحداً.. منهم.. يعرف بهذا الأمر.

وأخيراً همس في استسلام: إلى أين وصلت..

- هناك أيوب عبد الغفور.. وأيوب عبد الغفور.

- يعني؟

- هناك أيوب عبد الغفور الشاب المعروف الذي حدثتك عنه، وصاحب مقهى الانترنت، وهناك أيوب عبد الغفور آخر استغل تشابه الأسماء ليختفي خلف اسم صاحب مقهى الانترنت، ويرسل إليك كل هذه المعابثات والصور والهاي إنه أنا.

صمت راضي، فقد عرف أنه يقف الآن عند الحد الفاصل بين أن يسلم كل أسراره إلى رشيد، وهو يعرف الرجال أمثال رشيد، فلقد عبر في حياته الكثيرون منهم، الرجل غير المهم، والباحث عن دور مهم، فإن لم يجده تحرش بالمهمين، وسمع

منهم، وحفظ مقولاتهم وأفعالهم، ثم إذا ما خلا بأصدقائه في المقهى بدأ الحديث. عن المهمّين، وكأنهم أنداده، أصدقاؤه الغلاظ الذين يحتمل غلظتهم، و.. يحاول أن يستر عيوبهم. فهو الفهيم القادر، مصحّح الأخطاء.

صمت راضي حائراً: لقد عرف رشيد أكثر مما ينبغي، فكيف أقفه عند حده. أتخلص منه؟ أنهي العملية؟ أعطيه بعض المال وأشكره، ثم أقطع العلاقة معه. نظر إليه يمسح صحن المربى في شره، وأحسن كراهية جديدة له.. ما الذي جعلك تدخل مثل هذا الغليظ إلى حياتك، ما الذي جعلك تتورط باستعادته، وها أنت تؤاكله، وكان لا يجرؤ على تحريك يديه إذا ما حمل إليك البريد، بل يقف منتصباً كتمثال.

ما الذي جعلك تتنازل. لم سمحت لنفسك بالتنازل أمامه، مجالسته، مؤاكلته، تبادل الأسرار معه. أهذا ما وعدك به الجنرال سعيد؟

أهذه هي الراحة العضوية والنفسية التي منّيت نفسك بها. أعوذ بالله. ها أنت تغرق في مستنقع كنت في غنى عنه، الرجل يتحدث عن المعابثات والصور، والهاي إنه أنا.. وانتفض فجأة: ماذا لو قرأ ملفات مؤسسة الإنشاء والترميم، وحاول أن يصنع لنفسه تصوراً عن الرجل المخيف، المدير العام ومعاون الوزير الذي كان يقطع الأرزاق، كما يقطع الأعناق أو يعطي حتى الإغراق..

رنّ الهاتف، فرفع السماعة، وأعادها بسرعة قاطعاً المكالمة

عن مرسلها، ورأى نظرة الدهشة على وجه رشيد الذي حاول أن يعتذر: أعتقد أنك لم تنم جيداً الليلة الماضية. أنا آسف على إيقاظك في ذلك الوقت المزعج، ولكن.. - الشهادة لله - حين اكتشفت أن هناك أيوبين، واحد منهم شاب ظاهر، والآخر متخف وراءه قلت لنفسي لقد التقطنا أول الخيط. - ثم في تقرب -: أتراه على علاقة بالمؤسسة التي كلفتكم بإجراء الدراسة.

فصرخ راضي بسرعة: لا.. لا.. هذا شخص آخر.. ثم أحسَّ أنه يتورط بالحديث، فقال: بل على العكس.. الهيئة صاحبة الدراسة كانت حريصة على ألا يتسرب إليها دخيل.

- وأيوب عبد الغفور. دخيل؟

وهز راضي رأسه إيجاباً، شاعراً بأنه هزم أمام هذا الفضولي، فقام. واضطر رشيد إلى القيام، وقال راضي في تلطف: أحسُّ أني نعست. أنت على حق. وأعتقد أنك نعسان أيضاً. امض الآن، وسأهتف لك إن جدَّ شيء.

استعد رشيد للمضي، ولكن بحركات متكلفة، ففهم راضي وفكر: لقد نزع الرجل كل أقنعة مدير المكتب، فمضى إلى درج المكتب واستخرج بعض المال، ثم صافحه مودعاً داسًّاً المال في يده فنقل رشيد يده إلى جيبه دون خجل، ومضى.

صحبه حتى الباب الخارجي. عاد إلى مكتبه، واتجه دون تردد إلى جهاز الكومبيوتر، فاستقبل البريد، ثم حوَّله على عادته إلى الطابعة وعاد إلى كرسيه المريح، وراقب الخادم تحمل بقايا

العشاء في انتظار أن تنهي الطابعة طباعتها.

لم يكن ريحان من الذين يعيشون لحظتهم. الذين إذا ما كانوا شبعانين لا يفكرون في الوجبة التالية، وإذا كانوا في فراشهم لا يفكرون في يومهم القادم، بل كان من النوع المعذب الخائف من الغد، ومن الساعة التالية، ومن الوجبة التالية، ومما يخبئه له القدر من مصائب.

كان الولدان قد وجدا في إعادة رصف حجارة الضريح تسلية لم يكن لهما بها عهد، فانشغلا بها، أما ريحان فقد استلقى على الطراحة في الباحة يفكر: هاهو جشعك الأحمق يقطع صلاتك بماضيك تماماً، فلا ضريح لتحرسه، ولا حكايات عن بطولات جدٍّ تحدى الموت، وترك قدمه تطلُّ من الضريح برهاناً على كرامته المخالفة للمألوف، ولا إذاعة بعد اليوم فهو لن يجرؤ على قراءة الأعشار وهو يعرف أنه بيده الآثمة قد حطّم ضريح الجد.. وذكر التميمة، فأثقلته بكتابتها السباعية في دوائر: لا تخن العهد، تنهد وها هو قد خان العهد إذ لم يؤذ القدم الشريفة فقط، بل حطّم الضريح، وأبدى سوأته الخاوية هه. لا تخن العهد. ولكنه لا يذكر أنه عاهد أحداً على الحفاظ على الضريح فكل ما يذكره هو أنه استمرَّ في عمل كان يقوم به أبوه، ولا يذكر أن أباه عاهده، أو طلب منه الحفاظ على العهد، فما معنى هذه التميمة السخيفة التي وجدها معلقة في عنقه على غير توقع منه.

انتصب، أراد أن ينتزعها، ويرميها حين قرع الباب، فازداد غضبه: زوار جدد.. هه.. - أطلق نفثة سخرية - لضريح من

حجارة لا تضم حتى القدم المعجعجة. تكرر طرق الباب بقوة، فاتجه إليه! سأعتذر منهم.. سأجد عذراً. ولكن. لا.. لن يكتشفوا الضريح الخالي.

فتح الباب، ولكن الطارق كان أبو عيدو. وكان وراءه عتال مع طنبر وأمامهما صفيحتا سمن وزيت، فنظر ريحان إليهما مندهشاً يسأل دون لغة: ما معنى هذا. ولكن أبو عيدو دفعه في لطف وهو يقول لعتال الطنبر: فوت أخي. فوت. ما في نسوان بالبيت. رصفا الصفيحتين في المطبخ الخالي إلا من موقد حطب لم يستخدم منذ زمن طويل، ثم مضيا، راقب ريحان ما يجري مذهولاً لا يفهم شيئاً ولكن عودة العتالين مع أكياس السكر، والبرغل واللحم جعله أخيراً يمسك بيد أبو عيدو ويشده جانباً ليسأله ما الذي يجري، فيطلق أبو عيدو ضحكته المسرسعة ويقول: كريدي.

خرج أبو عيدو مع العتال، وعادا مع موقد كاز جديد، وطناجر جديدة، وصحون جديدة، ولما أفرغ الطنبر تماماً من محمولاته ودعه أبو عيدو، وعاد ليخلع حذاءه مكسور القفا، ويقول: اليوم رح نعمل غدا مدهن، خلي هالأولاد يشبعوا.

ولكن ريحان المثقل أساساً بديون الحارة هتف فيما بين الهمس والصراخ المحرج: وكيف سنسدد؟

- قلت لك كريدي. الله ما بيقطع حدا.. كريدي أبو الرياحين، كريدي

استسلم ريحان لجنون أبو عيدو، وقال في سره: خربانه،

خربانه دعها تخرب حتى النهاية، أعطى أبو عيدو الولدين صحني عوامة، وأراهما صينية حلوى الهريسة باللوز، ولكنه أفهمهما أنها لما بعد الغداء، ثم تكشّف عن رجل آخر غير عتال كراج بغداد، وسكير زقاق رامي. تكشف عن طباخ حنون، تعاون معه ريحان، واشتعل موقد الكاز، وسرعان ما انطلقت من البيت رائحة اللحم المقلي بالدهن والبصل، وعاد للبيت شكل الأسرة السعيد..

لكن ما فاجأ ريحان والجميع في انتظار نضج الطعام حمل أبو عيدو للسلم الخشبي إلى الغرفة الكبيرة حيث أسنده إلى الجدار قرب المكتبة، ثم أخذ يدق مسمارين إلى جانبي المكتبة وريحان المستسلم لعجائب أبو عيدو يكتفي بالتفرج، وما إن ثبّت المسمارين حتى أخرج من عبّه شرشفاً أخضر كبيراً مطرزاً بالأغاني وثبّته بالمسمارين، فاختفت المكتبة، وعندئذ تجرأ ريحان، فسأله عن سبب هذا كله، فقال في وقار:

- منظر المكتبة عم يجنني. بيخليني حسّ قديشني جاهل. أخي منغطيها، لا عين تشوف، ولا قلب يحزن.

في اليوم التالي كانت المفاجأة الجديدة. فقد رجع أبو عيدو من السوق، ومعه ثياب جديدة لريحان، وللولدين، ولأبو عيدو نفسه، ولما احتج ريحان سكّن أبو عيدو احتجاجه: لك طوّل بالك. قلت لك كريدي. الله ما بيقطع حدا. كريدي.

أما المفاجأة الكبرى، فكانت في استئجار أبو عيدو لبيت أبو مصطفى أفخم بيوت الحارة، وأنفسها، وارتعب ريحان، فما الذي تفعله. من سيدفع أجر هذا البيت. إياك أن تقول كريدي.

ولكنه هزَّ رأسه يقولها دون أن ينطقها.

انتقلوا أخيراً إلى البيت الجديد المفروش بفرش جديد. بيت ليس فيه مراحيض تنظف براتب شهري من وزارة الأوقاف. ولا ضريح لجد كرامته قدم ناتئة من قبر اختفت حين طاردها النقض، والبحث عن الكنز تحتها.

استسلم الولدان للعز الجديد، والثياب الجديدة، والدراجات الجديدة. فبدا عليهما بسرعة أنهما أبناء أكابر. أما ريحان الذي تغيَّر لديه كل شيء، الثياب، والجمال الرباني الذي حط عليه على غير علم منه، فصار أسطورة الحارة ما إن يمضي من البيت إلى المقهى مصحوباً بأبو عيدو في ثيابه الجديدة، وخنجره الفضي إلى جانبه حتى نسي أهل الحارة تاريخه الضريحي، والمراحيض، ومقرئ الأعشار بالقطعة، فالرجل الذي يرونه كل يوم كان فاتناً للرجال، فما بالك بالنساء.

عرف ريحان الذي طالما اعتاد النساء المرور به، وكأنهن لا يرينه، فليس فيه ما يلفت الانتباه، شكله العادي ولحيته الخفيفة تعطيه منظر بله هادئ يخفي وسامته الرجلية، أما انحناء كتفيه ونظره إلى الأرض في خجل فكأنه يقول للجميع: انظروا أنا حارس الضريح، ومقرئ الإذاعة التقي. لا شهوة، ولا رغبة لي في النساء، فلم يكذبن رغبته، وانصرفن عنه. ولكنه فجأة حين لبس البدلة الجديدة المكوية، وحلق لحيته، وازدان بالجمال الذي لم يكن له به عهد صار مطلب الفتيات والنساء يلاحقنه في مروره بالآهات، ويطاردنه بأغنيات محمد عبد الوهاب وأم كلثوم التي

دخلت مؤخراً البيوت المتظرفة محمولة على كوانات وأسطوانات تبثها الغراموفونات.

لم يفهم أبداً لم انتشرت في الحارات كوانات الحب، ولم يفهم لم كانت تنطلق حالما يمرّ تحت نوافذ البيوت في طريقه إلى السوق أو المقهى، ولكن تساقط الياسمين المفاجئ عليه، أو سقوط وردة حمراء أخذ يلفت انتباهه، أما ما أخرجه تماماً من بلاهة الصبا، فكان حين عبر ليلاً من تحت القناطر ليفاجأ بكفين طريتين تمسكانه بقوة، ثم ينقض وجه كان مغطى بمنديل أسود، فيقبله بقسوة كادت تمزق شفتيه، ثم تهرب المرأة بعد أن تركت بين يديه منديلاً أبيض مطرزاً بالوردي، معطراً بالريف دور، ومزيّناً بحمامتين تحملان بين منقاريهما كلمة - حبيبي بحبه - مطرزة على راية مدلاة بين الحمامتين.

كان الولدان يسمعان طرقاً على الباب، فيفتح أحدهما الباب ليفاجأ بقطرميز من مربى الورد وحيد لا حامل له، فيحمله إلى الداخل ليتسلى مع أخيه بتذوق الورد المسكّر يذوب في الفم، أما حين يفتح أبو عيدو الباب ليفاجأ بقطرميز من مربى الكباد، فقد فهم الرسالة، فالكبّاد حارق الأكباد.. .. ثم يتأمل الحارة طويلاً يتساءل. من مرسلة هذه الرسائل المتخفية وراء ستائر الخشب المثقبة ترى ولا تُرى.. وكان في الآن نفسه يتأمل ريحان متسائلاً عما يتغيّر فيه مع ورود هذه الرسائل، ولكن الرجل الذي اكتشف جماله الجديد اكتفى بالمرآة يتأمل حسنه الذي لم يره من قبل غير مصدق، ثم يقول: سبحان الخلاق على ما خلق.

في هذه الأثناء ورد إلى المدينة كوانات جديدة تحمل أعشاراً من القرآن بأصوات مصرية عذبة، محمد رفعت، وشعيشع ومصطفى إسماعيل.

كان مدهشاً أنَّ كثيراً من البيوت أخذت تذيع أعشار القرآن تتحدث فيه عن يوسف وحسنه وتقطيع النساء أصابعهن حين يمر ريحان أمام البيت، وأصرَّ ريحان على عدم الفهم. كانت مرآته الصغيرة في الجيب، والكبيرة في باحة البيت كافية لإشعاره بالرضى الكامل. ثم التمتمة: سبحان الخالق فيما خلق! كان سعيداً بأبو عيدو، سعيداً بهذا الكريدي غير المنتظر، سعيداً بكل ما يهطل عليه من نعم لم يسألها، سعيداً بالورود تتساقط عليه وتحمل إلى باب بيته. كن يرسلن إليه أزهار الشابّ الظريف ليعرف أنه ظريف، وأزهار فكر فيني ليعرف أنهن يفكرن فيه، وأزهار الكباد ليعرف أن أكبادهن توجعهن كلما مرَّ بهنَّ. وأزهار القلب المحروق ليعرف أن قلوبهن احترقت. وأزهار ورد الأرق ليعرف أن مرضهن القاتل هو الأرق، وأزهار عطر الليل ليعرف أن وجوده قريباً منهن يعطر لياليهن، أما أزهار الجرح الدامي فكانت ليعرف أن قلوبهن تنزف من العشق.

أصرَّ على عدم الفهم، ولكن. كان لابد لواحدة منهن أن تستطيع الإيقاع به أخيراً، فلقد مرَّ أمام بيت مؤجره أبو مصطفى، وكان حين يمر لا يرى إطار الباب المسوَّر بالحجر الأبلق، ولا يرى النوافذ، ولا الشُريفات من الخشب المثقب تطل على الحارة، ولكن حين سمع الشيخ محمد رفعت ينشد: إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين، ثم تتوقف الأسطوانة لتعيد الآية نفسها تساءل: ما

الذي أصاب الغراموفون، فتوقف عند هذه الآية تتكرر، وتتكرر حتى يغيب في آخر الحارة.

الوحيد الذي فهم الرسالة جيداً كان أبو مصطفى الذي اختلى بزوجته، وسألها: ما معنى ما يجري؟ فحدثته عن الرجال العقلاء الذين يخطبون لبناتهم قبل أن يخطبوا لفتيانهم، ففهم الرسالة، وقرَّر العمل.

في يوم الخميس دعا أبو مصطفى ريحان إلى طاولته في المقهى، فلم يملك ريحان الرفض، فالرجل ثري الحارة، وكبيرها، فمضى إلى طاولته، وشرب معه السحلب المزيَّن بالفستق واللوز ومسحوق جوز الهند، وحين دعاه أبو مصطفى إلى الغداء في الغد في بستانه بستان الحجر لم يجد أبو عيدو مبرراً لأي اعتذار، فوكز ريحان سراً ليوافق.. ومضيا في اليوم التالي لتلبية دعوة أبو مصطفى إلى الغداء في بستان الحجر حيث المشمش والخوخ والجانرك والدراق المبكِّر يزين الشجر.

كانت الدعوة لأكابر الحارة، ولكن حين وصل ريحان وأبو عيدو والولدان لم يجدوا من المدعوين سواهم، ولم يبد الضيق على وجه أبو مصطفى الذي دعا أبو عيدو إلى لعب الطاولة. راقبهما ريحان يلعبان طويلاً حتى سئم، فشجَّعه أبو مصطفى على التجول في البستان، وقطاف بعض المشمش والجانرك في انتظار إعداد الغداء.

24

رفع راضي رأسه عن الملف، وتمتم: كأني أشم رائحة الحكايات الشعبية، أو رائحة ألف ليلة وليلة، عن الشاب..، الفقير الذي يحلو فجأة، ويغتني فجأة، ويصبح محطّ أنظار البنات فجأة. أليس في هذه الحكاية كثيراً من أحلام يقظة المحرومين. أليست ألف ليلة وليلة في المحصلة الأخيرة حلم يقظة كبيراً، وكاد ينغمس في مناقشة حلمية ألف ليلة وليلة حين استوقف نفسه: راضي. ما هذه العادة الكلبية، في السخرية المرة الدائمة من كل شيء تلقاه.. أو تسمع عنه. لنفترض أن الحكاية معاصرة، ولنفترض أن ريحان هذا قد ربح جائزة اليانصيب الكبرى، أو ورث عماً غنياً شديد الغنى مقيماً في أميركا مثلاً أليس هذا شيئاً مألوفاً؟ ولنفترض أنه استأجر رجلاً خبيراً ليحسِّن صورته، فأجرى له عمليات تجميل، وعمليات تغيير مظهر خارجي، الملابس، السيارة، البيت. أفلن يحصل له ما حصل لريحان. لم تريد من كل ما ترى أن يكون مطابقاً للواقع الميكانيكي، اترك للأمر بعض الخيال، أطلق نفثة تهكم على عادته، وعاد إلى الملف.

مضى ريحان يتمشى في البستان، وكان البستان معتنى به حتى الحد الأقصى، معتنى به ليس بستاناً للاستثمار، بل بستاناً

للبهجة والمتعة، فبستان الحجر لم يكن يبعد عن الحارة أكثر من عشر دقائق مشياً، وكان فيه كل شيء، نهير صغير يدور بالبستان من كل جوانبه، فالنهير لم يكن نهيراً عابراً منه يروون البستان، بل كان نهيراً قد حُدِّد مساره ليطوف حول أركان البستان قبل أن يخرج ليسقي البساتين الأخرى، وكان في النهير بطة بيضاء ومن خلفها سبع بطيطات سحرنه، فتوقف يتأملهن. مضى قليلاً، وسمع أنين ناعورة صغيرة تحمل الماء، ثم تعيده إلى النهر، لم يكن المراد منها أكثر من الأنين واندفاق الماء من دلائها العليا. مضى قليلاً إلى الأمام فسمع صوت غراموفون يغني: محلاها عيشة الفلاح، فتساءل: من أين يأتي الصوت. تقدم إلى الأمام ليرى ساقين ناعمتين مدلاتين في النهر تعبثان، وتطرطشان، أحس بخجل وحاول الانسحاب فهو يتلصص على أعراض الآخرين، ولكن ضحكة رقيقة جعلته يتوقف. ما هذا. أجراس فضية؟ استتر بأغصان شجرة مشمش، واقترب يتفرج، ورآها. كانت قد أرخت شعرها الأسود على كتفها، وتركت ساقيها تعبثان في الماء، وكانت رغم الغراموفون العامل على بطارية كبيرة إلى جانبها يغني: محلاها عيشة الفلاح، فقد كانت تدندن، من الواضح أنها كانت تدندن، ولكن. ما الذي كانت تدندنه. أكانت تتابع الأغنية، أم أنها كانت تغني أغنيتها الخاصة.

كانت مستترة عن الشمس بغصن مشمش كبير، وكانت تقطف مشمشة بين الحين والآخر، فتعضّ منها عضة، ثم تلقيها

إلى البط يسبح في النهير، ثم كانت تتطاول إلى غصن آخر مدروز بالجانرك، فتقطف منه وتعابث البطيطات بضربها بثمار الجانرك، فيخطفنها، إن استطعن، أو يعدون وراءها.

تأوه ريحان.. تأوه، ولما لم يكن يحفظ الشعر، ولم يكن يحفظ الغناء، فقد وجد نفسه يردد: وحورٌ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، ثم تقدَّم منها خطوة، فالتفتت إليه مبتسمة، لم تذعر، ولم ترتعد، ولم تصرخ، فردَّد: متكئين على سرر مصفوفة، وزوَّجناهم بحور عين.

قالت: لماذا تقف بعيداً. تعال.

كانت بقية الصفحة بيضاء، فلقد انتهى الملف، ونفخ راضي في سخرية: ألعاب صبيانية، تشويق القطع في لحظات التوتر، على أية حال، سأكمل بنفسي، أعرف أنها تزوجته، وكل شيء في مسار الحكاية يؤدي إلى زواجهما، أنيسة وريحان. واضح أن كاتب السيرة يتحدث عن زواج أبويَّ، ولكن. أكان ريحان على هذا الجمال. وأنا لا أذكر منه إلا استدارة الكرة، والوجه المنتفخ كرغيف عجين زاد تخمره حتى لم يعد يصلح للخبز، وعينان صغَّرتهما السمنة فصارتا مثل البعصة في العجين، و... أنيسة. معقول؟ أكانت على هذه القدرة من الغنج والمعابثة، أكانت تجرؤ؟ وأبوها؟ أكان يمكن له أن يشارك في مؤامرة الإيقاع بالفتى ريحان زوجاً، ولكنها لم تكن القبيحة، ولم تكن العانس، ولم تكن الفقيرة، فلم فعلا ذلك، وذكر الفتى الجميل ابن سلالة حاملي تميمة لا تخن العهد، والذين خضع لهم الجمال،

فأذلُّوا النساء.. ولكن ذو الخمار جبَّته امرأة، فأنهت تعاليه على النساء. وأبو فاروق أحرق جماله وجبَّه رجل غيور، فما الذي حصل لريحان؟

قام إلى الكومبيوتر يريد الكتابة إليهم في المؤسسة يسألهم إرسال الملفات التالية، ولكنه توقف عند الكومبيوتر: راضي. ما الذي تفعله. هل دخلت اللعبة. هل أسروك بالتشويق. هل اكتشاف أسرار العائلة مغرٍ إلى هذه الدرجة. تنهد.. ما المغري في اكتشاف خفايا وضعف الآباء، وأيُّ ولد، أو بنت يتعفف عن قراءة رسائل غرام الأب، أو الأم المنسية، المخفية بعد وفاتهما، ولماذا.؟؟

أكان يعتقد أنهما فوق الشهوات، أم أنه كان يريد تحطيم هالة الأبوين المقدسة، أم أنه يريدهما البشريين الضعيفين تماماً كمن يعرف من البشر. ولكن، لماذا يريد معرفة ذلك؟ أيريد الغفران لهما، أم يريد تجريمهما كما جرَّماه صغيراً لدى سرقة السكاكر والشوكولاته؟ أيريد تبادل الأدوار معهما حقاً؟

استعاد أصابعه عن الكي بورد.. لا. لن أبدي تشوقي، فإبداؤه سيجعلني ضعيفاً أمامهم حين يبدأ الجدل عن إقناعية ومصداقية ما كتبوا. لا. سأتركهم يقولون ما لديهم. ثم.. نتناقش.

ما كاد يستعيد أصابعه عن الكي بورد حتى أزَّ الكومبيوتر يعلن وصول بريد اليكتروني، فابتسم في سعادة: حسن أني لم أتصل بهم، فها هم يتصلون مرسلين بقية الملفات. تقبَّل وصول البريد، لكن المفاجأة كانت في ظهور لوحة: وخير

الخطائين التوابون. أزعجته الرسالة غير المهذبة، وغير المتوقعة، ومد يده ليمحوها، ولكنها امّحت قبل أن يمحوها لتظهر الصورة الجماعية. أحدًّ النظر فيها. ما هذا لقد أضيف وجه جديد إلى الوجوه الممسوحة.. فصل الوجه الجديد عن الصورة الجماعية ثم كبَّره ليملأ الشاشة، لا. إنه لا يعرف الوجه.. ما هذا. ما الذي تريده يا سيد أيوب. ما الذي تريده، وما هذه المعابثة السخيفة؟ أرسل الصورة إلى الطابعة، وفجأة خطر له: لم لا أخاطبه مباشرة؟

طلب العنوان المفترض، ثم بدأ الكتابة.

عزيزي أيوب.. لست أدري أين تختبئ الآن. ربما تكون قد فوجئت في أني كشفت هويتك، ولكن لا شيء يبقى سرياً إلى الأبد. أنت تعرف ذلك ولا شك. السؤال الآن ما الذي تريده من كل هذه المعابثات، عدنان حب الرمان، وعرفناه، وأحمد اليوسف نجار البيتون عرفناه، فما المدهش في هذا، وما الذي تريده من إخفاء هذه الوجوه ثم إظهارها.

اسمع. لم لا نلتقي، ونتذكر أيام الصبا، أفلن يكون ذلك أكثر بهجة. حاول. أرجوك. أنا مشتاق إليك. إلى اللقاء.

وقّع الرسالة، وأرسلها إلى العنوان الموضوع أعلى الرسالة الإليكترونية.

حمل الصورة المكبّرة المفردة. تأملها بعمق. لا. إنه لا يعرفه لا يمكن أن يعرفه. وجه بدوي صميم. الوجه المثلث، الأنف المسنون. العينان السوداوان المضيَّقتان قليلاً، درَّبتهما الشمس

طويلاً على التضيُّق. السمرة الزيتونية المعافاة. لا. لا يعرفه، ولا يمكن أن يعرفه. أراد أن يرمي الصورة جانباً، ولكن لوحة وخير الخطائين التوابون صدمته. ما معنى ربط هذه الحكمة بصورة هذا البدوي. ما المراد؟ ما المطلوب؟

ثم أيوب هذا. ما الذي يريد فعلاً؟ بل ما الذي يسعى إليه. أيعتبره الخاطئ فهو يطلب منه التوبة، ولكن التوبة عمّاذا؟ وما أدراه بأخطائي، ثم من نصّبه قاضياً ليطلب توبتي عن أخطائي، ومن جعله فوق الأخطاء.. أكل ذنبي أني رجل معروف، والصحافة تناولت حياتي كثيراً. فجعلني الخطّاء، وهو المغمور الخفي الذي ليس من يعرفه، ولا يعرف خطاياه يحق له اتهامي بالخطايا، وطلب التوبة مني.

قام إلى الكومبيوتر في غضب، وكتب: أظهر نفسك. إن كنت شجاعاً أظهر نفسك، وليبد كل منا خطاياه لنعرف من الخطّاء بلا توبة، ومن الخطّاء المحتاج إلى توبة.. هل تستطيع؟

كتب السؤال الأخير بحرف كبير مستفز هو نوع الحرف الذي كتبت فيه لوحة؛ كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

أرسل الرسالة. وخرج من البيت غاضباً أن هناك من يجرؤ على اتهامه بالأخطاء، ويطلب منه التوبة.

لم يركب السيارة رغم الشمس الساطعة، بل مضى مشياً، وفجأة تذكر: هذه الدوامة التي وجد نفسه فيها قد أنسته تماماً

حكاية الهاتف المأمول. تنهد.. ربما لن يكون هناك هاتف مأمول.

تجول في حارة القنوات. غريب لم يحسَّ بذلك الشوق الذي كان يظن أنه سيحسُّه حال دخوله إلى الحي الذي قضى طفولته ومراهقته فيه، لقد تغيَّر الحي، تغيَّر تماماً. صحيح أن الأساسيات ماتزال قائمة، واجهات البيوت، النهير المرفوع عن الأرض المبني من حجر وزريقة مغطاة بالاسمنت. صحيح أن بعض أشجار الكينا المعمرة قد طالت وكبرت حتى تجاوزت بيوت الحي في ارتفاعها، ولكن.. السكان، وجوههم، عجلتهم، الهمُّ البادي على وجوههم. العربات والبسطات الكثيرة المنتشرة في كل مكان تضايق الماشي والعابر، والسيارات والشاحنات تزمِّر وتزاحم المارة والعابرين، والبسطات. تنهد. أين مضى ذلك الحي الهادئ الأنيق المغطى بمظلات من الخميسة واللبلاب. أين ذهب ذلك الحي المصحوب.. بهسيس النهر. أين.. وفجأة أوقف نفسه راضي. ما الذي يشدك بين الحين والآخر إلى العاطفانية المضحكة. هذه النوستالجيا الطفلية لا تليق بك.. تذكر. ما الهدف الأساسي من قدومك إلى الحي. تذكر، وامض لغايتك دون التوقف والبكاء على متغيرات أنت تعرف ألا سبيل لإيقافها.

مضى باتجاه البيت القديم، وهو يعرف ألاّ بيت قديم، ولكن شيئاً في داخله كان يدفعه باتجاه ذلك البيت، عبر الحارة، وصل إلى المساحة المشمسة، شديدة الإشماس. لقد أزالوا البيوت القديمة، وها هي عمارة حديثة الطراز تقوم مقام البيت القديم، صحيح أن الكهولة قد أصابتها مبكرة، فها هي

تسربات أنابيب المجاري قد غيَّرت لونها الخارجي، وها هي بعض الأباجورات قد تخلّعت، ولكن العمارة حديثة الطراز قد أزاحت البيت القديم بريحان وأنيسة، وأمية، وأبو حسين، وباص دُبُش وعكاش. أووف.

حسن يا راضي. ما الذي تريد الآن. أريد من يعرف أيوب ويحدثني عنه. أريد من يهديني إلى خيط يوصلني إليه.. المخفر؟ لا. فالشرطة دائماً متبدلون. آه. المختار. شيخ الحارة. لابد أن لديه قوائم وكشوفاً بسكان الحارة الراحلين، والمقيمين، والمتحولين. إنه المرجع الأكثر ثقة. سأل عن شيخ الحارة. دلّوه عليه، ولكنه فوجئ بشاب في العشرينات. سلّم، فنظر إليه موارباً يتفحصه، ثم انحنى على أوراقه في حيلة عامية لإشعارك بتفاهتك وضعفك أمام رجل الدولة المهم، الكبير الذي يملك الاستمارة والختم وإعطاءك مبرر مواطنيتك.

جلس على الكرسي الأقرب. أدرك الآن أنه قد تقدَّم في العمر، فهذا الشاب لم يعرفه حين كان في الحي. ولا يذكره حين كانت صوره في الصحف، فهو لا يراه إلا مصدراً لبضع ليرات ثمناً لتوقيع وختم.

انتظر في هدوء حتى ينهي شيخ الحارة أعماله الورقية الكثيرة، وكأن هدوء راضي لم يرض شيخ الحارة، فترك أوراقه، ثم نظر إليه مباشرة في فوقية مؤنبة أن جلس دون إذن:
نعم. قالها في تبرم.

ولما أخذ راضي يشرح له طلبه، وأنه يسعى وراء رجل كان يقيم في الحي منذ حوالي أربعين عاماً اسمه أيوب عبد الغفور. نظر إليه في سخرية: أربعين عاماً؟

- نعم.. — وتظن ألاّ شغل لدينا إلا البحث عن شخص اسمه أيوب عبد الغفور سكن في هذا الحي منذ أربعين سنة.

كانت طريقته في الحديث أشبه بسيل من السخريات الشاتمة المقذعة التي لم يملك راضي حيالها إلا واحداً من حلّين؛ أن يعلن عن نفسه، ومن هو، وربما كان الشاب وقحاً، فيمعن في سخريته، فالجميع يعرف أنه سُرِّح، وأعفي من كل مناصبه، وإما أن يكون جاهلاً، فلا يعرف أصلاً من هو، فيمعن في سخريته أيضاً. أحسَّ بالشيخوخة والعجز تطبقان عليه، فانتصب، ومضى: أي وحوش أنشأتم يا راضي. أهذا هو الفردوس الذي منّيتم به الناس حين وقفت ضد أبيك لإقامته.

مضى عائداً إلى النادي، شرب قهوة، ثم طلب غداء، كان يخاف من العودة إلى البيت. ولكن كان عليه أخيراً أن يعود إلى البيت. طلب سيارة تاكسي، ولكنه بدلاً من إعطائه عنوان البيت وجد نفسه يطلب منه المضيَّ إلى القنوات.

25

مضى إلى البيت - الخرابة مؤمناً تماماً بأنه لن يجده، البيت الذي اعتاد أيام المراهقة اللجوء إليه مع رفاق الحارة، البيت الذي أعطاه فيه أيوب القصيدة المكتوبة على الورق الزهري الرقيق ليحمله إلى أمية مقسماً بأنّها إن جعلتها تشفق عليه فسيصبح عبداً للشعر، وإن رفضتها، فلن يكتب الشعر من بعد.

تقدم. قال: يجب أن أقطع الشكّ باليقين، ومن الغريب أن البيت كان ما يزال قائماً، لماذا؟ ولكنه قائم.. كان هنالك باب حديدي مفتوح. دخل. رأى ما كان حسب وصف كاتب السيرة مكان المراحيض، ولكنه تحول إلى مستودعات. وصل إلى باب خشبي رديء الصناعة. لم يكن موجوداً. كان كما يذكر.. فماً مفتوحاً إلى خرابة.. وليس غير. عبر الدهليز. دخل الباحة. أعوذ بالله كأن كاتب السيرة وصل إلى المكان وغيّر في مواصفاته ليبدو كأنه بيت ريحان، فها هي البحرة ولكنها المملوءة بالزجاج المكسور، وورق الشاي الجاف وبكرسي محطم، وتحوّلت الباحة إلى بلاط مهشوم مثبت بالاسمنت القبيح، أما الغرف المحيطة بالباحة، فقد تحولت إلى ورشات لصانعي أحذية شعبية، وحقائب رخيصة، وشحاطات. ولتخزين موادَّ لدكاكين خارج البيت.

التفت إلى اليمين، ها هنا كان يجب أن يكون المربع الكبير - الغرفة كما تحدث السيرة. كانت الغرفة مغلقة بباب حديدي مقوًّى بقفل خارجي، سأل عن الغرفة، وساكنها، ولكنهم كانوا مشغولين بمطارقهم، وآلات خياطتهم. وحينما اكتشفوا أنه مجرد فضولي انصرفوا عنه ليحسَّ بفائضيته، تسكَّع قليلاً يتأمل سقف الإيوان الممزق المنهار بفعل المطر عابر السقف، تأمل الأشجار اليابسة لم تسق، ولم تستبدل. بحث عن الغرفة التي كان يجب أن تكون الضريح، ولكن لا غرفة، ولا ضريح، بل صبيان يلصقون الأحذية باللواصق الكيميائية قوية الرائحة. لم يستطع استنطاق أحد، لم يستطع الحصول على معلومة واحدة. فمعظم هؤلاء العاملين لا يقيم في هذه المحلات المستأجرة لأكثر من عام، أو عامين، فالمالك غير معروف، وهم يستأجرونها من رجل ذي علاقات قوية بالشرطة، والرجل حريص على ألا يطيلوا استئجارهم للمكان كي لا تترتب لهم حقوق، وأخيراً.. مضى محزوناً، فما كان يظن أنه سيكون المفتاح ها هو يتكشف عن الطريق المسدودة، الغرفة مقفلة، وحامل مفتاحها غائب، والرجل كما هو واضح يخيف المستأجرين جميعاً بطريقة. أو بأخرى، فلا يجرؤون على إحقاق حقوقهم ولا يحبون في الوقت نفسه الحديث عنه.

وصل إلى النادي. شرب الشاي وحيداً. مضى إلى الممر المشجَّر في ثياب الخروج. أفرغ جيوب الجاكيت من أوراقه ومفاتيحه ونقوده، وعلَّق الجاكيت قريباً من الكافتيريا بعد أن

طلب من العامل حراسة الجاكيت، ومضى يتمشى. كانت الأمور تـزداد تعقيـداً. الرسـائل الاليكترونيـة تـزداد وقاحـة وعدوانيـة وفظاظة، وأيوب يزداد تخفياً، فلم يستطع ضابط أمـن الهاتف أو النقـال أن يصـل إليـه، أو إلى المكـان الـذي ينطلـق منـه بريـده الاليكترونـي، أو أنـه لم يبحـث بشـكل جـاد، فراضـي لم يعـد مهمـاً. قـال: لا أعتقـد أنـه رجـل ناضـج، فهـذا الـذكـاء الحـاد في استعمال الكومبيوتر والتخفي لابد أن وراءه فتى، مراهق. فهؤلاء هـم مـن يـدوّخون العـالم بقرصنتهم، وبـث فيروسـاتهم، وعلـى أيـة حال. لا تهتم. سنصل إليه عاجلاً، أم آجلاً.

مشى، ومشى حتى أخذ في التعرق واللهاث، كان يعتقد أن المشـي المنهـك يفكـك رتاجـات الـذاكرة فتنفـتح كـثير مـن الحكايات التي تبدو في البداية معقّدة. مشى، وقد ازداد لهاثـه، وفجأة قفز رشيد. أعوذ بالله. لم تخليت عنه، لم أدرت له ظهري، هذا هو الرجل المناسب.

تناول هاتفه النقال قبل أن يغيِّر رأيه، واستمع إلي ترحيب رشيد الحار جداً، وأنه في الخدمة دائماً، وأنه عاتب على إهماله. هل أساء إليه. هل أخطأ في شيء، فإن أخطأ فهو يعتذر واستطاع راضي أخيراً إسـكاته، ثـم طلـب لقـاءه في كافتيريا النـادي بعـد العصر.

عـاد راضـي إلى البيـت ليجـد إشـارة أن بريـداً في انتظـاره.. كبس أزرار استقبال البريد الاليكتروني خائفاً، ولكنها كانت ملفات المؤسسة، فحوَّلها إلى الطابعة واسترخى، وشكر الخادم

أن جاءته بكأس من العصير، ثم سألته إن كان يريد الغداء، فأخبرها أنه قد تغدى، تناول الملف.

بعد حفل الزفاف الذي لم يبخل فيه أبو مصطفى بشيء، فلقد كانت أنيسة وحيدته، فدعا المطربات، والراقصات، بل والمهرجين، وذبح عدداً من الخراف، وعشّى الفقراء، وكان ريحان يعيش ذلك الحلم غير مصدق، فأبو مصطفى لم يطلب الكثير من المهر، ولكن المتأخر كان كبيراً، وضحك ريحان لنفسه: أكان أبو مصطفى يعتقد أنه سيطلّق، وهناك من يهرب من سعادة كهذه؟

لكن سؤالاً كان يلح ولا يتوقف. من أين يأتي أبو عيدو بهذه الأموال؟ من أين دفع مهره؟ من أين اشترى.. .. الهدايا من الذهب أسعد بها العروس، وأقنع الأب بأن صفقته كانت رابحة؟ من أين. ولكنه كلما وخزه السؤال ألقاه وراء ظهره، ثم يردد المثل؛ ماذا تأخذ الريح من البلاط.. إن كل ما يجري عليه ربح. زوجة رائعة لا يحلم بمثلها، وأحماء هم كبراء الحارة، وحفلات لا تنتهي، ونقوط تكفي لصنع ثروة.

نسي ريحان الضريح، ونسي الإذاعة وأجر الأعشار التي لم يقبضها، فقد كان يعيش السعادة، ولكن بعد شهر من الزفاف وخلوته مع أبو عيدو، ووجوب إيجاد عمل لاستمرار العائلة برز السؤال أخيراً: من أين أتيت بكل هذه الأموال؟

حاول أبو عيدو التهرب، في السخرية مرة، وفي المزاح

أخرى، وفي الغمغمة ثالثة، ولكن. كان عليه أن يجيب أخيراً، فانتصب، وطلب من ريحان مصاحبته. توتَّر ريحان يصحبه عبر الحارة، وكان يتساءل: من صاحب الدين، فمن يقرض مثل هذه الأموال، ولا يسأل عن طريقة سدادها، ولكن أبو عيدو الصامت على غير عادته أكمل مسيرته حتى وصل به إلى البيت القديم، حيث ضريح السلطان عمر ذو الخمار.

دخلا إلى البيت، ولم يدخلاه منذ شهور. ماشاه ريحان وما يزال السؤال يلح ويرنُّ. استعار منه مفتاح المربع – الغرفة الكبيرة. فتحه، ودخلا. رفع الستائر ينير الغرفة وريحان يتساءل دون كلام وأخيراً اتجه إلى الستارة الخضراء المطرزة بالأغباني، فرفعها في حركة لو كان أبو عيدو يرتاد المسرح لقلنا في حركة مسرحية، ولكن. من يحتاج إلى المسرح حتى يقوم بالحركة المسرحية. المهم رفعها ليفاجأ ريحان باختفاء الكتب المجلدة بالجلد الثمين المزخرف بالذهبي والنبيذي.

التفت إلى أبو عيدو مشدوهاً: أين الكتب؟ ولكن أبو عيدو قال في برود: بالكريدي!

-ما معنى هذا

بعد غمغمة قصيرة، حدّثه أبو عيدو عن الكنز المهجور لا تعرف قيمته، وأبوك لم يعرف قيمته.

تضعونه في المكتبة لا يقرأه أحد، ولا يلمسه أحد، وتتفاخرون فقط بأنه تراث العائلة وأنتم ميتون من الجوع،

وتفرحون أن استطعتم الحصول على راتب من تنظيف المراحيض، والكنز في المكتبة. حدَّثه عن حس الشفقة الرهيب الذي أحسَّه حين رأى الجوع الذي يعيشه الطفلان، والارتباك الذي يعيشه ريحان، فحمل كتاباً إلى سوق الكتب وعرضه للبيع، وصدف أن كان في السوق أجنبي يبحث عن المخطوطات العتيقة، وما إن رأى المجلد في قمطره والزخرفة الرائعة على كل ورقة من ورقه حتى اشتراه بثروة ما كان أبو عيدو يفكر أن يضع يده عليها يوماً. ثم التفت إلى ريحان

- وجبنالكم الأكل، ولبَّسنا الأولاد، وجبنالهم بسكليتة. أنو أحسن؟

وفوجئ أبو عيدو بريحان يقول بصرامة من لم يسمع شيئاً مما قيل: أين الكتب؟

وأجاب أبو عيدو ببرود: لك شو كنا عم نعلّك

بهذه الجملة انتهت صفحة، وبدأت صفحة جديدة في حياة ريحان، فهذا الفتى الخجول لا يرفع عينيه عن الأرض حتى لا يأثم بالنظر إلى امرأة، وهذا الفتى مؤطر الوجه بلحية رقيقة كانت تعطيه منظر صبا معلق، مثير للشفقة. هذا الفتى الودود الشاكر لأبو عيدو أن أخرجه من حفرة منظف المراحيض والمقرئ بالقطعة. تحول فجأة إلى نمر. وهو لا يعرف أين كان هذا النمر مختفياً فيه، فلقد بدأ شجاراً مع أبو عيدو بدأ كلامياً، وانتهى عراكاً بالأيدي. كان يدافع عن تراث العائلة المقدَّس، التراث الذي

أخرجها من ظلمة الدواب إلى نور المعرفة، والعهد. هذه الكتب خطَّ فيها آباء العائلة تراثهم وذكرياتهم، ووصاياهم، وأحزانهم. كيف تبيعها لهذا الكلب، الأجنبي، كيف؟ وحين أجاب أبو عيدو في ارتباك: بس بحياتك ما فتحتها.

- ليس من الضروري أن أفتحها، فقد كنت أعرف أنها موجودة، وأعرف أني سأفتحها يوماً، وأعرف أني سأصل إلى خزائن العلم والحقيقة التي لا يعرفها إلا سلالة ذو الخمار.

عند هذه الجملة التي لا يعرف ريحان كيف قالها، ولا لماذا، ولا إن كان هو من قالها أم أنَّ.. هم من قالوها على لسانه. صمت مصدوماً. انسحب أبو عيدو مرتبكاً، محرجاً، فما كان يعتقد أنه يستحق أن يكافأ على ما فعل لريحان بهذه الطريقة. انسحب، وخرج من البيت، أما ريحان فقد ارتخت ساقاه ذلاً، وإحباطاً، وحساً بالخيانة وبعد ساعات، وحين يحطُّ الليل ستقلق أنيسة على غيابه، وستسأل الجيران. وأصدقاء المقهى، وحين يجيب الجميع بأنهم لم يروا ريحان، ولا أبو عيدو ستحس برعب الفقد فجمال كجمال ريحان معرض دائماً للفقد، وقبل أن تسقط في حفرة الضياع خطر لها أن تسأل الولدين، فدلاَّها على البيت القديم.

مضت إليه معهما لتفاجأ به، في جلسته على الأرض حزيناً، منكسراً عاجزاً عن القيام، فتقيمه، وتجبر كسره، وتزيل حزنه، وتعود به إلى بيتها. قالت: ستبدأ الآن. ولا علاقة لك بالماضي.

في اليوم التالي جرى حدثان هامان؛ وصل طرد ملفوف جيداً إلى ريحان، ولما فتحه وجد فيه كتاباً مغلفاً بالجلد الثمين المزخرف بالنبيذي والذهبي، فيحمله ويعود به إلى المكتبة يتيماً في مكتبة كبيرة لن يكون فيها سواه، والحدث الثاني حين قدَّم أبو مصطفى لريحان نصف البستان. قال: هو لك. أقم عليه المشروع الذي تريد.

وضع راضي الملف من يده متعباً، مشفقاً، متعاطفاً للمرة الأولى مع هذا الريحان الذي لا يعرفه، والذي بدأ يدرك أنه ربما كان ريحان الذي يعرفه أباً، و.. أخذ يتعاطف مع هذا الوارث الأخير لتراث الجمال ذو الخماري، ولكن الفقير حتى ما قبل التسول، والذي يبيع صديق له عن حسن نية كلّ تراثه، ويستبدله بمظاهر خارجية تنتهي به إلى الزواج من جميلة الحارة وثريتها. تنهد مفكراً:

أهذه هي البداية إذن؟ نظر إلى الساعة، كان يجب لرشيد أن يكون هنا. فلم تأخر؟ نادى الخادم، وطلب منها بعض الشاي الهندي، وعاد إلى الملف.

كانت النقود التي حملتها أنيسة إلى ريحان بعد أن باعت مجوهراتها كلها – البداية، فبهذه النقود بدأ بناء أول بناية في طريقه الطويل المعبد بالعمارات.

بعد عدة عمارات، وصبيين كفلقتي قمر طرأ تغير جديد على البلد، فقد هاجر من فلسطين عشرات الآلاف من الذين ظنوا

أن الهجرة مؤقتة إلى أن يستطيع الحكام العرب القضاء على الغزاة، وحتى لا يتعثروا بالفلسطينيين أثناء مناوراتهم الحربية، فقد هاجر الكثيرون يحملون بعض المال، وبعض الوثائق، وكل المفاتيح.

هؤلاء الناس سكنوا في الفنادق، وسكنوا لدى أقاربهم في المدينة التي شاركتهم طويلاً في الأنساب والزيجات. أما الفقراء، فسكنوا في المساجد والمدارس والتكايا، ومن تأخر في الهجرة أسكنوه في مخيمات بعيدة عن المدينة، لكن ما حصل هو أن الهجرة طالت، والغزاة انتصروا، وصار على من ظنَّ الأمر مؤقتاً أن يتعامل مع ما هو أبعد من المؤقت، فاستأجروا البيوت التي هجرها أبناؤها إلى العمارات الجديدة، ثم ما لبث الكثيرون من سكان بيوت البحرات والطوالع والإيوانات، وشجر الكباد أن هجروها إلى البنايات – الموضة الجديدة.

هذا الحراك السكاني الهائل كان ريحان في انتظاره، فما إن أنهى عمارته الأولى حتى كان قد تعاقد على بناء عمارتين تاليتين بيعتا قبل حفر الأساس، وهكذا أخذ بستان الحجر في التآكل، وبدأت أسطورة رجل غرق في العمل حتى نسي كل شيء. نسي البيت القديم، وأرسل أخويه إلى مدرسة داخلية حتى يخلو لعمله، ونسي التميمة التي لم يعد يذكر إن كانت قد ضاعت، أو نسيت، أو بليت، ونسي أول ما نسي أبو عيدو الذي لم يظهر في حياته ثانية، ولم يسأل ريحان عنه، فقد غرق في المشاريع التي كان يساهرها، ونسي الأكل حتى ما كان يأكل إلا كل

يومين، أو ثلاثة أكلة واحدة تكفي لخمسة أو سبعة أشخاص.

بعد ولادة ابنه الأول لم تعد أنيسة ترى فيه إلا ربَّ العائلة الفارق في مشاريعه والأكل حتى ليعجز البيت رغم كثرة طبخه عن إشباعه حين يأكل، وهكذا أخذ في السمنة والسمنة حتى لم تعد أنيسة تذكر أنه كان مفتت قلوب الصبايا يوماً.

دخلت الخادم تدفع طاولة الشاي حين قرع الباب الخارجي، فأدرك أنه رشيد، فطلب إليها ترك الطاولة وإدخال الطارق. صبَّ لنفسه فنجاناً ليشعر رشيد أنه لم يكن في انتظاره. وحين كان يذيب السكر دخل رشيد ضاحاً مبتهجاً، مستعداً لكل الأوامر والطلبات.

في اللحظة التي كان راضي يصافح فيها رشيد مرحباً أزَّ الكومبيوتر، ولأنه كان شديد التشوق لمعرفة ما ستقدم إليه مؤسسة الإنشاء والترميم عن تطورات ريحان، فقد مضى إلى الكومبيوتر، ووافق على تقبل البريد، ولكن ما ظهر على الشاشة كان مرعباً.

كانت ورقة زهرية مجعلكة، وعليها قصيدة مكتوبة في جدولين على الطريقة القديمة

أمية الحب إن القلب يهواك   والروح تهفو إلى رؤيا محياك

لم يكن راضي يحتاج إلى إكمال القصيدة. فلقد عرفها مباشرة، إنَّها قصيدة أيوب عبد الغفور. أعوذ بالله.. ما الذي

أخرجها الآن وبعد أكثر من أربعين سنة من غياهب النسيان.

من أخفاها كل هذه السنين ليظهرها الآن، وما الذي يريد من هذا.. أخذت الورقة – القصيدة تصغر مساحة، وتصغر حتى ظهر تحتها لوحة كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

كان يعرف أنه قد اصفّر، وكان يعرف أن اللطمة كانت شديدة القسوة، وكان يعرف أنها ضربة ما تحت الحزام، وكان يعرف أثر اللطمة فقد ظهر على وجهه. لذلك ما إن شعر بتحرك رشيد من مجلسه يريد إبداء التعاطف حتى أطفأ الكومبيوتر، ومضى إليه يعيده إلى مجلسه، ثم يشير – فقد كان حلقه ناشفاً – إليه يطلب صبَّ الشاي.

26

لم يستطع النوم. كانت قصيدة أيوب عذاباً غير متوقع وكان السؤال يلحُّ. ما الذي أيقظ أيوب الآن. ما الذي يريده، ولم يذكّره بالأخطاء والتوبة. أين كان مختفياً؟.

تناول حبتي منوم، ولم يكن له بالمنومات عهد، ولكن الساعة بلغت الثانية صباحاً ولم يستطع النوم. كان يعرف أن المهمة التي كلّف رشيد بها صعبة، ولكن من يملك حل مثل هذه الألغاز إن لم يستطع رشيد خبير الدهاليز والكواليس والخفايا، والقافز فوق تلويات القوانين.

تقلّب في سريره عاجزاً تماماً عن النوم. كان ما طلبه من رشيد بسيطاً، أريد أيوب.. جد مكانه.. يجب أن أتحدث إليه.. وقال رشيد في مرح: - سيكون بين يديك.. لم يكثر رشيد من الأسئلة، فقد عرف بأن هجر راضي وتجاهله له في الأيام الماضية إنما كان لفضوله ورفع الكلفة، وكان قد تورط في اللعبة، ولو طلب إليه راضي متابعتها دون أجر لقبل لإشباع فضوله فقط، ومعرفة لعبة رئيسه المتكبر راضي، وتابع راضي: أريد مفتاح الغرفة المغلقة في البيت القديم، ولما سأل رشيد عن البيت القديم قدّم له أوصاف البيت وموقعه، ولم يتبقَّ عليه إلا أن يعرف من

المسؤول عن البيت، ومن يحمل المفتاح، والطريقة التي يمكن له فيها الحصول على المفتاح.

- وغير ذلك؟

- يكفي أن تأتيني بهذين الجوابين، وستكون قد قمت بما هو أكثر من المطلوب.

وضع رشيد يده بالنقود التي دسّها راضي فيها في جيبه، ومضى وانقضى النهار، ولم يسمع عنه شيئاً، وكان الليل، ولم تتصل المؤسسة مرسلة بقية السيرة، ولم يهتف الجهاز النقال مهاذراً، أو مشاكساً، أو مضايقاً، ولو حتى بـ: وهي الأصلية كل حبة وقية أمية.

حاول القراءة في ملفات السيرة القديمة، ولم يستطع التركيز، حاول القراءة في كتاب لا على التعيين من المكتبة، ولم يستطع، حاول الاسترخاء أمام التلفزيون، ولم يفلح.. وأخيراً تناول حبتي منوم، واندسّ في السرير، ولكن قصيدة أيوب كانت تلح

أمية الحب إن القلب يهواك والروح تهفو إلى رؤيا محياك
وبهدوء رآها.

كان بردى قد انخفض فيه مستوى الماء حتى ما قبل النضوب. هذا النهر الذي فاض قبل شهور فأغرق طرقات التكية، وأغرق سوق التبن، فأتلفه، وأغرق سوق علي باشا والمناخلية، ولكن. هه. لكل شيء فتوة، وشباب وكهولة وها هو

الصيف يكهله، كان عامان قد انقضيا منذ صنع أسطورته الخاصة حين حمل الترموس، واخترق الحارات ينادي: وهي الأصلية أمية، ولكن أسبوعاً انقضى، وحذاءً اهترأ، وترامس اختلطت فيها ألوان البوظة الأخضر الفستقي، بالأحمر الكرزي، بالتوتي، بالأبيض الحليبي، وعامت فوق الترمس عيدان البوظة بعد أن انفصلت بالذوبان عن بوظتها، عامت، وعامت معها أوراق لف البوظة المطبوع عليها اسم أمية، وكان في نهاية كل يوم ينهك فيه ساقيه وحلقه، وظهره حاملاً الترموس يقوم بطرح محتوى الترموس بعيداً، ويدفع ثمنها كاملاً للمحلّ الذي استجرّها منه.

لأسبوع كامل لم يبع فيه حبة بوظة واحدة، ولأسبوع كامل لم تره أمه إلا بعد المغرب متعباً منهكاً يطلب الحمام فيستحمّ، ويتعشى، ويرفض الحديث إليها وينام كالقتيل كما كانت أمه تصف نومه الثقيل، ثم ما إن تشرق الشمس حتى يصحو ويفطر، ثم يمضي فيستأجر الترموس والبوظة، ويبدأ رحلة: وهي الأصلية أمية، ولكنها كانت قد اختفت تماماً، تبخرت، وكان أبو حسين كما عرفوا جميعاً فيما بعد قد قتل في الصحراء، فالبعض يقول إن السيارة انقلبت به، والبعض يقول إن عصابة لصوص هاجمت، ونهبت الباص والركاب، فحاول الدفاع عن باصه فقتل. وهكذا انقطعت صلة العائلة بأمية الأرمل، ولكن راضي لم ينس، ولم ينقطع. صحيح أنه قد يئس من ترموس البوظة، ومن نشيد وهي الأصلية أمية، وصحيح أنه قد يئس من طرق باب بيت أبو حسين، فلقد سكنته عائلة أخرى، وصحيح أنه كان يطرق

باب أهلها بين الحين والآخر. ولكن على فترات أخذت تتباعد حتى انقطعت.

تقدم لشهادة الثانوية وبدا للجميع أن زمن مراهقته وجنون مراهقته كما كان ريحان يسميها قد انقضى.

لقيها، وكانت تضع الإشارب في طريق عودتها من السوق الذي عرف فيما بعد أنها كانت تبيع فيه البسط التي تنسجها عند واحد من أصدقاء أبيها، لقيها، فشهقت حين رأته: أعوذ بالله. كم صار جميلاً، أين كان كل هذا الجمال كامناً؟

لقيها وأحس بدماء الصياد الذي اعتاد الصيد، وتمرّس فيه تفور. نظر إليها، تأملها، الصبية الجميلة التي جعلته يدور في الشوارع حاملاً ترموس بوظة منشداً: وهي الأصلية أمية. أمسك بكفّها محيياً، وأحسّ بأصابعها تذوب في يده، فأيقن أن الفريسة جاهزة.

في السنتين اللتين غابت فيهما أمية عن راضي، تعلم راضي الصيد، وكانت أسطورة ابن الخاروف العاشق الذي تنازل عن مقام العائلة، ورضي باللوبان في الحارات يغني لأمية التي تجعل العجوز شاباً، والجائع شبعان، والعطشان ريان، هذه الأسطورة جعلت بنات الحارات والمدارس اللواتي كن يراقبنه من خلف النوافذ، وعبر شُريفات الخشب المثقب يتعلّقن به وكانت الجريئات منهن يخرجن إليه، ويتحرشن بهن ويطلبن شراء بوظة يعرفن أنه لا يبيعها.

وحين ييأس، فيتخلى عن الترموس، وينكبُّ على دراسته ليكون الأول، فيسعد أبويه لن يدرك الانقلاب الكبير الذي جرى له، فقد انفجر فيه جمال غير معهود، جمال كان يشعُّ فيصرع، وكانت أمه تراقبه خلسة في سعادة، وتقول: سبحان من أعاد ريحان إلى شبابه في ابنه.

وحين كانت الإجازة الصيفية الأولى أدرك سرَّ جماله حين تعرف في حفلة المركز الثقافي المصري على ليلى التي أدخلته عالم النساء الذي لم يعرفه منذ أمية، ثم وبطبع لم يكن يعرفه من قبل أخذ في التقلب بين النساء يدفعه قلب لا يحركه اهتمام كبير بالحب، وشهوة أخذت تعرم في شاب كان كل ما فيه يغري الفراش بالارتماء في ناره، الجمال الخارق والثروة، والسيارة، وبيت داريا للصيفية الذي اشتراه الأب أخيراً، فتحول إلى أسطورة العشق بين رفاق الحارة، وكلٌّ من عبر بطريقه من النساء.

كانا يمشيان تحت أشجار الكينا العملاقة، وإلى اليسار منه بردى الناضب، فالصيف قد أنضب حيويته، وكانت قد تحللت من دهشتها ورعبها، فأخذت تحدثه عن سماعها أناشيد عشقه التي كان يطلقها يعلن عن البوظة، وتعرف أنه يعنيها، وسيسألها: ولم لم تستجب؟ فتقول: إن الرعب كان قد أنهكها، ونظرة أمه المدينة التي تخيلتها وهي تتحول لتصبح نظرة نساء ورجال الحارة، هذه النظرات التي لن تفهم الحب، بل ستحوّله مباشرة إلى عهر ودعارة، وهي تعرف مصير النساء العاشقات المهجورات، وكيف سيحاصرهن الرجال بشهواتهم، والنساء

بازدرائهن ودفعهن، ودفعهم لها إلى العهر الصريح فقررت أن تهرب، وتعتزل في بيت أهلها.

- أكنت هناك؟ هتف صارخاً منزعجاً من خديعتها له بسماعها نداءه وتجاهله، وشعر في اللحظة نفسها بأنها يجب أن تدفع ثمن طراده، وإنشاده، وحمله ترامس البوظة. كان يضغط على كفها العرقان، ويعرف أنها تذوب، فهذا الكف قد هصره فيما مضى، ويعرف ما معنى هصره. كان يعرف أنها جاهزة لكل ما يريد، وكان بمكر الصياد المحترف يحاصرها بدور العاشق الرومانسي يماشيها إلى جوار النهر. ويخطّط للحظة حملها في سيارته إلى وكر عشقه الذي تخلى له الأب والأم عنه.. وكان يعرف أنهما لن يمضيا إلى بستان داريا طالما لم يعطهما المفتاح، وكان تواطؤ غير معلن يتفق على ترك البستان له يعيش فيه شبابه، فهذا أكرم من اللوبان في الحارات يحمل ترموس البوظة وينشد لبوظة أمية.

كان يشعر بأنها مدينة له، وعليها أن تسدّد الدين، وما السداد إلا في مضيها معه إلى بستان داريا، فأخذ بدربة المحترف يراوغها، ويداورها ويحدثها عن ليالي الأرق، ورسائل العشق التي كتبها، عن النساء اللواتي لم يستطع النظر إليهن فقد كانت تملأ كل فراغ فيه. كان يحدّث ويشعر بأناملها تذوب، وبروحها تتوق، وبأنَّ الصيد صار جاهزاً حين انطلقت فجأة صلية رصاص غير متوقعة، فالتفت، وكان المشهد مرعباً إلى حد أن أخرجه مباشرة من حالة العاشق إلى وضع المطارد، كانت هناك عدة

دبابات ومصفحات والكثير من الجند مع رشاشاتهم وثيابهم المبرقعة.. وعرف أن المخوف قد صار وأنّ الانقلاب الذي يتحدث عنه الجميع قد تمّ.

رأى سبطانة مدفع الدبابة تستدير ليصبح في مرماها، وعرف أنّ ما تبقى له من عمرٍ ثوان، فقفز. كيف قفز؟. لماذا؟ من القافز؟ أكان هو؟ أم مذعور آخر أقوى منه؟ لا يعرف، ولكنه قفز إلى النهر الناضب يفكر في الاختباء بين قصبه وشجيراته، وتلويه. قفز ولم يدرك أنه قد تخلى عنها وهرب، ولكنه هرب. تلوى بين شجيرات القصب والصفصاف والحشائش الطويلة، وتركها لقدرها، وحتى حين سمع صلية أخرى، ثم طلقة مدفع كبيرة لم يتوقف ليتساءل ما الذي جرى، بل كان كل ما يهمه هو إنقاذ جلده. هو لم يخنها، فالخيانة تعني التذكر، أما هو فقد نسيها في محاولة هربه، وقبل أن يصل إلى الجسر الأول رآهم. كانوا ستة بنادق ورشاشين وصراخاً مذعوراً: قف، وارفع يديك. وسمع صلية رصاص تحذيرية، فرفع يديه، وسقط على ركبتيه في طين النهر غير مبال بالبنطلون الأبيض والوحل الذي سيصبغ ركبتيه.. ..

27

ارتجف بشدة لا علاقة لها بالبرد المحيط، التفت من حوله، العتمة وبرودة آخر الليل، وشارع خال من السيارات والمشاة.. .. تنهد.. .. ما الذي أخرجك من بيتك في مثل هذا الوقت. وقد تعاطيت أربع حبوب منومة كافية لطرح جَمَل أرقٍ، فكيف لم تطرحك.. ثم.. لو مروة.. لا. وما الذي تستطيعه مروة؟ أن تروزك من فوق إلى تحت، ثم من تحت إلى فوق، ثم تبحث عن سبب لإدانتك، فأنت مخطئ ولا شك، مخطئ في كل ما قمت به وعلينا أن نبحث عن اسم لهذا الخطأ.

ولكن أيوب قال: كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، التوابون، التوابون، وعمَّ أتوب.. .. ..

وقفزت أمية ليراها عند السور بعينيها المذعورتين تنظران إليه في رعب. أتراه رآها حقاً. أم أن الأمر خيال في خيال. أتراها أطلّت عليه عبر سور النهر، أم أنه كان مذعوراً لدرجة أنه لم يذكرها، ولم يرها.

سمع زمور سيارة عابرة. لماذا يزمّر.. ما الذي يريد.. وخير الخطائين التوابون. ولكن.. من الخطّاء، ومن التوّاب. من الخطّاء

ومن التوّاب. وصل إلى حديقة الحي المجاورة، تسلل فوق سورها الواطئ.. اقتعد كرسياً خشبياً، واستند يتذكر.. مَنْ وراء هذا الجحيم الذي أعيشه الآن؟ أهو التقاعد المبكّر، أهو الهاتف المأمول الذي لم يرنّ؟ أهو الجنرال سعيد وفكرته السخيفة عن كتابة المذكرات. أم.. أيوب عبد الغفور؟ صحيح.. إنه أيوب عبد الغفور. لم يكرهني، ويطاردني؟ ألأني خطفت منه أمية، وأنا لم أخطفها، بل هي من قرصتني وجرّتني من غبائي إلى عالمها النسائي.. ثم من قال إنه كان يعرف أنّا صرنا عاشقين؟ كان الأمر سراً عن الجميع. حسن، فلم يكرهني إذن.. ألأني وأدت الشاعر فيه حين لم تؤثر قصيدته فيها، فترك الشعر إلى ماذا؟ إلى ماذا.. أنت لا تعرف عنه شيئاً، الرجل اختفى، اختفى، الخطاؤون.. التوابون.. الخطا.. ؤون...

رنَّ جهاز الهاتف النقال، رنَّ طارحاً شوبان يغازله، فتح عينيه. لم يصدق. ما هذا. كان شوبان يعزف، وكان يرمش بعينيه يريد معرفة المكان الذي وجد نفسه فيه.. كان هنالك أشجار وعصافير وعشب أخضر و.. أين هو.. في الجنة؟ وشوبان يعزف؟ مدَّ يده إلى الهاتف يتأكد إن كان هناك هاتف حقيقي، ورنين شوباني حقيقي وبهدوء تذكر وهو يتأمل المحيط.. إنها الحديقة الصغيرة المجاورة للبناية.. و.. هل نمت هنا؟ قالها غير مصدق، وضغط زرَّ النقال ليأتي رشيد يلقي تحية الصباح، ويطلب لقاء سريعاً، فوافق شبه مذهول.. ومضى إلى البيت يترنح.. وذكرى الأمسية السابقة تلح عليه. لابد أنها الحبوب المنومة.

حين فتحت الخادم الباب كانت دهشتها أكبر من ترنحه، وحين طلب إليها إعداد القهوة، ثم تهيئة الفطور أنساها طلبه الصارم هذا منظر الرجل الكهل يعود إلى البيت في الساعة السابعة في بيجامة وروب دوشامبر.

مضى إلى غرفة المكتب.. نظر إلى الكومبيوتر.. لا بريد على الطريق. شكر الله، واسترخى على كرسيه المعهود.. شرب من القهوة التي قدمتها له. كان مشوشاً، وكانت تجارب الأمس أكبر من احتماله... صب لنفسه فنجاناً جديداً، وحين أعلنت الخادم أن الإفطار جاهز طلب إليها تأجيله، فهناك شخص سيفطر معه.

ما كاد يشرب الفنجان الثاني من القهوة حتى قرع الباب، وسمع صوت الخادم تفتح الباب، ثم صوت رشيد يحييها، ويدخل..

مجرياً رفع الكلفة ثانيةً: حماتي تحبني.

ثم يرفع ركوة القهوة يتأمل محتواها: أما يزال فيها بعض القهوة لرشيد المسكين؟ أشار راضي إلى الخادم فجاءت بفنجان جديد، وصبّت لرشيد القهوة، ثم توقفت تنظر إلى راضي الذي قال وقد فهم:

- لا بأس. هاتي الإفطار.

رشف رشيد رشفته الأولى الكبيرة من فنجانه على عادته وكان راضي يتأمله في استغراق، ورغم تشويش الحبوب المنومة إلا أنه كان قادراً على محاكمة وتأمل الوجه الأحمر الرضي

الراضي الذي لا يطارده أيوب عبد الغفور، ولا ذكريات تخلٍ عن امرأة أحبته اسمها أمية، ولا ينتظر هاتفاً يعيده إلى أيام الرضا.

وقال رشيد وهو يضع الفنجان في صحنه على الطريقة الأمريكية المتطرفة: هناك خبران، واحد سعيد، والآخر غير سعيد، فجاراه راضي الذي كان يحاول الخروج من الكآبة والتشوش بأي ثمن.

-إبدأ بغير السعيد.

-أيوب عبد الغفور.

-وجدته؟

-لا.

-إذن فأين الخبر.

فأخرج راضي من جيبه ورقة وأخذ يقرأ. أيوب عبد الغفور ثالث أخوته، والمتعلم الوحيد بينهم.

وهز راضي رأسه يعني أنه يعرف هذا، وتابع رشيد: داسته سيارة في الرابعة عشرة من عمره.

وهتف راضي في رعب: ماذا؟

-نعم، واستطعت الحصول على نسخة من شهادة المستشفى التي نقل إليها ومات على الطريق.

-أعوذ بالله - تمتم راضي في رعب - مات؟

-وأنا أستغرب كيف لا تعرف بموته يا سيدي، وقد حدثني أصدقاء الحارة كيف كنت تبكي في جنازته.

-مات؟ تمتم راضي في رعب حقيقي.

-وقد تكفلت كما قال لي السيد فائز نور الدين بنفقات جنازته وثمن القبر.

-مات؟ كرر راضي في حزن من عرف الآن فقط بموت عزيز عليه.

وأضاف رشيد كأنما يواسي راضي: ربما نسيت يا سيدي، فما مر عليك من أحداث ينسي كل شيء.

ولكن راضي قال في ضعف: فمن المطارد.. عفواً أعني المهاذر الذي ما ينفك يرسل لي الصور، والحكم؟

-سنعرفه يا سيدي. سنعرفه. لا شيء يظل خفياً أمام من يصرُّ على كشف الستر.

كان راضي ضائعاً ما بين هول الخبر الذي تلقاه الآن وبين الحبوب المنومة، فيكرر متمتماً: مات؟.. ثم يهمس: وخير الخطائين التوابون؟ مات.. وقصيدة الشعر، والقسم على متابعة مسيرة الشعر..

-على أي حال - قال رشيد في عملية، ثم بلهجة مقدمي برامج المنوعات تابع - أما الخبر السعيد.

ونظر إليه راضي في صمت، فقال: فهو أنّا عرفنا البيت..

وعرفنا الغرفة المطلوبة، واستأجرنا الغرفة المطلوبة، ودفعنا أجر شهرين مقدماً وجئنا بالمفتاح.

ثم انتصب، وتابع: وأنا أنصح بالمضي إلى هناك.

ولكن الخادم دخلت تدفع طاولة الإفطار.

28

حين انفتح باب الغرفة الكبيرة هجمت رائحة عفونة البيوت القديمة بهوائها المحبوس وجدرانها الرطبة، هجمت العفونة، وهجمت عتمة رمادية كادت تتسل إلى الخارج، فانزلق راضي الذي غيَّر ملابسه إلى ملابس متواضعة لا تلفت نظر المستأجرين الآخرين - إلى الداخل..

نظروا إليهما بعيونهم المتسائلة، فألقى رشيد السلام عالياً متحفظاً، فردوا السلام، ولحق رشيد براضي إلى الغرفة الخالية إلا من صناديق فاكهة خشبية محطمة، وكرسيين منزوعي الفرش، ومشجب ثياب عليه معطف مهترئ.. تأمل رشيد الغرفة، وهو يقفل الباب عن الفضوليين، وتساءل: اللهم اجعل الكهرباء موصولة، ثم كبس الزر، فأضاء الغرفة مصباح كهربائي كبير مدلى، ليتبدى الإهمال والهجر بحدة أكبر: هه..

اتجه راضي إلى الجدار القبلي كما حدثت السيرة، فطرق عليه بيده، وارتد الصدى دالاً على الفراغ، فتبدت نظرة انتصار على وجهه، ولم يكترث لرشيد الذي كان يراقب كل شيء في جشع من ينتظر شيئاً كبيراً.

تحسس الجدار يبحث عما يمكن أن يكون المفتاح إلى الفراغ، كان الجدار من الخشب الرقيق البلاكيه المطلي بلون الجدران، وكان مثبتاً بشكل جيد. التفت راضي إلى رشيد: نريد همتك.

- المطلوب.

-أن نفتح ثغرة في الجدار.

تلفت رشيد من حوله، لمح قضيب تسليح حديدي. حمله، ومضى إلى الجدار الخشبي يدق، ويبحث عن مكان اتصاله بالجدار وأخيراً عرف المكان، فحفر الجدار بجانب القضيب المدبّب ثم دسَّه فيما بين الجدار ولوح البلاكيه، دفعه حتى غاب منه شبر أو يكاد، ثم شدَّه فتمزق الطلاء تحت تثّني الجدار الخشبي الرقيق، ضغطه ثانية، ثم شدّ، فانفتق اللوح الخشبي كاملاً، ونظر رشيد إلى راضي في انتصار. تساعدا في نزعه، وإنزاله عن مكانه.. ليحل محلة شرشف أخضر مزيَّن بتطريز أغباني.. وصفر راضي في دهشة: أعوذ بالله.. من أين لهم بهذه المعلومات.. وكيف عرفوا بهذا الشرشف.

رفع رشيد الشرشف لتتبدى المكتبة الخالية إلا من كتاب في قمطر من جلد مزخرف بالذهبي والنبيذي وحيد.

أنزله راضي في احترام. وما كاد حتى سقط إلى الأرض ما يشبه الحبل. رفعه رشيد، ونظر إليه راضي في رعب، فلقد رأى التميمة الجلدية، فاستلها منه بسرعة كمن يستر عيباً، ودسَّها في جيبه.

قال رشيد الذي يبدو أنه لم يعد يدهشه شيء: والآن.

تنهد راضي: أنا في حاجة إلى فنجان قهوة.

وهزَّ رشيد رأسه: هذا أجمل ما سمعت منذ الصباح.

لفّا الكتاب بجريدة عتيقة، وخرجا، ولكنهما فوجئا بصانع الحقائب عند الباب تماماً يحمل صينية وعليها كؤوس الشاي:

-يا أهلاً وسهلاً. يا أهلا وسهلا. آية الرزق إن شاء الله. تفضلوا.. تفضلوا..

واضطرا إلى قبول الضيافة إلى جانب ما كان بحرة ممزقة الجدار، وسارعا إلى إقفال الباب إذ لم يدعواه إلى دخول الغرفة..

مضى صانع الحقائب للإتيان بطاولة صغيرة، فقال راضي: هناك سؤال يلح علي أريدك أن تسأله عنه.

-ما هو. أجاب هامساً.

-من هو الموكل على هذا البيت، وكيف استطاع حمايته من تجار البناء الذين لا يمكن أن يتركوا خرابة كهذه دون الاستفادة منها.

رجع صانع الحقائب مرحباً، وكان جواب سؤال رشيد صفعة كبيرة لراضي: إنه أبو خليل وكيل المعلم الكبير أيوب عبد الغفور.

شهق راضي على غير إرادة منه، وأنّ: أيوب عبد الغفور؟

❖ ❖ ❖

مشيا صامتين مثقلين بحوار لم يخرج من الشفاه.. كان رشيد يحس أن من حقه معرفة ما هذا الكتاب المحبوس وحيداً في مكتبة محجوبة بجدار من خشب مطلي في بيت مهجور. كان يحسُّ أن من حقه معرفة كيف عرف السيد المدير العام بوجود مثل هذا الكتاب في مكان كهذا، يعرفه لدرجة أنه يتجه إليه اتجاه من وضعه بيده. ثم.. .. ما هذا الخيط الجلدي الذي اختطفه مني اختطافاً ودسّه في جيبه.. ترى.. هل الكتاب دليل إلى كنز ما، وهل غيّر الأستاذ مهنته فصار صياد كنوز.

كانت الأسئلة تصل إلى شفاهه، ثم تتشابك مذعورة، فوجه الأستاذ المنقبض مخيف. كان ينتظر منه مبلغاً يعوِّضه عن أجر الغرفة التي استأجرها من ماله الخاص، ويعوّضه عن كل التعب الذي بذله قبل العثور على أبو خليل واستئجار الغرفة منه.

كان الفضول والطمع يتناوشانه، فهو من جهة جائع إلى المعرفة حتى المرض، وهو من جهة أخرى في حاجة إلى كل قرش يمكن للأستاذ إعطاءه، فالبيت، والأولاد.. و.. .. ولكن وجه الأستاذ الذي عاد إلى انقباض وصقيعية أيام المديرية كان يخرسه.

وصلا إلى مقهى الحجاز، فالتفت إلى راضي يستشيره على

حرج، فهو يعرف أن أمثال الأستاذ راضي لا يجلسون في مقهى كالحجاز، ولكن هزة رأس راضي الموافقة جعلتهما يصعدان الدرجات القليلة، ثم سبق رشيد راضي إلى طاولة منعزلة، فلحق به راضي.

صفق رشيد للخادم مستدعياً، وطلب منه إبريق شاي فابتسم راضي: ربما كنت على حق، فوجبة أيوب التي ابتلعناها في حاجة إلى إبريق شاي.. تنهد، ثم سأل: ما تفسيرك.

-لم أعد أفهم شيئاً.

وقال راضي: هناك أيوب عبد الغفور صاحب مقهى الانترنيت في حمص.

فقال رشيد في آلية: وهناك أيوب عبد الغفور الذي داسته سيارة في الخامسة عشرة من عمره.

وقال راضي في ضعف: أنت تحيِّرني. فأنا لا أذكر..

ولكن الخادم أحضر الشاي ونشر الكؤوس في جلبة، وتابع رشيد:

-وهناك أيوب آخر هو من يرسل إليك الرسائل الإلكترونية وهو. ..

فقال راضي في ضحكة مريرة: المتولي على البيت القديم، ومانع التجار من هدم البيت.

-وهذا هو من لم نستطع الوصول إليه حتى الآن.. وهزَّ

رأسه في ثقة، ولكنا سنصل إليه. سأجعله قضيتي.

ورنَّ جهاز الهاتف النقال، فارتعد راضي.. وفكر قبل أن يقرأ الرقم: لقد صار أداة للرعب.. نظر إلى الرقم. كان رقم الجنرال سعيد، فسارع إلى استقباله ومعاتبته: أين أنت يا رجل. لم لا ترد على مكالماتي. وقال الجنرال سعيد: سافرت عدة أيام إلى حلب.. ابنتي كانت تلح علي في زيارتها، وهناك اكتشفت أني نسيت هاتفي النقال في البيت.

هنَّأه بالسلامة. ثرثرا قليلاً، ثم اتفقا على اللقاء مساءً في النادي..

كان راضي في حاجة إلى لقائه. شرب شايه صامتاً ترى ماذا يعرف الجنرال سعيد عن أيوب عبد الغفور. هل أفاتحه بأمره، أم أتركه خارج هذه.. .. الحكاية. كان رشيد يثرثر عن ذكرياتهما في المديرية في سعادة، ويسرد حكايات مضحكة، ولكنَّ أيوب عبد الغفور كان يلاحقه، وخير الخطائين التوابون. التوابون. التوابون.

وأخيراً افترقا بعد وصية مشددة من راضي بملاحقة أيوب عبد الغفور والوصول إليه، ولم يكن رشيد بحاجة إلى توصية، فالقضية أصبحت قضيته الخاصة.

فكَّر راضي في استئجار تاكسي إلى البيت، ثم قرَّر المشي، فلعل المشي يزيل توتره، وصل إلى ضفة بردى، ولاحظ أن مجراه قد ضؤل، وأن الأعشاب والقصب أخذا يشكّلان في مجراه

سدوداً صغيرة محيلة الماء من خلفها إلى ما يشبه البرك.. تقدَّم إلى الأمام، كان على الرصيف أنابيب مجاري عملاقة، وكان عمال يحفرون أنفاقاً لدسِّ أنابيب المجاري فيها.. وبهدوء تسللت أنابيب المجاري أنابيب المجاري. الأنابيب.. .. ..

29

كان صباحاً مريعاً جذبوه فيه من زنزانة لم تكن كالزنازين - هكذا فكّر - ولكنه سيسأل نفسه: ولكن. كيف هي الزنازين وهو لم يعرفها من قبل.. لم يرها زائراً، ولا سجاناً، ولا ساكناً، ولكنها لم تكن كالزنازين - أصرَّ - كانت، حفرة في الأرض تحسسها معصوب العينين، فأرعبته ملاستها، كانت من الطين الإسمنتي الناعم، مستديرة كحلقة، وكان يعرف أن سقفها غطاء من حديد، وأن أرضها الطرية من طين. ليس من نافذة فيها فقد دار فيها مغالباً قيوده وأطرافه الجريحة الممزقة، وساقيه المتورمتين بالرفسات. تحسّس كلّ الجدار الأسطواني يبحث عن باب، عن نافذة، عن منفذ. كيف أدخلوه إلى الزنزانة.

لم يذكر، ولكنه ربما كان مغمى عليه. لا بد أنه كان مغمى عليه، فبعد ذلك الضرب المبرح الذي لم يعرفه في حياته من قبل قط. كيف حملوا كل هذا الغضب. هل أغضبهم؟ إن كل ما فعله أنه قفز إلى النهر خائفاً من سبطانة الدبابة المتجهة إليه.

كان قد نسي أمية، ونسي بيت داريا، ونسي مشروع العشق الضائع، وصار ما يهمه الآن هو أن تكون الضربات أقلّ وجعاً، والموت أقلّ قرباً.

كرَّر طوال الليل: سأعتذر إليهم. سأقول إني مذنب بالقفز إلى النهر.. سأجعل أبي يعتذر إليهم ويقول إنه كان دائماً صبياً طائشاً: أفلم يبهدل العائلة بحمل ترمس البوظة والدوران في الشوارع يهتف منادياً: أصلية بوظة، وهي الأصلية كل حبة وقية.

جرُّوه من الزنزانة الأسطوانية الغريبة والتي سيعرف فيما بعد أنها لم تكن إلا أنبوب مجاري من الإسمنت وضع عمودياً في حفرة واستخدم كزنزانة طوارئ، فلم يعد في السجون وقواويشها وسراديبها وآبارها مكان لسجين جديد، وسيعترف لهم فيما بعد بأن من ابتكرها كان عبقرياً. سجن من أنبوب مجاري إسمنتي يوضع قائماً في حفرة يغطى سقفه بغطاء حديدي ينتزع من ممر مجاري عادي، ثم يثقل بعدد من البلوك والحجارة.

جروه من زنزانته. دفعوه، رفسوه، لم يستمعوا لاعتذاراته الكثيرة بأنه لم يقصد بقفزته سوءاً، بل كانت شتائم من لا يرى وجوههم من خلف العصابة الكبيرة السوداء تغطي وجهه: اخرس، عميل، بورجوازي، فاسد.

لم يدرك لحظتئذ كيف يكون عميلاً، وهو لم يقارف عملاً عدا بيع الألاسكا والبوظة الطوعي والذي لم يترك له إلا ترامس مملوءة بمياه اختلطت فيها الألوان الحمر، بالصفر، بالفستقي، وأوراقاً عائمة فوقها تحمل اسم بوظة أمية. لم يدرك أنه بورجوازي، وقد كان المصطلح جديداً على الحياة السياسية وقاموسها حتى ذلك الحين.

رفسوه، فقطعوا حبل أفكاره، وتأملاته السياسية في المصطلحات التي لا يعرف معناها بعد، رفسوه، ومنعوه من السقوط رغم قوة الرفسات، فقد كان الحبل الذي يشد رسغيه مشدوداً بقوة إلى يد دافعه وسجانه، وقائده إلى.. .. ما الذي تريدون مني.

جاء الجواب سريعاً حين سمع صوت صلية رصاص، وسمع صوت ركبتين تتهاويان وجسد يرطم الأرض، فارتخت مثانته التي لم تكن تختزن الكثير، ولكنها ارتخت، وأحس السائل الأصفر الدافئ يحرق فخذيه، ودهش لقدرة البول على الحرق، ولكنه سيعرف فيما بعد أن ذلك البول الكثيف كان ذا قدرة على الكي، ولم لا يكون كثيفاً، ولم يشرب ماء أو يذق طعاماً منذ قبضوا عليه عند مجرى النهر منذ.. منذ.. لا يعرف، ولكنه لا شك كان زمناً طويلاً.

دفعوه إلى جدار أحس خشونته على أصابعه المربوطة وراء ظهره. سمع خشخشة ورق، ثم صوت رجل أجش يقرأ حكم المحكمة العسكرية عليه بالإعدام لتواطئه مع قوى الغدر والعدوان والإمبريالية، والصهيونية.

أحس مثانته ترتخي، وركبتيه ترتخيان، ومعدته تتقلص وشرجه يرتخي، ولكن فراغ جسمه من كل جسم غريب جعل كل الارتخاءات بلا معنى ولا فائدة.

سمع طقطقة البنادق، ولم يتذكر الشهادتين، ولم يتذكر

أمه، ولم يتذكر أمية، فكل ما تذكره في لحظته تلك هو لون المياه الملونة في الترمس والأوراق العائمة فوقها تحمل اسم بوظة أمية.

في تلك اللحظة ضاع السواد عن العينين، سقطت العصابة أو هذا ما ظن. ابيضّ العالم، فأدرك سخف العالم، وسخف أمية، وسخف الصبيان مطارديها من أصدقائه، وسخف قصائد الحب، وسخف: وهي الأصلية، كل حبة وقية، بتاكلها العجوز بترجع صبية.

في تلك اللحظة أحسّ خفة في صدره، لم يكن يتنفس ولم يكن قلبه ينبض، فلقد عرف أن قلبه في تلك اللحظة مات. وقال في ارتياح: الحمد لله.. لم يعد لديَّ ما يثقلني.. القلب أخيراً مات. لن أتوجَّع الآن حين يطلقون رصاصات النهاية.

في تلك اللحظة تقدمت أصابع، فأسقطت العصابة عن عينيه، وهاجمه ضوء الرماد الفجري. رمش بعينيه قليلاً، فرأى وجهاً حنوناً مبتسماً تأمله الوجه طويلاً. مسح الغبار عن وجهه بمنديل في يده، مسح الدموع عن عينيه، وسمعه يتمتم: سبحان الخلاق فيما خلق، والتفت إلى المساعد من ورائه وقال هامساً: حرام مثل هذا الجمال. لا يجوز أن يموت.

جرَّه المساعد من يده. أخذه إلى غرفة فيها سرير ومصباح، وثياب نظيفة، وطلب إليه المساعد أن يستحمَّ، ودله على غرفة حمام قريبة.

جاؤوه بالطعام. فأكل. كان شبابه أقوى من العزوف عن الطعام، وبعد قليل حضر صاحب الوجه الحنون، فعرض عليه سكائر، دخَّنا، وأخيراً قال: اسمع، حظك طيب. لن تموت.. ولكن هناك شرط.

وانطلق راضي بسرعة غير مترددة: كل الشروط مقبولة..

30

هزَّ راضي رأسه في قوة، لا بد أنها لفتت إليه الأنظار. كان يريد أن يهرب من الذكرى.

استوقف تاكسي، ومضى إلى البيت.

كانت المفاجأة أنَّ الجنرال سعيد قد سبقه إلى البيت، وأنَّ الخادم استقبلته، وأدخلته إلى غرفة المكتبة، وكانت الصدمة أنَّه كان يعبث بالصور على طاولة الكومبيوتر..

لوّح الجنرال سعيد بالصور، وبلوحة كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، ثم سأل: ما معنى كل هذا.

وضع راضي الكتاب الملفوف في الجريدة على طربيزة مجاورة.. ثم تنهد وهو يجلس، وفحَّ: أيوب عبد الغفور.

فقال سعيد مقطباً: ماذا.. .. ثم بعد تفكير قليل: .. .. لعلك لا تعني ذلك الفتى الذي كان يكتب الشعر في الحارة.

فكرر راضي: أيوب عبد الغفور.

-ولكن ما الذي ذكّرك به الآن؟

-وأنت تذكره؟

-أذكره؟ ولم لا أذكره. وهل ينسى الإنسان أصدقاء الطفولة.

وقفت الخادم بالباب، فصرخ بها في دالّة: أين القهوة يا بنتي. أين القهوة؟ وهزّ راضي رأسه أن تأتيهما بالقهوة.

وقال راضي: حدّثني.

-عمَّ أحدثك.

-عن كل شيء.. كل شيء عن أيوب عبد الغفور.

كان مسار الحديث غريباً للجنرال، فما الذي يذكّر راضي الآن بذلك الفتى.. صحيح أنّه كان نجم الشلّة وموهوبها، وشاعرها، ومحدّثها الثرثار القادر على صنع حكاية من أبسط الأحداث، وأن الجميع كانوا يكبرونه عارفين بأنه سيكون شيئاً مهماً في المستقبل، فمن يملك كلّ هذه المواهب لا بد أن يصبح شيئاً مهماً.

وتوقف يتناول قهوته من يد الخادم، ولكنَّ راضي قال في صرامة يستحثه: أكمل

-وماذا أكمل؟ الولد مات.

وقال راضي في اختناق: إذن فأنت تعرف أنه مات.

-طبعاً. وأنت تعرف.. ثم أضاف مازحاً: أم لعلَّ السن والزهايمر.

ولكن راضي أوقف الاستمرار في الهذر: حدّثني. كيف

مات.

كان سعيد محرجاً قليلاً، ولكنَّ نظرة الرجاء في عيني راضي جعلته يقول:

-كان شجاراً سخيفاً، لم يكن له معنى، ولدنة.

-شجار من؟ صرخ راضي.

-شجاركما.

-شجارنا. وهل تشاجرنا؟

-لا.. يبدو أنّك نسيت تماماً. تنهد سعيد، كان ذلك بعد حفلة (وهي الأصلية أمية) ودورانك في الحارات تعلن: وهي الأصلية أمية.. فقد حلَّ اليأس الكامل عليه. أذكر أنه قال لي بعد عودة الشلة من مطاردتك في رحلة (وهي الأصلية أمية): الآن اتضح كل شيء.. .. - ثم في حرج غطاه بضحكة مصطنعة - تابع: لقد خانني.. .. ثم حدثني في انجراح.. .. عن القصيدة أعطاكها لتعطيها لهذه المرأة التي كان اسمها أمية، ويبدو أنك استثمرتها لصالحك إذ كان من الواضح له أنها عشقتك بدلاً من أن تعشقه.

انفجر راضي في ضحكة مقهقهة يفرّج فيها ضيقاً شديداً، طويلاً، ونظر إليه سعيد في اندهاش: وما الذي يضحكك بهذه الشدة؟

-لو تعرف. قالها بين حشرجات الضحك - لو تعرف..

-ما الذي تريدني أن أعرفه.

-أيوب عبد الغفور يطاردني.. يطاردني، ويطلب مني التوبة. أتصدّق بعد أربعين سنة ما يزال يذكر تلك الحادثة.

-يطاردك؟ ولكن أيوب مات.

-ربما كنا مخطئين.

-كيف نكون مخطئين - ونظر إليه في ريبة: لقد مشينا، أنا وأنت في جنازته. وأنت كنت تبكي مثل البنات، وقد فهم أصدقاء الشلة بكاءك اعتذاراً عن شجار الأمس.

-وتشاجرنا؟ أنا وأيوب؟

-ما الحكاية راضي. أيمكن للذاكرة أن تمّحي بهذه الشدة. تشاجرتما كلامياً، ثم بدأ الصفع واللكم، ولولا تدخل الشلة لكانت القضية أكبر.. .. ويبدو أن أيوب قد جرحه الشجار كما جرحته الخيانة فلقد.. قتل نفسه في اليوم التالي.. أنسيت.

-قتل نفسه؟

- أو ترك نفسه يموت.. كان من الواضح أن حكاية المرأة أمية قد كسرته. ثم خرجتَ في جنازته، وتكفّلتَ بنفقات الجنازة والعزاء والقبر، فقد كان أهله أفقر من تدارك نفقات كهذه بسرعة.

-قتل نفسه؟

وما لبث الجنرال سعيد أن غيّر مجرى الحديث: هل سنقضي الأمسية في الحديث عن فتى مات منذ أكثر من أربعين

سنة.. هه.. حدثني اين وصلت بالسيرة مع المؤسسة.

كانت كل هذه الأحداث والذكريات المفاجئة قد أصابته بما يشبه الصداع، فطلب حبَّتي مسكن، وأخذ سعيد يمازحه ليخرجه من حالة الصمت المنكسر، فسأله إن كان الإمساك ما يزال يشدِّد خناقه عليه، وقهقه يزيل حرج السؤال قهقهة صارخة لم يستجب لها راضي، فاقترب منه ملاطفاً ركبته بكفه: والحبة الزرقاء. هه..

انتصب راضي في انزعاج: أرجوك يا جنرال - ولم يكن له عادة بمخاطبته بالألقاب - أنا متعب، وأرغب في الاستراحة قليلاً.

لملم سعيد نفسه في حرج شاعراً بأنه أصبح ثقيلاً، زائداً. انتصب واستأذن بسرعة، ومضى، ولم يماشه راضي، ولم يأسف لانصرافه، فقد كان شعور بالمقت والنفور من كل شيء يلفُّه: أيوب مات. أيوب مات. يستطيع الآن أن يكون واثقاً أنه مات.. ولكن من أيوب المطارد إذن؟ اتكأ على الديوان اتكاءة أقرب إلى الاستلقاء. أغمض عينيه يطلب نوماً يعرف أن من الصعب الوصول إليه، ولكنَّه يشد على أجفانه متمتماً كأنما ينوِّم نفسه: النوم.. .. النوم ولكن الكلمة تتحرف لتصبح أيوب، أيوب، وفجأة وبتداعيات ذاكرته المدربة على التحليل يتساءل: غريب هذا الاسم. أيوب. أيوب، ثم يبرز السؤال: ألكلمة عربية؟ ثم يكمل: أهي من الفعل آب، تاب، رجع، آيب، أوَّاب، وقد سمَّى القرآن داوود بالأواب، التائب، الراجع إلى الله.. .. وإذن، فلم سمَّى المهاذر نفسه أيوب.. فعُّول. لا بد أن الكلمة قبل عربية، ولا بد أن عربيتها

أوّاب.. تنهد.. أكان المطلوب ممن سمّى أيوب بأيوب أن يذكرني بأنه الأوّاب، التواب. أف.. وعبد الغفور أيضاً..؟ تنهد.. إنَّ من اختار هذا الاسم يوقّع به مهاذراته رجل غير عادي. إنه يعرف ما يريد، ولكن.. يا إلهي.. يا إلهي.. قال في ضعف: عمَّ أتوب، وعمَّ أطلب الغفران.

تقلب في مرقده فآلمه شيء في جيبه. مدّ كفه، وأخرج ما في الجيب. إنه الحبل الجلدي والقلادة العتيقة - التميمة.. رماها من يده في رعب من أمسك ثعباناً.. صحيح.. كيف نسيها، كيف نسيها ونسي الكتاب..؟ فكّر.. أقرأ الكتاب، فلعل فيه ما يفسر ما أعيش. لعل فيه ما يخرجني من الدوامة.. لعنة الله عليك يا سعيد، وعلى السيرة التي أغريتني بها.. توقّف قليلاً: ولكن المهاذر يلاحقك قبل سعيد، وقبل السيرة.. وهزَّ رأسه في استسلام: صحيح.

قلّب في التميمة، ثم.. .. قرَّر أن يفتحها، فانفتحت، ووجد الرقعة الجلدية تماماً كما توقع، ولكنَّ الحبر قد بهت قليلاً، كانت واضحة الدوائر السبع المتداخلة، وكلمة لا تخن العهد، لا تخن العهد.

تنهَّد محروقاً: ما معنى هذا.. أيوب عبد الغفور ودلالتها اللفظية، ولوحة كل ابن آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون، و.. لا تخن العهد. ما معنى هذا.. ما معنى هذا.. لائحة اتهام؟ لائحة اتهام؟

وسمع صرخة تنطلق من عمق العتمة تهتف: لحّاس الدم.. لحّاس الدم.. فتح عينيه ليرى الغرفة بإضاءتها المعهودة وأثاثها المعهود، فهزَّ رأسه كمن ينفض غباراً، أو رذاذاً.. وأغمض عينيه يتمتم: النوم.. ولكنه رآه وهم يشدُّونه إلى الإعدام، كان شاباً رقيقاً ما أشبهه بأيوب لو كان أيوب ما يزال الحي، وكان يصرخ في جرأة: لحّاس الدم.. لحّاس الدم.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها هذا اللقب الذي سيعلق به لسنين كثيرة قبل أن يوفد لدراسة الدكتوراه، ويتخلّى عن ماضيه قاضياً ثورياً أرسل بالكثيرين إلى الإعدام في سبيل القضية.

لحاس الدم.. ما معنى هذا.. أعوذ بالله.. ما معنى هذا.. الآن فقط يذكر. كان اسم القبيلة التي انتمى إليها ذو الخمار.. لعقة الدم.. لحّاسوا الدم.. شهق في ذعر.. ما معنى هذا.. ما معنى هذا.. هل انغلقت الدائرة.. ما معنى هذا.. صرخ واقفاً وكأنما أذعره إغماض العينين ومواجهة مناديه باسم لحّاس الدم.. ما معنى هذا.. أوقد رجعت إلى لعقة الدم.. هل خان الجميع العهد.. ولكن.. قفز إلى حيث الكتاب يريد قراءة ما لم يقرأ أحد من الأجداد فيه. أمسك بالكتاب فأزّ الكومبيوتر. توقّف. لعله رشيد.. أو لعله أيوب، أو.. كاد يغمى عليه من التوتر والاضطراب، ثم تمتم: الكتاب يستطيع الانتظار. دعنا نرى الكومبيوتر.

مضى إليه، ورأى جملة بريد على الطريق، فضغط أزرار قبول البريد، ثم أمر بتحويله إلى الطابعة، واتّجه إلى المخطوط،

شدَّ اللسان الحافظ للمخطوط من القمطر، فانشدَّ. وبدا المخطوط، أوراقاً سميكة وغلافاً آخر من الجلد السميك. حاول إخراج المخطوط من القمطر، ولكن الرطوبة لا شكَّ والزمن جعلاهما يتلاصقان.. أمال القمطر إلى الأسفل، ضربه بالأرض ليزلق الكتاب منه، ولكنهما ظلا متماسكين. جاء بقاطعة الأوراق فدسها بين القمطر وجلد الكتاب، فانزلقت. أجالها يميناً ويساراً، فتحركت بصعوبة. أكمل زلقها على جانبي الكتاب مما أقنعه بأنه فصل الكتاب عن القمطر. حاول إخراج الكتاب، ولكنه ما زال ملتصقاً بالقمطر. ضربه بالأرض، ولا فائدة.

سمع رنَّة الطابعة تعلن أنها طبعت ما حوَّل إليها، فترك القمطر، ومضى إلى حيث الطابعة. رفع الأوراق، وجمعها في ملف على عادته.

كان الخيار صعباً، بل شديد الصعوبة، فإما أن تكون القتيل، وما يفصل بينك وبين فرقة الإعدام إلا رفة عين يطلقها صاحب الوجه الحنون، وإما أن تكون القاتل.

كان فتى في الثامنة، أو التاسعة عشرة ما يزال، وكان الموت الذي شمَّ ريحه قبل ساعات، وسمع طرقات مخالبه تقصف حين كان المعصوب المضروب، الجائع، ولا خبرة لديه، فهي تجربة لم تعرفها المدينة من قبل.

تمتم مذعوراً: كيف أصنع.

ساقه ذو الوجه الحنون إلى باحة كان فيها العشرات.. رجال

ونساء، مراهقون وعجائز. كانوا جميعاً معصوبين جاثين ينتظرون.. قال ذو الوجه الحنون: أنت محظوظ حين وهبك الله هذا الجمال الذي أنقذك.. ولكن عليك أن تساعدنا في إنقاذك.

همهم مذعوراً وهو يرى الناس المعصوبين الجاثين لا حول ولا طول:

-كيف أصنع؟

-لا شيء. كلُّ ما عليك فعله هو أن تتخيَّل نفسك وقد صرت في قوة إله، في قوة عزرائيل، في قوة البراكين، في قوة الزلازل.. أنت الوحيد في هذه اللحظة الذي يستطيع ممارسة لعبة نادرة كثيراً ما حلم بها ولعبها بنو البشر المحظوظون حين يصادف أن يكونوا مع القدر في لحظة واحدة.. تخيَّل - وكان الرجل ذو الوجه الحنون مخرجاً مسرحياً، وسيعرف ذلك فيما بعد، وحين تتمتَّن معرفتهما كل بالآخر - تخيل هذه القوة الرائعة. تشير بيدك فإذا بمن أشرت إليه ميت. تخيَّل. كم رجلاً عرفت في هذا العالم ملك هذه القوة.. ألم أقل لك.. محظوظ من عاش لحظة الثورة حين تسقط كل القوانين السماوية والأرضية، ويصبح القانون الأوحد هو قانونك أنت.. أشر بيدك. فقط أشر.

وهمهم ضائعاً: وماذا بعد.

-تصبح واحداً منا، من سادة العصر القادم.

وتابع الهمهمة: وكم مرة يحقُّ لي أن أشير.

-لن يحقّ لك الكثير، ولكن ليس أقل من أربعة. أنت

تساوي أربعة من هؤلاء الناس.. هه.

قدم إليه جهاز بروجكتور.. قال: سأطفئ الأنوار كلها ولن يشعروا بذلك، فهم معصوبون، موثوقون.. حرِّك البروجكتور، وأشر بنوره إلى من تشاء، وفي اللحظة التي يقع نور البروجكتور عليه يكون قد اختفى.

أطفئت الأنوار. اتكأ على البروجكتور، أضاءه موجهاً إلى الأعلى.. أنزله إلى الجموع بسرعة، ثم توقف فجأة على وجه فتى، فتقدم.. اثنان من الجلاوزة، فقبضا على أسير البقعة الضوئية. وهمس الوجه الحنون عبر ميكروفونه: ارفعوا العصابة عنه.. .. رفعوها، وكان وجه أمجد بائع البوظة. .. ..

اختنق راضي فجأة. اختنق بلعابه، فرفع وجهاً راجياً، وجهاً طالباً الصمت، النسيان. لقد عرف الآن سبب امّحاء صورة أمجد في الصورة الجماعية، ثم جلائها.. أنَّ في انكسار، ولكن قوة مازوخية، رجعت به إلى الملف ليقرأ.

جرَّ الجلاذان أمجد بينما أدار الفتى جهاز البروجكتور ليسقط على شاب معصوب، وأشار المخرج المسرحي ذو الوجه الحنون ليرفعوا العصابة، فرفعوها ليتبدَّى وجه أبو صلاح نجار البيتون الذي لم يكن في جيبه عند القبض عليه إلا سيكارة واحدة، فقد دخّن الثانية قبل القبض عليه.

همهم راضي: الآن بدأت أفهم.. .. الآن أخذ كل شيء في الاتضاح، إذاً فالصورة الجماعية كانت صورهم.

رمى الملف، وانتصب، فهاجمه سؤال مريع: ولكنهم بدأوا يخلطون. المؤسسة ليست مسؤولة عن هذا الجزء من السيرة. هذه ذاكرتي، فكيف خلطوا بين السيرة والذاكرة الخفية، المستورة حتى عن أنكر ونكير.

ثم أنّ في حزن: إنه أيوب. أيوب المهاذر، المطارد، اللعنة. ما الذي أسأت إليك به يا أيوب. ورنَّ الكومبيوتر يعلن وصول رسالة، فمضى إليها آملاً أن تبعده عن كرب الملف. ضغط الأزرار ليفاجأ بلوحة.. وخير الخطائين التوابون. أطفأ الجهاز. لو أعرف من هو هذا الأيوب المطارد. لو أعرف.

رأى الكتاب الملقى على الأرض بقمطره المزخرف بالذهبي والنبيذي. سأل: ترى ماذا يمكن لكتاب كهذا أن يحمل لي..

قال: أفتحه، فكل ما يحمل لن يكون في سوء هذه السيرة الملعونة ترسلها إلي مؤسسة الإنشاء والترميم.

رفع الكتاب عن الأرض، ورفع قاطعة الأوراق، جرّبها، ثم رماها، فقد عرف عجزها.. مضى إلى المطبخ، فجاء بسكين طويلة دسها في فراغ ما بين الكتاب والقمطر، ثم أدارها، فحرَّر الكتاب من قمطره. هزَّه مائلاً إلى الأسفل، فانفصل الكتاب عن القمطر. كان مجلّداً بجلد ثمين مزخرف بالذهبي والنبيذي.. تأمله. ثم تمتم: يا لجماله، ويالبراعة الفنان الذي زخرفه.. فتحه. قاوم الكتاب قليلاً، ولكنه انفتح أخيراً، لم يكن ورقاً عادياً مما يصنع في أيامنا، بل كان ورقاً سميكاً أقرب إلى الرق منه

إلى الورق.. فتح الصفحة الأولى، وكانت الكتابة بخط يشبه الكوفي. قرأ..

هذه هي الصفحة الأخيرة من سيرة ذو الخمار، الرجل الذي أنقذه العهد من لعنة لعقة الدم.

انتهت الصفحة. كانت الكتابة بحرف كبير جداً. قلب الصفحة السميكة وقرأ.

أنقذه العهد، ولكنه خان العهد. خانه بالإعجاب بالذات والكبرياء فعوقب بالحرمان من الهبة الربانية يحملها، ولا يجرؤ على كشفها للناس ولا التعاجب بها، فأصبحت عقوبة بعد أن كانت نعمة.

انتهت الصفحة، وتنهد راضي قبل أن يقلب الصفحة، ثم تساءل: ترى كيف كانت الكتب الأخرى إن كان الأخير بهذه القسوة. أراد أن يضع الكتاب من يده لكن الفضول غلبه، فقلب الصفحة ليقرأ.

كانت خيانة أبو فاروق الاستسلام للشهوة حتى خان العهود، فطعن الصديق، وأكل الرفيق، وجعل من النساء طبقاً يرمى بعد أكله، فحرم من المنحة التي وهبت له، وأرجع إلى قناع الدمامة والوجه المحروق لا يجرؤ على كشفه للناس، وأعيد إلى لعقة الدم، العينان الضيقتان والشفتان شقٌ في الوجه، وجفاف في الفم كان عليه أن يرطبه بلسان الثعبان.

تحسس راضي فمه بلسانه، وتساءل: الحمد لله أني لم

أعاقب عقوبة ذو الخمار، ولا عقوبة أبو فاروق، ثم قلب الورقة يقرأ.

كانت خيانة ريحان الفقير أنه ما إن ذاق طعم الثراء حتى خان العهد، وانفلت كواحد من لعقة الدم على البساتين يدمرها، وعلى البيوت القديمة العاجّة بالأرواح والأجداد فيحرثها ويحيلها إلى هباء، ثم يقيم بنايات من قبح.. . أنهكه الجوع، وأنهكه الجشع للطعام حتى اختفت الهبة الإلهية تحت كتل الدهن، فصار الخنزير.

أراد أن يقفل الكتاب، فلقد أدرك أنه دوره الآن، ثم ذكر فجأة مقالة ذي الوجه الحنون بعد أن أطفأ البروجكتور حين نظر إليه ثم اصفرّ، فلما سأله راضي عما يضايقه تمتم غير آبه لسماع راضي له: أعوذ بالله. أين اختفى الجمال، وحل القناع من صقيع وفولاذ..

أقفل الكتاب فلقد عرف ما سيقول الكتاب، ولكن الفضول غالبه فغلبه، ففتح الكتاب.

كانت خيانات راضي للعهد كثيرة، ولكن أسوأها كان حين ركز البروجكتور على امرأة عرف حين انتصبت، ورفعت عنها العصابة أنها أمية، فجبن عن الاحتجاج، وتركها تموت لينجو.

كانت خيانته نهاية الخيانة، وكانت عقوبته أسوأ العقوبات، فمعه انتهت السلالة، فوحيده انتحر، وابنته قتلت مع

ابنها في حادث السير، وكان على هذه السلالة التي رفست النعمة، وغرقت في خيانة العهد أن تنتهي.

أقفل الكتاب. مضى إلى المرآة يتأمل وجهه ليفاجأ بأن ما كان يمنعه من إقامة علاقات حقيقية مع الناس ما كان إلا هذا الوجه المصنوع من صقيع وفولاذ..

عاد إلى كرسيه الموريس. تمنى لو يبكي، ولا بكاء ولا دموع.. تمنى لو يستغفر، ولا غافر، ولا غفران، تمنى لو يتوب، ولكن إلى من؟ والحكم صدر، والنعمة استلبت، والسلالة انقرضت.

قرع جرس الباب الخارجي. انتظر متعباً الخادم تفتح الباب، ولكن الخادم لم تكن في البيت. مضى، فتح الباب، وكان رشيد المتعب المضطرب، العرقان..

مشى أمامه إلى المكتب. جلس، وأشار إليه بالجلوس ولكنّه استمر في الوقوف. لاحظ الملفّ السميك الذي يحمله. فسأله في ضعف: إلى أين وصلت في قضية أيوب عبد الغفور.

نشر رشيد المصنف أمامه على الطاولة، أخرج صورة هوية راضي الخاروفي، أخرج عقود المقهى الإلكتروني في حمص، اخرج نسخاً عن أقراص مدمّجة وأشرطة كاسيت، فلما سأله راضي ما معنى كل هذا. قال رشيد بصوت أجوف: ولكنك أنت أيوب عبد الغفور يا سيدي.

2005 / 10 / 7

خيري الذهبي

- مواليد دمشق **1946**
- خريج القاهرة **1968**

صدر له

- ملكوت البسطاء	رواية	- دمشق 1975
- طائر الأيام العجيبة	رواية	– دمشق 1977
- ليالٍ عربية	رواية	– بيروت 1980
- المدينة الأخرى	رواية	– دمشق 1985
- «التحولات»		
- حسيبة	رواية	– دمشق ط3 2003
- فياض	رواية	– دمشق 1991
- هشام أو الدوران في المكان	رواية	– بيروت ط2 2003
- الجد المحمول	قصص	– دمشق 1993
- فخ الأسماء	رواية	– بيروت 2003
- التدريب على الرعب	مقالات	- دمشق 2003
- لو لم يكن اسمها فاطمة	رواية	– القاهرة 2005
- صبوات ياسين	رواية	– بيروت 2006

الأعمال ال

كن يرسلن إليه أزهار الشابّ الظريف ليعرف أنه ظريف، وأزهار فكر فيني ليعرف أنهن يفكرن فيه، وأزهار الكباد ليعرف أن أكبادهن توجعهن كلما مرّ بهنّ. وأزهار القلب المحروق ليعرف أن قلوبهن احترقت. وأزهار ورد الأرق ليعرف أن مرضهن القاتل هو الأرق، وأزهار عطر الليل ليعرف أن وجوده قريباً منهن يعطر لياليهن، أما أزهار الجرح الدامي فكانت ليعرف أن قلوبهن تنزف من العشق